مذاهب وشخصيات

برتراند رسل المفكر السياسي

تأليف:
رمسيس عوض

الاهـــداء

الى أخى فى العمل والصبر والجهـــاد

... الى ذكرى آنور المعداوى ....

رمسيس عوض

القاهرة ١٩٦٦

مقدمة

عندما أنظر الى عالم الذات الممزقة المنقسمة على نفسها ، والى مأساة العالم الخارجى الاهوج المضطرب ، يصيبنى كثير من اليأس ، وقليل من الرجاء ٠ ولكن حين أقرأ برتراند رسل يداخلنى قليل من اليأس وكثير من الرجاء ، وفى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الانسان ، نجد ان أهمية برتراند رسل قد تجاوزت كونه عالما رياضيا عملاقا أو اماما من أئمة الفلسفة المحدثين ، فقد غدا بفضل دفاعه المجيد عن قضايا السلام رمزا وأملا للبشرية ٠ ومن ثم كان العزاء والسلوان فى قراءته ٠ وانا لا أشك للحظة واحدة ان الله قد أودع فى قلب هذا الرجل الهزيل الضامر ضمير الانسانية ، وعهد اليه بمهمة الحفاظ الشاقة على أجهزة الحضارة القائمة ٠

ان الانسانية كما يقول جوليان هكسلى لا تزال تجر أقدامها فى الوحل البيولوجى الذى تفرضه علينا طبيعة الحياة على الارض ٠ ولكننا بالاضافة الى هذا الوحل البيولوجى ، قد خلقنا بأيدينا أوحالا أخرى نتمرغ فيها : خلقنا أوحال المظالم الاقتصادية وأوحال الطغيان السياسى ، وأوحال الاوضاع الاجتماعية العفنة ٠ واذا كنا فى الماضى قد عشنا أسيرى الوحل البيولوجى الذى تفرضه طبيعة الحياة علينا ، والوحل الذى يفرضه الانسان على نفسه ، فليس هناك ما يدعو الانسان لتلطيخ نفسه بالاوحال أكثر مما فعل ٠ والامل يحدونا أن يصبح الانسان سيد موقفه ومقرر مصيره ٠ وبرتراند رسل رمز وأمل ، فهو يمثل سعى روح الانسان كى تنطلق وتحلق فوق روابى من الامل المشرق والرجاء البسام ، كما يمثل الرغبة فى التحرر من سجن المخاوف والضغائن والظلمات القابعة فى أعماق الانسان ان مشاعرى تهتز من الأعماق عندما أسمعه يقول فى دفاعه عن السلام :

« وبالتخلص من الخوف ، ستنطلق طاقات جديدة وتحلق روح الانسان عالية . وتصبح قادرة على الخلق والابداع والتجديد ، وستبدد المخاوف القديمة السوداء التى تقبع فى أعماق أذهان الناس » وحين يقول : « وانى لأرى عندما أسرح بخيالى عالما من المجد والفرح ، عالما تنطلق فيه العقول ، ولا تكتنف فيه الظلمات أمل الانسان ، عالما يبطل فيه دمغ النبل ووصمه بانه خيانة لهذا الغرض الخسيس أو ذاك الهدف الدنىء » .

ان صوت برتراند رســـل يجلجل فى السماء : لا بد للعقل أن يسود ، ولا بد للحـكمة أن تنتصر ، ولا بد للتســامح أن يدك معاقل التعصب ، ولا بد لحمامة السلام أن ترفرف على وجه الارض . ولكن هذا الصوت لن يضيع فى البرية أبدا . فللسلام أصدقاء مخلصون فى الغرب والشرق على حد سواء . والشعوب تريد أن تبنى وتعمر ، لا ان تدمر وتخرب . كما ان هناك كتلة بأسرها فى الوقت الراهن ــ واعنى بها كتلة الحياد ــ قد أخذت على عاتقها تبنى شعارات السلام والتبشير بها فى المحافل الدولية مهما جابهت من صعاب ، ومهما كلفها دفاعها عن السلام من جهد ومشقة .

ولد برتراند رسل عام ١٨٧٢ . وبالأمس القريب احتفل العالم ببلوغه التسعين من عمره .

ولقد لقى راسل من أجل دعوته الى السلام الكثير من ألوان العنت والخسف والاضطهاد . فعندما دعا ابان الحرب العالمية الاولى الى انهــاء الحرب بأى ثمن ، ثارت ثائرة الحانقين عليه واتهموه بأبشع التهم . اتهموه بانه خائن لانجلترا وعميل لعدوتها ألمانيـــــا . وطردته كلية ترينيتى بجامعة كامبريدج من أستاذيته للرياضيات ، وتعرض لاعتداء الغوغاء عليه حتى سال دمه الطهور ، وكادت روحه أن تفيض . ثم كللت الســلطات الانجليزية نفسها باكليل العار فأودعته غياهب السجن لبضــعة شهور تماما كما فعلت به منذ عهد قريب . ففى الامس غير البعيــد لم ترحم الرجعية الانجليزية شــيخوخته فزجت به فى الســجن هو وزوجته مدى سبعة أيام حتى يستغفر ويتوب . ولكن ادارة الامن الانجليزية بكل ما لديها من وسائل القسر والارغام وقفت مكتوفة الايدى ، ذليلة وخانعة أمام الهيكل الفانى المدعو برتراند رسل . والحقيقة ان سكوتلانديارد أرادت تزييف ضمير الانسان فأصابها الاخفاق ، وجنت شوك الفضــيحة والخزى والعار .

يجدر بنا والعالم الشريف يحتفل بعيد ميلاد برتراند رسل التسعين أن نلم بطرف من سيرته وشيء من فلسفته ٠

نشأ رسل فى أسرة ارستقراطية عريقة يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر ٠ وكانت أسرته تتوارث فى غير انقطاع الجاه والسلطان ، والنفوذ السياسى ٠ فجده اللورد جون رسل مثلا تولى رياسة الوزارة مرتين فى عهد الملكة فيكتوريا واليه يرجع الفضل فى اصدار قانون الاصلاح المشهور عام ١٨٣٢ الذى حقق لانجلترا قدرا عظيما من الديمقراطية لم تكن تحلم به ٠ وكان أفراد عائله رسل أعضاء مرموقين فى حزب الويجز المعروف بعدائه الشديد لحزب « التوريز » وكان طابع حزب « الويجز » الذى تطور فيما بعد الحرب الى حزب الاحرار شدة الايمان بالافكار الديمقراطية الليبرالية المتحررة ٠ أما حزب التوريز الذى أصبح فيما بعد حزب المحافظين فقد كان موغلا فى المحافظة والرجعية ٠ ولا شك أن نشأة برتراند رسل فى هذا الجو الليبرالى الحر قد ساعدته على تحرير أفكاره وجهازه النفسى منذ حداثته من ربقة المحافظة السياسية ٠ لكى ندرك مبلغ اثر جو العائلة الليبرالى عليه يكفينا أن نشير الى ماكتبه الفيلسوف فى كتاب له بعنوان « صور من الذاكرة ومقالات أخرى » : « لقد تعلمت نوعا من الايمان النظرى بالمذهب الجمهورى الذى لا يرى غضاضة فى السماح للملك يتولى الحكم مادام انه موظف فى خدمة الشعب يتعرض للطرد اذا ثبتت عدم صلاحيته ٠ وقد كان من عادة جدى الذى لم يكن يحمل الاحترام للأشخاص بل يحترم ما يمثلونه من قيم وأفكار ان يشرح وجهة النظر هذه الى الملكة فيكتوريا التى لم تكن تعطف عطفا تاما عليها » ٠

لا غرو اذن اذا رأينا برتراند رسل سليل النبلاء يناصب طبقته الارستقراطية العداء ويسخر فى كتاباته من كسلها ، فهو يقول عنها انها مسئولة من الناحية التاريخية عن تثبيت فكرة قداسة العمل اليدوى فى أذهان الفقراء حتى يكدوا ويكدحوا ويقدموا ثمار جهدهم قربانا على مذبح الشرف الزائف والتضحية السخيفة لهذه الطبقة المترفة تنعم وتستأثر به٠ هاجم رسل امتيازات هذه الطبقة الموروثة التى لا تتمشى مع مقتضيات العصر الحديث ٠ وعاش آراءه فنبذ ألقابه الارستقراطية الموروثة وفضل لنفسه اسم برتراند رسل مجردا من الالقاب ٠ فلا غرابة اذن اذا رأيناه يفخر بانه لا يعيش عالة على أحد كما يفعل نظراؤه من المنتمين الى هذه الطبقة ، فهو على حد قوله يكسب قوته بعرق جبينه (عن طريق القاء

المحاضرات وتأليف الكتب وما أكثرها) • ورسل فى تصرفه هذا قريب الشبه بالسفسطائيين عندما كانت السفسطائية فلسفة لها وزنها واعتبارها ، لا مضغة تلوكها الالسن ، وقبل أن يدب اليها العفن فيصبح اسمها مقرونا بالمهاترات الفكرية والاسفاف فى الجدل السقيم • فرسل كالسفسطائى الاغريقى المتجول ، يجوب الآفاق معلما لقاء أجر يتقاضاه • وقد باشر برتراند رسل التدريس فى جامعة بكين فى الصين كما باشره فى أمهات الجامعات الامريكية • هذا طرف من سيرة رسل الارستقراطى المتمرد •

لكى نفهم طبيعة رسل المتمردة علينا أن نتتبع جذور تمرده فى يفاعته • ومن الغريب ان أسرته المتحررة من الناحية السياسية كانت شديدة المحافظة فى مجال الاخلاق كما كانت شديدة الاستمساك بالتقاليد الدينية • وكانت الاسرة تتبع أسلوبا صارما فى التربية فهى تؤمن بالشظف والنظام الاسبرطى الدقيق • وشعر الغلام بانه يختنق فى هذا الجو الخانق المتزمت ، وانتابته تعاسة لا حد لها • أنظر اليه وهو يكابد غصص الالم حين يكتب عن هذا النظام التربوى قائلا : « كانت الفضيلة هى الشىء الوحيد الذى تعلق الاهمية عليه ، الفضيلة على حساب العقل والصحة والسعادة وكل مصلحة دنيوية » والذى لا شك فيه ان ثورته فى وجه التقاليد وقواعد الاخلاق السائدة فى المجتمع الفيكتورى ترجع الى اشمئزازه وسخطه على أخلاقيات المجتمع الفيكتورى الصارمة القاسية التى شب فيها • وعندما التحق برتراند رسل بجامعة كامبريدج غمرته سعادة لا توصف لان دخول الجامعة وفر له سبل الفرار من جو البيت الصارم القاتم السقيم • وبعد تخرجه فى الجامعة التى درس فيها الرياضة أرادت له العائلة أن يلتحق بالسلك الدبلوماسى ، وأغرته على ذلك بشتى الطرق • ولكنه رفض وأصر على دراسة الفلسفة التى كانت الاسرة تنظر اليها باحتقار شديد • ولم يقتصر تمرده على علاقته باسرته بل امتد فيما بعد حتى شمل الكثير من التقاليد الفكرية المألوفة فى المجتمع الفيكتورى•

ويحق لنا أن نتساءل عن الجذور الفكرية التى استمد منها رسل تمرده كفيلسوف • صحيح ان رسل قد خرج على الكثير من التقاليد الفكرية المألوفة • ولكن من الخطأ أن نظن ان الخروج على قواعد الفكر المألوفة ظاهرة جديدة فى حياة الفكر الانسانى عامة وحياة الفكر الانجليزى بوجه خاص • فعلى الرغم من ان المحافظة هى اللون الغالب الذى يتميز به المجتمع الانجليزى الا ان هذا المجتمع يتعرض لهزات فكرية عنيفة من آن

لآخر • ولعل أجل هذه الهزات التى تعرض لها المجتمع الانجليزى المحافظ كانت فى مطلع القرن التاسع عشر ، قرن الثورة الصناعية واستحداث الآلة وتطويرها • ولا يغيب عن بال أحد ان الثورة الصناعية أثر من آثار العلم كما ان العلم نفسه هو الابن البكر للعقل البشرى • ففى أوائل القرن الماضى بشربنتام (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) بالعلم وبالعلم وحده ، وبتسـليط أضواء العقل على شتى الظواهر واخضاع أوجه النشاط الانسانى المختلفة لأحـكام المنطق • وقد بلغ الامر ببنتام انه استبعد المشاعر والعواطف الانسانية ومن بينها العقائد الدينية والشعر لان هذه الاشياء فى نظره لا تصمد أمام معاول العقل ، ولانها تتبخر أمام التحليل المنطقى والبحث العلمى • وآمن جيمس استيوارت ميل (١٧٧٣ ــ ١٨٣٦) بمذهب بنتام وروج له فى كتاباته كما انه قام بتربية ابنه الفيلسوف المعروف جون استيوارت ميل (١٨٠٦ ــ ١٨٧٣) فى أحضان هذا المذهب العلمى البحت ولكن الابن تمرد على مذهب العقل الصرف وأحس بجدبه فقد أحس أن بقلبه فراغا لم ينجح العقل الصرف أو العلم الخالص فى ملئه • ولذلك استهواه الشعر وجنح الى العـاطفة والخيـال ووجد فى رائد من رواد الرومانسية الانجليزية وهو ورد ذورث ضالته المنشودة • وهكذا احتفظ جون ستيوارت ميل بجوهر المذهب العقلى بعد أن لطفه بالشعر والعاطفة والخيال •

ولا بد لنا أن نقف على حقيقتين هامتين بشأن ازدهار هذا المذهب العقلى المادى فى القرن التاسع عشر :

١ ــ ان ظهور هذا المذهب مقرون بالديمقراطية وبالحرية فى الفـكر والتشريع أى انه مقترن بما يسمى بالديمقراطية الليبرالية •

٢ ــ ان الشك لم يتطرق الى فلاسفة هذا المذهب فى قدرة العلم على النهوض بالانسانية بل وعلى حل كل المشـاكل التى تعرض للانسان فالقرن التاسـع عشر فى مجمـوعه قرن نماء وتمدد اقتصادى وهو قرن مستقر يستبشر خيرا بالعلم وبالمستقبل •

لا بد من ذكر هذا كله حتى نفهم أن للمذهب العلمى العقلى ــ وكذلك التقليد الديمقراطى الليبرالى ــ جذور عميقة فى الفكر الانجليزى • بل لا بد أن نذكر أيضا الفيلسوف الانجليزى جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧١٤) حتى نفهم كيف ان جذور مذهب رسل العقلى تمتد الى القرن الثامن عشر •

ان فلسفة رسل امتداد طبيعى للقرن التاسع عشر ورد فعل ضده فى وقت واحد • هى امتداد طبيعى من حيث ايمانه بجوهر الديمقراطية الليبرالية بأسلوب يتمشى مع مقتضيات القرن العشرين ، ومن حيث انه

يؤمن بالمذهب العقلى العلمى ولا يرتضى بغير مقياس العقل والمنطق بديلا ٠ وهو على هذا الاساس يشن حربا شاملة على المعتقدات الدينية ويهاجم فكرة التصوف كما انه لا يؤمن بوجود اله وان كان لايقطع بعدم وجوده (أنظر مؤلفاته التالية : « التصوف والمنطق » ـ « العلم والدين » ـ «لماذا لست مسيحيا » ـ « مقالات متشككة » ٠٠) ٠ ويقسو رسل فى هجومه على التعاليم الدينية الخاصة بالجنس ويرى انها تعاليم لا تتفق مع منطق العلم الحديث ويدافع رسل عن الحرية الجنسية فى كتبه التربوية (أنظر « فى التربية » ـ « التربية والنظام الاجتماعى » ـ « الزواج والاخلاق » ٠٠ الخ) ٠

ورسل شديد الشك فى العواطف ، وهو دائب القول بانه لاسبيل الى الوصول الى الحقيقة اذا استجاب الانسان لعواطفه بدلا من استجابته لعقله ٠ وهو لا يؤمن بوجود حقيقة مطلقة ٠ وثقته الكبيرة فى علم الرياضة نرجع الى اعتماد هذا العلم على أحكام العقل لا على اهواء الذات البشرية ونوازعهـا ٠ وهو يريد أن يطبق الاسلوب العلمى فى التفكير حتى على المنازعات فى مجالات السياسة وذلك بمعالجة الخلافات السياسية تماما كما يعالج الانسان مسألة رياضية أى بالابتعـاد عن الذات ، واخضاع هذه الخلافات لمنطق العقـل ٠ فهذا هو الضمان الوحيد للوصول الى الحقيقة الموضوعية التى يمكن لانسان أن يتوصل اليها ٠ وهو دائب على القول بان المنهج العلمى فى التفكير يحمينا من التعصب وضيق الافق ومن الشطط والتطرف والاضطهاد ٠

ورسل استمرار للقرن التاسع عشر فى ايمانه العميق بالفرد والحرية الفردية ٠ والذى يؤلمه فى عصرنا الحديث هو اختفاء الحرية واختفاء الروح الليبرالية الديمقراطية الاصيلة الراسخة فى تربة القرن التاسع عشر ٠ والوضع الاجتماعى الأمثل فى نظره هو الذى يسود فيه التنظيم كما تسود فيه سلطة القانون مع توفير أكبر قدر من السيادة الفردية ٠ وهو فى هذا الصدد يتحدث باشمئزاز عن الدولة التى تؤمن بفلسفة معينة وتسخر البحث العلمى لتأييد هذه الفلسفة ، وتعمد الى اضطهاد النتائج العلمية التى تتعارض معها ٠ وينصب هجوم رسل على الدول الشيوعية والدول الفاشية بالذات فقد كان العلماء الفاشست مثلا يزيفون الحقائق العلمية لخدمة الفلسفة الفاشية والسياسة الفاشية ٠ فنادى علماء الاحياء الفاشست بان هناك فرقا بيولوجيا بين تركيب دم الرجل الاســـود ودم الرجل الابيض ٠ ولم يكن ستالين خيرا من هتلر فى هذا الشأن فقد كان يحارب

آراء منديل فى علم الوراثة لان القوانين التى استخلصها منديل لاتستقيم مع الاطار العام للفلسفة التى تفرضها الشيوعية على المجتمع ٠

ولكن رسل فى الوقت ذاته رد فعل ضد القرن التاسع عشر بقيمه الرجعية المنافقة وبتفاؤله المطلق بالعلم ٠ وسبب ذلك انه يرى الاخطار الداهمة التى ينطوى عليها التقدم التكنولوجى الهائل الذى أحرزه القرن العشرين ٠ وهذا طبيعى ، فقد ذاق رسل مرارة حربين عظيمتين فى مدى قصير ٠ وفى نظره ان التقدم المادى والتكنولوجى لايكفى فى عالمنا الحديث٠ فقد يكون مصدر شقاء شامل بدلا من أن يكون مصدرا للسعادة الشاملة٠ ويرى رسل ان الانسان الحديث يملك من وسائل القوة الشىء الكثير ولكنه لا يتصف بالحكمة فى قليل أو كثير ٠ وتخوفه من الاسلحة العلمية ، واليأس الذى يصيبه من جراء هذا التخوف يشكلان خلافا جوهريا بين رسل كفيلسوف العقل فى القرن العشرين وسائر فلاسفة العقل المتفائلين والمؤمنين بالعلم وحده فى القرن الماضى ٠ ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان رسل العالم الرياضى من أشد الناس تشككا فى قدرة العلم على تخليص الانسان من ويلات الحياة ، فقد يكون العلم نفسه الويل الاكبر لها اذا لم يرتكز على حكمة وخلق ومبادىء انسانية ٠

وبرتراند رسل شديد التحمس لاقامة حكومة عالمية لها دستورها الذى تسير بمقتضاه ٠ ويرى فى هذه الحكومة العالمية اقرارا للسلام ، وحلا لحالة الفوضى الراهنة التى تسود عالمنا الممزق ٠ واذا كان رسل قد استطاع أن يكتسب عطف العالم الحر الشريف فى دفاعه عن السلام الا ان فلسفته العقلية تنفر الكثيرين منه لانها تجفف ينابيع العواطف وتقضى على حرارة الحياة بالمغالاة فى استعمال المنطق ولأنهــا ترتكز على التشكك ان لم يكن على الالحاد ، فهو ينادى بنبذ كل الأفكار التقليدية غير اليقينية التى لا ينهض الدليل العلمى على صحتها ٠ وهو يظهر احتقاره للرأى المدافع عن الافكار التقليدية بأنها قد لا تستند الى دليــل يقينى ولكنها تدخل العزاء والسلوى فى قلب الانسان ، وتمنحه الطمأنينة ٠ ان رسل يعترف ان اليقين مريح وان الشك يقض راحة البــال ، ولكن الحقيقة فى نظره أهم وأسمى من راحة بال الانسان ، ومن الســلوى والعزاء ٠ وهو يرحب بالقلق الذى يكابده المتشــكك ، ويعتبره صــفة حميدة وشجاعة أدبية كما أنه ينطوى على الصدق الفكرى والامانة العقلية ٠

والغريب فى الامر أن برتراند رسل قد نجح نجاحا منقطع النظير من الناحية السياسية والفــكرية فى كسب عداوة الغــالبية العظمى من

الناس ، وولاء الأقلية له • لقد نجح رسل فى اكتساب سخط المعسكر الغربى والشرقى معا فالغرب المسيحى يبغضه لانه يدعو الى التشكك كما يبغضه لان الغرب استعمارى فى حين ان رسل يفضح الاستعمار ويسخر منه • والغرب يبغضه أيضا لان نظامه يقوم أساسا ــ مهما حاول تلطيفه ــ على الرأسمالية والاستغلال أما رسل فيناصب الرأسمالية العداء ويدعو للاشتراكية • ورغم هجوم رسل الشديد على ديكتاتورية الاتحاد السوفييتى فقد ظل العالم الغربى يدءب الى وقت قريب للغاية على وصفه بالخنزير الشيوعى •

أما معسكر الشيوعية فيحمل لبرتراند رسل عداوة لا تقل عن عدواة الغرب له فهو يعتبره أجيرا للبورجوازية الغربية • والسبب فى بغض الشيوعيين له يرجع الى الحرب الشعواء التى يشنها على أجهزة الدولة الشيوعية القائمة على القسر والاضطهاد ، والى وصمه لها بضيق الأفق والتعصب الأعمى ، ومناهضة البحث العلمى المنطلق ، وبالاستبداد البيروقراطى • والنظام الشيوعى يكره رسل أيضا لأنه يرفض الايمان بأن الفرد لا يعدو أن يكون ترسا فى الآلة الاجتماعية الضخمة • هذه الكراهية المشبوبة له من جانب الغرب والشرق معا تجعل من العسير علينا تقييم فلسفته من الناحية الموضوعية كما تجعل من العسير تبين مركز هذه الفلسفة بين الايدلوجيات الفكرية التى تستولى على تفكير الانسان الحديث • والذى لا شك فيه ان رسل يشكل أشكالا من ناحية صعوبة تقييمه • والشواهد على هذا كثيرة • فاذا قلنا ان رسل ملحد كنا صادقين وكاذبين فى وقت واحد • صحيح ان رسل يكرس جانبا كبيرا للسخرية من الدين ورجاله وصحيح انه لا يؤمن بوجود اله • ولكنه فى نفس الوقت لا يقطع بعدم وجوده ، فهو يؤكد استحالة المعرفة اليقينية العلمية فى هذا الشأن • وصحيح ان رسل يكتب كتابا بعنوان « لماذا لست مسيحيا ؟ » ولكنه يقول فى موضع آخر فى كتاب « أثر العلم على المجتمع » ان العالم الحديث بحاجة الى الحب المسيحى فهو السبيل الى تخليصه من ويلاته وشروره الراهنة • صحيح ان رسل يتشكك كما قلنا فى وجود اله ولكنه فى نفس الوقت يقول انه من الجائز أن يكون هناك اله وان كان هذا بعيد الاحتمال • واذا قلنا ان رسل مادى بمعنى انه لا يؤمن بغير العلم كنا صادقين وغير صادقين فى آن واحد • فرغم انه يؤمن بالمنهج العلمى والعقلى ايمانا لا حد له الا انه لا يكتفى بالنظرة المادية الى الاشياء ، وعندما هاجم رسل كارل ماركس فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » قال بالحرف الواحد « اننى أومن بوجود معرفة الى جانب المعرفة

العلمية » وتمجيد رسل للعقل والعلم لا يعميه عن اخطار العلم • وحدوده على أقل تقدير فى الوقت الحاضر •انه يريد من العلم أن يتصف بالتواضع، لا أن يملأه الزهو ويستبد به الخيلاء كما يحدث فى المعسكر الشيوعى • واذا قلنا ان آراء رسل فى الجنس تهدف الى تدمير الاوضاع الجنسية التقليدية لأصبنا وجانبنا الصواب فى نفس الوقت • ان هذا الرجل الذى اشتهر بدفاعه عن الحب الطليق ودعوته الى التحرر الجنسى من كافة القيود يقول فى معرض حديثه عن نظام الزواج انه أحسن وأهم علاقة يمكن أن تنشأ بين اثنين من البشر • وهو شديد الحرص على أن يصبح نظام الزواج شيئا أكثر جدية من «مجرد المتعة التى ينغمس فيها اثنان» • ان الزواج فى نظره يكون بحكم انجاب الأطفال « جانبا من نسيج المجتمع الذى تشيع فيه الألفة ، وله أهميته التى تمتد حتى تجاوز مشاعر الزوجين الخالصة • وأخيرا اذا قلنا ان رسل يدافع عن السلام بأى ثمن وتحت أية ظروف صدقنا وكذبنا فى وقت وحد • صدقنا لما نعرفه عن تاريخ كفاحه المجيد وتضحيته العظيمة من أجل السلام • وكذبنا لأن رسل يعترف بشرعية بعض الحروب فهو لا يحب مثلا أن يرى أجهزة الحضارة تتقوض أمام جحافل البربرية والهمجية كما حدث مثلا مع الدولة الرومانية •

ما الأمر اذن ؟ هل نحن أمام فيلسوف متناقض مع نفسه ؟ ، كلا ، بطبيعة الحال • فليس هناك من هو أكثر انسجاما وتكاملا فى الفكر من برتراند رسل • السبب فيما يبدو تناقضا هو أن بصيرته النفاذة تجعله يرى وجهى المسألة فهو أبعد ما يكون عن التفكير بأسلوب « هذا أبيض ، وذاك أسود » لأنه يرى البياض والسواد معا فى وقت واحد ، ويعمل جاهدا على استخلاص البياض من السواد حتى يتبين الانسان الحق من الضلال •

أحب هنا أن أعرض لبعض الكتب التى أثرت على برتراند رسل فى صدر شبابه وهو حدث يناهز الخامسة عشرة حتى بلغ الحادية والعشرين من عمره على وجه التقريب • والكتب لا تعنى شيئا الآن بالنسبة لما كانت تعنيه فى مطلع حياته • وما من شك فى أن الدهشة البالغة ستصيبنا اذا علمنا أن رسل يعترف فى كتابه « رسل يفصح عما فى خلده » فى غير مداراة أو موارية انه يتمنى فى بعض الاحيان أن تندثر الكلمة المكتوبة من وجه الارض ، وأن تمارس الانسانية نعمة الجهل والأمية • ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن الفيلسوف الكبير يفضل ظلام الجهل على نور العلم •

فرسل كما سبق أن ذكرنا لا يؤمن بشيء قدر ايمانه بقيمة العلم ، وقدرته ـ اذا أتصف بالحكمة واتسم بالعقل ـ على تحرير الانسان · ولكنه يأسى عندما يرى الكلمة المكتوبة تسخر فى كثير من الأحوال لتزييف الحقائق على الناس · اذا رأيناه ساخطا وحانقا فى بعض الأحيان على الكلمة المكتوبة فالسبب هى هذا يرجع لغصص الآلام التى يكابدها وهو يشاهد الكتب تنفث السم الزعاف باسم الترياق ، والضلال تحت ستار الحق ·

ولكن رسل فى صــــدر شبابه لم يكن ينظر الى الكتب بهــذه العين المرتابة المتشككة · فقد كانت الكتب تمثل فى شبابه الأمل الحار الدافق · الأمل فى الوصول الى الحقيقة ، والأمل فى الخلاص من جحيم البيت الذى لا يطاق · ولهذا كان رسل الغلام ينكب على قـــراءة الكتب ، ويجد فيها السلوى والعزاء اللذين ينسيانه تزمت عائلته الموغلة فى المحافظة الفكرية ، وضيق أفقها الذى لا يوصف · أحب رسل فى شبابه الكلمة المكتوبة لأنها كانت تمثل له سبيل الخلاص · فقد كان يجد فيها صدى لأفكاره المتمردة وتعبيرا صادقا وجميلا عن أحاسيسه المكبوتة التى لم يكن يجرؤ على الجهر بها خوفا من النقد اللاذع يلقاه من أهل بيته الذين كانوا ينظرون اليه عندما يعبر عن رأى لا يتمشى مع أسلوبهم فى التفكير على أنه مجنون أو شاذ · وقد ردت اليه الكتب الكثير من الثقة بالنفس فيما يعن له من أفكار، كما ساعدته على الاحتفاظ باستقلاله الفكرى ، والاحتفاظ بجذوة تمرده مستمرة فى وجه التزمت وضيق الأفق المحيطين به · ففى الكتب عبر أناس يشهد لهم العـــالم بأسره بالعظمة والمجد والعمق ، عن شـــوارد خاطره وكوامن فكره ، فشجعه هذا على المضى فى التفكير المنطلق الحر الجرىء فى ثبات وثقة ، ومن غير وجل أو خوف ·

وكان طبيعيا أن يجد رسل سيد متمردى هذا القرن ، فى الشاعر الانجليزى شلى ، سيد متمردى القرن الماضى ضالته المنشودة · على الرغم من أن شيلى لم يكن ضمن البرنامج التعليمى الذى حددته له عائلته التى كانت تشرف على قراءاته وتوجهها ·

وتصادف أن مد رسل يده ليخرج كتاب المختارات الشعرية من على الرف ، فوقعت عيناه على قصيدة شلى المعروفة ، بعنوان « ألاستور أو روح الوحدة » وعندما انتهى من قراءتها ، أعـــاد قراءتها مرة بل مرات ، وهو مشدوه مبهور فقد وجد فى القصيدة جمالا فى التعبير لا يعادله الا جمال الفكر ·

كان رسل فى شبابه يبحث عن الجمال فى الشعر وفى الطبيعة كما كان يبحث عن آمل حى لمصير الانسان • ولكن أهم من هذا وذاك أن الرغبة فى فهم العالم كانت تستبد به وهذا هو مادعاه فى حداثته الى الايمان بالعلم والرياضة بالذات كسبيل الى فهم هذا العالم • ولكن لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن رسل كان مفتونا بشلى لشعره الغنائى فى بادىء الأمر وقد حان دور افتنانه بشلى كمتمرد سياسي فيما بعد • وبلغ اعجاب رسل بشلى الى الحد الذى جعله يحفظ فى يفاعته غالبية قصائد شلى الغرامية القصيرة • أحب رسل فى شلى يأسه ووحدته ، ومناظره الطبيعية الخيالية التى يصورها فى شعره وكأنها قطعة من عالم علوى لا تربطه صلة بعالم الواقع والحقيقة • ورغم أن رسل بعد استكمال نضوجه الفكرى قد تخلى عن الثورية القديمة التى كانت تعتمل فى نفسه والتى وجد لها صدى يروق له فى اشعار شلى فهو يؤمن الآن من الناحية الفكرية على الأقل بأن أى تحسن هام فى حياة الانسانية لابد أن يتم بالتدريج ، الا ان شلى الثائر المتمرد لا يزال يسيطر على خياله حتى الآن • فهو يأمل ويحلم ـ كما كان شلى يأمل ويحلم ـ بحدوث تغير عام شامل فى قلب الانسان • وعندما زار رسل ايطاليا فى عام ١٨٩٢ كان أول مكان يحج اليه هو كاسا ماجنى حيث أمضى شلى الشهور الأخيرة من حياته • وهكذا نرى رسل قد بدأ حياته رومانسيا كاملا •

وفى يفاعته تأثر برتراند رسل بالقصصى الروسى تورجنيف • وقد قرأ رسل لتورجنيف قبل أن يقرأ لدستيوفسكى ولتولستوى • وهو يعترف أنه على الرغم من أنه أدرك فيما بعد أن هذين الكاتبين الأخيرين يفوقان تورجنيف من ناحية العبقرية الا أنهما لم يلمسا شغاف قلبه كما لمسه أدب تورجنيف • وتورجنيف هو أول كاتب روسى على الاطلاق قرأ له رسل • وقد قرأه فى ترجمته الالمانية لأن الترجمة الانجليزية لم تكن موجودة حينذاك • وأدب تورجنيف من الآداب القليلة التى استطاعت أن تحرك فى نفسه أثرا عميقا ، وتصل الى أغوار ذاته • والذى راق لرسل فى أدب تورجنيف هو تصويره لمجتمع من الشباب الجاد الملىء بالأمل فى اقامة حياة أفضل ، والساخط على المظالم الاجتماعية والاوضاع السياسية العفنة • ويقول رسل فى هذا الصدد : ان العصيان الرومانسى ظل يلهم الاجيال المتعاقبة منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى عام ١٩١٨ أى حتى قيام النظام الشيوعى فى روسيا • وخلال هذه الفترة الطويلة تعاقبت أجيال كثيرة من المتمردين الرومانسيين • ولكن التمرد الرومانسى كان

يفجع فى أحلامه فى كل جيل • فقد كان كل جيل يعتقد أن يوم النصر آت لا محالة ، كما يعتقد أن أعداء الانسانية لا يخرجون عن كونهم شرذمة من الاشرار سيطيح بها المظلومون عندما ينبلج نور فجر جديد • ومع أن هذا الأمل لم يتحقق ، ومع أن رجاء كل جيل كان يخيب ، الا أن جذوة التقليد الرومانسى المتمرد ظلت متقدة رغم ما أصاب الأجيال المتطلعة الى عالم جديد من اخفاق متكرر •

وفى القرن التاسع عشر تسلمت اليونان الثائرة على جور الأتراك من الثورة الفرنسية مشعل التمرد الرومانسى الذى كان بيرون وشلى يوليانه كل عطف وحدب • ولما استقلت اليونان انتقل مشعل التمرد الرومانسى الى ايطاليا • وكان مازينى نبى الوحدة الايطالية يستلهم هذا التمرد الرومانسى فى دعوته الى التحرر والوحدة • ولكن كافور فجع نبى الوحدة فى أحلامه وأمانيه بتسليمه ايطاليا الموحدة الى أيدى آل سافوى • وفى صدر شباب رسل أى فى مطلع القرن العشرين كان ورثة التقليد الرومانسى المتمرد هم الثوار الروس الذين امتد تاريخهم الكفاحى الى ثورة ديسمبر المعروفة من عام ١٨٢٥ ومنذ هذا التاريخ والثوار الروس يكافحون فى نبل ويضحون فى بطولة من أجل الاطاحة بالقيصرية البشعة المستبدة الظالمة • وشاع بين الأجيال الثائرة فى روسيا أمل مقدس فى تحقيق النصر • وكان برتراند رسل عاطفا على هذا الامل المقدس • ووجد فى أدب تورجنيف ما أرضى رومانسيته المتمردة فهو أدب يزخر بنماذج عديدة للتمرد السياسى • وفى أدب تورجنيف وجد رسل صورا من صنع الخيال لرجال أبطال يكافحون جاهدين لاقامة عهد جديد من العدل والنور • وقد تركت قصة تورجنيف (الأرض العذراء) التى تدور حول الثورة السياسية أبلغ الأثر فى نفس رسل • ولكنه يعترف أن قصة تورجنيف الأخرى (الآباء والأبناء) قد تركت فى يفاعته أثرا لا يعادله أى أثر آخر • وهذه القصة التى كان يعتبرها رسل أضخم عمل لتورجنيف تعبر عن أمل الاجيال الروسية المتعاقبة فى يوم الخلاص ، وبطل القصة الذى كان يستهوى رسل رجل يدعى بارازوف يبشر بالفلسفة العدمية ويروج لها • وكان لهذا البطل مريد يعجب به أشد الإعجاب اسمه اركادى من الشباب الارستقراطى • وقد بلغ برسل الاعجاب بفلسفة بارازوف الثائر العدمى وعطفه عليها لدرجة أنه كان ينظر الى نفسه على اعتبار أنه اركادى التلميذ الارستقراطى للفيلسوف العدمى • ولاشك أن آراء رسل السياسية فى مطلع حياته كانت تعكس هذا الاعجاب الشديد بالعدمية ويكفينا أن نقرأ

كتابة « المطرق الى الحرية » الذى صدر عام ١٩١٨ حتى ندرك مقدار عطفه على الاشتراكية بوجه عام والاشـــتراكية الفوضوية بوجه خاص ٠ وكما أصابت التمرد الرومانسى نكسة فى الثورة الفرنسية ، ونكسة أخرى فى توحيد ايطاليا على يد كافور ، ونكسة ثالثة فى الثورة الشيوعية الروسية عام ١٩١٧ ، أصـــــاب برتراند رسل الارستقراطى المتمرد شعور شديد بخيبة الامل بعد الحرب العالمية الاولى والثورة الشيوعية مما اضطره الى تغيير الكثير من أفكاره الاولى الثورية الفجة ٠

وهكذا تخلى رســـل عن رومانسيته المتمردة ولكن حبه لشـــلى ونتورجنيف وريثى التمرد الرومانسى ما زال مقيما فى قلبه حتى الآن ٠ وقد كان لأبسن شيء من الأثر على رسل فى شبابه ، ولكن يبدو أن هذا الأثر لم يكن عميقا ٠ لأن رسل يجد فى كهولته صعوبة فى تذكر مقدار هذا الأثر على وجه التحديد ٠ لم يكن رسل فى صدر شبابه يعرف شيئا عن أبسن حتى سمع عنه من قسيس يدعى فيليب وييكستيد ٠ ثم قرأ رسل بعد ذلك كتابات برناردشو التى تفيض بالاعجاب والتقدير لأبسن ٠ ومما زاد من تحمس رسل لأبسن أنه قرأ نقدا عدائيا ضده فى مجلة كامبريدج ريفيو التى كان اساتذة جامعة كامبريدج الرجعيون والمحافظون يقومون باصدارها . وقد اتضح لرسل عندما بلغ مرحلة النضوج أن تحمســه لأبسن فى مطلع حياته لم يكن قائما على الاعجاب الحق به بل كان راجعا الى عطفه بوجه عام على الثورة والأدب الثائر ٠ كان المحافظون يتهمون ابسن بانه غير اخلاقى ومدمر وفوضـــوى ٠ فوقف رسل الارستقراطى المتمرد فى صف ابسن ضد المحافظين الذين يزعمون لانفسهم الوصـــاية على المجتمع ، ويدعون حمايته من اخطار التمرد التى تهدده . وشاهد رسل مسرحيات ابسن التى كانت تمثل على خشـــبة المسرح بكثرة فى انجلترا حينذاك فاستهوته الشخصيات النسائية الثائرة فى وجه التقاليد الاخلاقية الزائفة المنافقة ، واعجبه تحديهن لاخلاقيات المجتمع وحريتهن العاطفية واستقلالهن الفكرى . ولكنه ينظر الآن الى ابسن بمنظار مختلف تماما بعد أن نفض عن نفسه أوهام الرومانسية المتمردة فابســـن من الرعيل الاخير للرومانسيين المتمردين ، ولكن شواهد الحياة قد أقنعت رسل بكثير من الزيف فى الرومانسية المتمردة ٠ ورسل الآن يقول بعد أن حنكته التجارب ان هناك أسلوبين فى الحياة الاسلوب الكلاسيكى الذى يؤمن بالنظام على حساب التلقـــائية مما يؤدى فى آخر الامر الى التمرد والاسلوب الرومانسى الذى يمجد التلقائية والغرائز والعواطف ، ولكن من

غير تمحيص ومن غير التأكد أولا من ان هذه العواطف التي يمجدها هي عواطف خيرة نبيلة تستحق التمجيد بالفعل • وللأسلوب الرومانسي خطره الداهم فهو كما يقول رسل ينتهي بالضرورة في نهاية الامر الى انتاج الطغاة والمستبدين وللرومانسية جانب يسميه رسل بالقسوة الرومانسية ، وتتجلى هذه القسوة الرومانسية في شخصيات ابسن النسائية فشخصية هيدا جابلر تجعل من زوجها اضحوكة للناس ومضغة تلوكها أفواههم رغم نياته الطيبة واجتهاده وجده لا لشيء الا لانه ليس من أهل النكتة الاذكياء ، وهيلدا وانجل تتسبب عن عمد في موت بطل مسرحية « سيد البنائين » حتى تثبت لنفسها مقدار سلطانها عليه . هذه القسوة الرومانسية التى يشير اليها رسل تنتهى كما يقول بالايمان بفكرة السيوبرمان ، الانسان الذى يحتاج الى وقود بشرى وتضحيات انسانية تزوده بالقوة المحركة، وتمكنه من تحقيق ذاته السامقة السامية . هذه هى افكار نيتشه الاب الفكرى للفاشية والنازية وهى نفس افكار برناردشو . وقد جرب العالم بنفسه نتيجة الايمان بالسيوبرمان على يد هتلر وامثال هتلر فلم تكن النتيجة غير الحروب والدمار والاضطهاد •

ولكن على الرغم من ان برتراند رسل قد تخلى عن رومانسيته المتمردة الاولى الاانه ينظر الى ابسن على انه واحد من احسن كتاب المسرح فى قدرته على تطوير حوادث رواياته . ولكنه يعيب على شخصياته انها تجسيد لافكار ومبادىء ، وليست شخصيات حية تجرى فى عروقها دماء الواقع وتتميز بصفات خاصة تثير فينا العطف عليها او الكراهية لها.

وكانت الخواطر المتضاربة والعواطف المتناقضة تتعاقب فى تزاحمها على بال برتراند رسل فى يفاعته فهو فى شبابه ملىء بالامل والاستبشار تارة ، وفريسة لليأس والاحزان السوداء تارة اخرى ، وفى لحظات الرجاء والاستبشار كان رسل يقرأ شلى وتورجنيف وابسن • ففى شلى وجد رسل جمالا سرمديا ليس فى هذا العالم وكانت شخصيات تورجنيف ترضى فيه النزعة نحو التحمس الثورى . اما شخصيات ابسن فكانت تروى ظمأه الى التمرد على القيم الاخلاقية للمجتمع المنافق • وكانت هذه الافكار المتفائلة المستبشرة تعيش جنبا الى جنب مع طائفة من مشاعر اليأس الاسود التى كانت تجد لها تعبيرا فى قراءة مآسى شكسبير، وخاصة مسرحية « الملك لير » التى كان رسل فى شبابه يفضلها حتى على «هاملت» نفسها لما تتضمنه من حزن عميق ويأس شديد • ورغم أن (الملك لير) تدعو الى اليأس وتبعث على الحزن ففيها يتعثر الخير ، وتنتصر

قوى الشر الا ان هذه المسرحية ليست قمة الاحزان على الاطلاق · فهى شاهد فى نفس الوقت على قدرة روح الانسان على التحليق فى سماء النبل ، والبذل والتضحية والفداء · وهى شاهد كذلك على مجد الانسان وعظمته التى يحققها ومن وقت لآخر · وهذا ما حدا برسل لان يقول ان « الملك لير » لا يمكن أن تبعث على اليأس التام من الحياة الانسانية · ووجد رسل فى سويفت وليس فى شيكسبير تعبيرا عن يأسه التام · فأسفار جليفر قمة اليأس الانسانى ، وهى تمثل الظلام الحالك الذى لا يخترقه بصيص واحد من نور · ويعرض رسل لسخرية القدر الذى يجعل من« اسفار جليفر» كتابا يقصد به تسلية الاطفال فى حين انه فى واقع الحال ذروة القنوط الانسانى ·ويعتبر رسل ان قصة لابوتا من اسفار جليفر تحمل الطابع العلمى للقصة،وانها أول ادراك فى مجال القصة العلمية بأن العلم ليس قوة محررة بالضرورة ، كما أنه ليس دعاة للتفاؤل المطلق فقد يكون العلم نفسه سبيلا للبطش والاستبداد كما أظهر هكسلى فى كتابه « العالم الجديد الشجاع » وقد تشرب خيال رسل وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره احتمال استبداد العلم . ولا زال هذا التخوف الطابع المميز لتفكيره · وقد فتحت قصة لابوتاعين رسل منذ حداثته على ادراك الفظاعات التى ينطوى عليها الاستخدام الشرير للعلم ، وادراك حياد العلم من الناحية الاخلاقية ، فالعلم ليس شرا ولا خيرا ، هو مجرد وسيلة لتحقيق غايات الانسان التى تحتمل الشر او الخير . ويذكر رسل أن المخلوقات المعروفة (بالياهوه) فى اسفار جليفر تتضمن مساوى البشرية وغيوبها ، وان بدنه يقشعر من هولها وفظاعتها · وقد تركت فى نفسه منذ حداثته اسوأ الاثر الذى ما زال باقيا فيها حتى الآن .

هذه الكتب التى تعرضنا لاثرها على براتراند رسل فى مطلع حياته، لا تخرج عن كونها نماذج قليلة من كتب كثيرة لمفكرين وفلاسفة عديدين تركوا فى نفسه اكبر الاثر ، واحب ان اختم حديثى عن رسل بان الناس لا شك سيختلفون فى تقديرهم له من وجهة النظر الفكرية والفلسفية . ولكن احدا لايختلف معه فى دعوته للسلام فانسانية هذا الرجل وصدقه وحرصه الخالص الأكيد على مستقبل الانسان لا يرقى اليه الشك بحال من الاحوال . ونحن نحييه من قلب الوطن العربى المؤمن بالحياد والسلام فى عيده التسعين · ونقول له « السلام على نبى السلام » ·

(١)

تحليل المذاهب السياسية السائدة فى الغرب قبل ١٩١٤

(أ) اشتراكية الدولة عند ماركس :

يشرح الجزء الأول من كتاب برتراند رسل « الطرق الى الحرية »، (١٩١٨) اشتراكية الدولة عند ماركس ويوضح اوجه الخلاف بينها وبين اشتراكية باكونين الفوضوية واشتراكية اتحادات النقـــابات الثورية (السندكالية » .

ويعرض رسل اهم الاسس التى تقوم عليها أشتراكية ماركس ، ويشرح أهم نظرياته وهى : (١) التفسير المادى للتاريخ (٢) قانون تركيز رأس المال (٣) الصراع الطبقى . كما يقوم رسل بعرض أهم ما يضمنه البيان الشيوعى الذى أصدره ماركس بالاشتراك مع انجلز من افكار . واقتطاف أهم الفقرات التى وردت فيه .

ومن حديث رسل عن ماركس نتبين أنه غير مقتنع بالنظام الماركسى بحذافيره ، وان كان يعطف على ما يسعى هذا النظام الى تحقيقه من اقامة مجتمع اشتراكى . ويرى رسل فى كتابه «الطريق الى الحرية» ان الصواب قد جانب الكثير من تنبوءات ماركس ويعدد رسل تنبؤات ماركس الخاطئة فيما يلى : —

١ — تنبأ ماركس أن مصلحة العمال المشتركة فى أرجاء العـــالم ستفضى الى أضعاف القوميات بل القضاء عليها ، على أعتبار ان القومية تقف حجر عثرة فى سبيل تآزر العمال فى العالم ضد الرأسمالية المستغلة، وعلى اعتبار أنها تخدم مصالح البورجوازية وتشيع الفرقة بين صفوف الكادحين وخلافا لما تنبأ به ماركس اشتدت حدة القوميات بدلا من أن يدركها الضعف او الخور .

٢ — أثبتت تطورات الاحداث ان نبوءة ماركس بتركيز رأس المال فى يد حفنة صغيرة من عمالقة الرأسماليين لم تتحقق ، فبدلا من أن تصل الرأسمالية الى مرحلة الاحتكار الذى من شأنه أن يقيم هوة سـحيقة بين عالم الأغنياء وعالم الفقراء ، وبدلا من أن يصبح التناقض الاجتماعى صارخا ازداد عدد المساهمين فى المشروعات التجارية وازداد بالتالى عدد الناس الذين أصبحت مصالحهم مرتبطة ببقاء النظام الرأسمالى .

٣ ــ ان عدد المشروعات الاستثمارية المتوسطة الحجم في تزايد رغم شدة تضخم الشركات الكبيرة .

٤ ــ تنبأ ماركس بأن مستوى معيشة الطبقة العاملة لن يرتفع عن الكفاف ، غير ان حال هذه الطبقة قد تحسن تحسنا ظاهرا عما كانت عليه في النصف الاول من القرن التاسع عشر واستفادت طبقة العمال الى حد ما من النماء الاقتصادى العام الذى أصابته أوربا فى القرن التاسع عشر .

٥ ــ ان العمال المهرة أصبحوا يكونون نوعا من الارستقراطية العمالية لها مصالح تتعارض مع سائر مصالح الطبقة الكادحة ، وقد أدى هذا الى شيء من التفتيت فى صفوف العمال واضعاف تكاتفهم على خلاف ما تنبأ به ماركس .

وانتهى برتراند رسل بعد ذلك الى التغيير الذى أجراه برنشتين الاشتراكى الالمانى (١٨٥٠ ــ ١٩٣٢) فى نظريات ماركس ، فقد أعاد برنشتين النظر فى الكثير من مبادىء الاشتراكية الماركسية ودعا الى نوع من الاشتراكية التطورية بدلا من الاشتراكية الثورية التى دعا اليها ماركس . وطالب برنشتين الاشتراكيين بأن يكفوا عن عدائهم للأفكار الليبرالية بلا موجب وقال برنشتين أنه يجب على الاشتراكين ان يأخذوا الطبقة العاملة على ما هى عليه فهى ليست بالطبقة التى تتضور جوعا فى كل مكان كما يحاول البيان الشيوعى أن يصورها ، كما انها ليست بالطبقة المنزهة عن الاهواء والتحيز كما يزعم الذين يريدون ان يخطبوا ودهم (لاحظ ان رسل يردد نفس الكلام فى مواضع مختلفة من كتبه الاخرى) .

وبذلك تعرضت الاشتراكية الاصيلة كما وضعها ماركس لهجومين: هجوم عليها من الداخل شنه عليها برنشتين واتباعه ، وهجوم عليها من الخارج قامت به الحركة النقابية الثورية المعروفة بالسند كالية والتى سنعرض لها فيما بعد .

(ب) باكونين والفوضوية :

يقول برتراند رسل فى حديثه عن باكونين والاشتراكية الفوضوية ان المفهوم العام للفوضوية مفهوم خاطىء يقوم على الخلط وعدم الوضوح ، فالكثير منا ينظر الى الفوضوية على أنها مجرد القاء قنابل ووضع متفجرات واشاعة الذعر بين الناس الآمنين ، كما ان الكثير منا يعتبر أن الفوضويين

قوم لهم نزعات اجرامية يحاولون تغليفها بالمبادىء البراقة ، وانهم أناس منحرفون يجدون فى أعمال الارهاب متنفسا لنفوسهم المريضة وانحرافاتهم الشاذة . ويقول رسل ان هذه النظرة خاطئة فالالتجاء الى العنف ليس سمة من سمات الفوضوية الاصيلة ، وهناك جانب كبير من زعماء الفوضوية يندد فى كتاباته باستخدام العنف ويندد بالارهاب (مثل ل . س بيفنجتون) كما أن الكثير منهم يمتاز برقة الطبع وسماحة الخلق وكراهية العنف . ولكن رسل يعترف ان الحركة الفوضوية قد جذبت اليها كثرة من ذوى الطبائع الاجرامية والنزعات المجنونة .

وضع ميخائيل باكونين أسسي الفوضوية فى العالم الحديث (الفيلسوف الصينى تشوانج تزو الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد تقريبا بشر بالفوضوية فى صورة جديرة بالاعجاب فى العالم القديم) فمن هو باكونين ؟

ولد ميخائيل باكونين عام ١٨١٤ من أسرة استقراطية فى روسيا ، والتحق بمدرسة المدفعية فى بطرسبرج وهو فى الخامسة عشر وبعد انقضاء ثلاثة أعوام أرسلته الحكومة القيصرية كحامل علم فى بولندا حيث شاهد بنفسه آثار قمع الثورة البولندية التى نشبت فى عام ١٨٣٠ . وأصاب باكونين انفلام الهلع من جراء القسوة والظلم اللذين لحقا بشعب بولندا الذى استولى الذعر عليه من هول الارهاب الروسى وعافت نفس باكونين الاستبداد وأبغض الجور وكرهه . وهجر باكونين عمله كضابط وقدم للمحاكمة نتيجة لذلك . ظل باكونين يتنقل بين عواصم اوربا يدافع عن المظلومين ويتآمر على الحكومات الجائرة ويروج لمذهبه الاشتراكى الفوضوى . واحست عواصم أوربا بخطره الداهم فالقت حكومة فرنسا القبض عليه وحكمت عليه بالاعدام ولكنها خففت الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة . وكانت الحكومات المختلفة تتنافس فى انزال العقاب الصارم به وتتنازع عليه حتى يكون شرف عقابه من نصيبها ، فكان يخرج من سجن ليتلقفه سجن آخر . طلبته الحكومة النمسوية من الحكومة الفرنسية فاستجابت الحكومة الفرنسية لهذا الطلب وأسلمته الى السلطات النمسوية ، وفى النمسا حكم على باكونين بالاعدام للمرة الثانية ولكن هذا الحكم خفف الى عقوبة الاشغال الشاقة المؤبدة للمرة الثانية كذلك . ظل باكونين مقيدا بالأغلال النمسوية حتى انتهى الأمر بأن طالبت به الحكومة الروسية التى تسلمته من الحكومة النمسوية بدورها . وقد خبر باكونين الاهوال فى السجون حتى ذوى وضمر ودبت فى جسده

الأمراض وتساقطت جميع أسنانه وغدا هيكلا فانيا . ولم يكن باكونين يخشى عذاب السجون بقدر ما كان يخشى ان تخبو فيه جذوة الثورة والحقد على الحكومات والنظم التى امعنت فى التنكيل به. وعندما تسلمته السلطات القيصرية قامت بنفيه الى سيبريا . وفى سيبريا تمكن باكونين من الهرب الى اليابان ثم أمريكا ثم أوربا . لقد عاش باكونين طريد الحكومات طوال حياته ولكن جذوة الحقد عليها لم تخب فى صدره كما كان يخشى .

كانت بعض مظاهر الصداقة تربط باكونين صاحب الاشتراكية الفوضوية وكارل ماركس واضع اشتراكية الدولة . ولكن هذه الصداقة لم تدم طويلا لاختلافهما فى المشارب والطباع ، بالاضافة الى اختلافهما فى المذاهب السياسية وتراشق مؤسس اشتراكية الدولة ورائد الاشتراكية الفوضوية التهم . فاتهم ماركس باكونين بانه عميل الحكومة القيصرية واتهم باكونين ماركس بنزعته الى القومية الالمانية .

كانت كتابات باكونين مضطربة تسودها الفوضى بقدر ما كانت حياته مضطربة بعيدة عن النظام .. وكان أثره البالغ راجعا الى قوة شخصيته لا الى كتاباته المذهبية . وأهم ما كتب باكونين قطعة معروفة بعنوان « الله والدولة » **يعلن فيها رائد الفوضوية بأن الايمان بالله وبالدولة هو العقبة الكأداء التى تعترض طريق الحرية الانسانية** . ولاشك ان تلميذه كروبوتكين كان يمتاز عنه بالقدرة على التحليل العلمى المتزن وتقديم المذهب الفوضوى فى اطار منظم كما كان يمتاز بقدرته على مناقشة المشاكل من زاويتها الفنية البحتة و « كروبوتكين » حجة فى الانتاج الزراعى الذى لايلتفت اليه عادة المهتمون بالحركة الاشتراكية . وكتب كروبوتكين « الانتصار على الخبز » ، و « الحقول والمصانع والورش » . وعالج موضوعات بحثه من الناحية الفنية والعملية. وقد سعى كروبوتكين الى أثبات ان التنظيم العلمى للانتاج واستخدام الوسائل العلمية الحديثة كفيلان بتوفير الجهد الطائل للعمال ، وبجعل العمل اكثر راحة واكبر متعة (ورسل من المتحمسين لهذه الفكرة الى يومنا هذا) .

ما هى الفوضوية التى بشر بها باكونين وتبعه فى التبشير بها تلميذه كروبوتكين ؟ الفوضوية مبدأ اشتراكى يسعى الى الغاء الملكية الفردية واستبدالها بالملكية العامة لوسائل الانتاج . والفوضوية قائمة على كراهية فكرة الدولة ، على اعتبار أن «الدولة» تمثل جهازا رهيبا للقسر والضغط والارهاب . والفوضوية تناصب اجهزة الدولة والبوليس وقوانين

العقوبات العداء ، فهذه الاجهزة وتلك القوانين تهدف الى تقييد الناس بالاغلال . وترى الفوضوية كما ترى اشتراكية ماركس ان الملكية الفردية أساس الظلم والاستبداد . والواقع أنه ليس هناك خلاف بين اشتراكية ماركس وفوضوية باكونين ، غير أن فوضوية باكونين أكثر تطرفا من اشتراكية ماركس ، فهى لا تسعى الى الغاء الملكية الفردية فحسب بل تهدف الى تصفية الدولة كذلك . علاوة على ذلك فالفوضوية ترفض النظم الديمقراطية ولا تقبل التعامل معها لما فى الديمقراطية من ديكتاتورية الاغلبية وتحكمها فى الاقلية . فالفوضوية اذن عدو لدود « للدولة » وهى تسعى الى تخليص الافراد من عنت الدولة وقسرها .

كان بين الماركسيين والفوضويين صلة انقطعت أوصالها فى عام ١٨٦٩ . ففى هذا العام انسلخ الفوضويون من الجبهة الاشتراكية وبات من الواضح ان هناك تيارين متعارضين : تيار يدين بالولاء لاشتراكية ماركس وتيار آخر يتزعمه باكونين والموالون للفوضوية . وكان النزاع بين الماركسيين والفوضويين يتلخص فيما يلى : كان من رأى الماركسيين ان تستفيد الحركة العمالية من كل الفرص السانحة فى ظل النظام الديمقراطى ، وتستفيد بوجه خاص من نظام التمثيل النيابى لخدمة أغراضها . لم يجد ماركس وأتباعه ضيرا من التعامل مع الاجهزة البرلمانية فى حين ان باكونين واتباعه وقفوا لفكرة التعاون مع النظم الديموقراطية بالمرصاد ورأوا فى التعاون مع اجهزة الحكم النيابى خيانة لقضية الطبقة العاملة. أما وجه الخلاف الآخر فيتلخص فى ان الاشتراكيين الماركسيين كانوا يرون بقاء الدولة بعد نقل وسائل الانتاج اليها ، ولكن الفوضويين طالبوا بتصفية الدولة لان الدولة فى نظرهم شر مستطير وهى الوريثة لتركة الاستبداد التى يخلفها الرأسماليون الافراد . فالفوضيون يرون ان الظلم القديم سيعود الى الظهور فى ثوب جديد ، فى صورة سيطرة الدولة وتحكمها . وقد ترك هذا النزاع الايديولوجى بين ماركس وباكونين أثرا خطيرا فى التطورات السياسية فى انحاء أوربا ، فقد آثرت المانيا وانجلترا مبادىء ماركس بينما تبنت الدول اللاتينية دعوة باكونين فانتشرت الفوضوية فى فرنسا وايطاليا وأسبانيا وسويسرا الفرنسية .

(ج) الحركة الاشتراكية النقابية (السندكالية)

نشأت الحركة الاشتراكية النقابية (السندكالية) كثورة ضد الاشتراكية السياسية وقد ساعد النزاع المحتدم بين صفوف الاشتراكيين على نشأة هذه الحركة فقد وجدت اتحادات العمال أن الخلافات

السياسية بين الاشتراكيين تضر بمصالحا وانه من الافضل لها لو انها قصرت نشاطها على المجال الصناعى واستبعدت العمل السياسى من مجالات نشاطها والأفكار التى تضمنتها الحركة النقابية الثورية ليست بالجديدة ، فهى مستمدة أصلا من فوضوية باكونين . ولاشك أن الظروف السياسية والاقتصادية قد هيأت للحركة النقابية فرص النمو والازدهار. فقد ساعدت تطورات الاحداث على المسرح السياسى الاوربى على تشكيك نقابات العمال فى جدوى العمل السياسى كما شككتها فى جدوى التعامل مع أجهزة الحكم النيابية . وفى عام ١٨٩٩ قبل الزعيم الاشتراكى الفرنسى ميلراند الاشتراك فى الوزارة حينذاك . وترقبت الطبقة العاملة الفرنسية أن يكون اشتراك هذا الزعيم الاشتراكى فى الوزارة فاتحة خير لها ، وعقدت الآمال عليه فى الاستفادة من هذا الكسب السياسى للعمل على نصرة الكادحين . ولكن الطبقة العاملة منيت بخيبة أمل ، فقد قلب ميلراند لها ظهر المجن وكشر عن انيابه وكان أول من استدعى قوات الجيش لسحق طلائع العمال الثائرة . وبذلك تخلى ميلراند عن كل مبادئه الاشتراكية . ولم يكن خذلان ميلراند للطبقة العاملة حادثا فريدا من نوعه ، بل كان نموذجا حيا صارخا للخذلان الذى منيت به الطبقة العاملة فى كل مكان على ايدى الاشتراكيين المشتغلين بالسياسية فكان من الطبيعى اذن ان يتشكك العمال فى فائدة الانتصارات السياسية . وكان من جراء هذا التشكك ان انصرفت نقابات العمال عن العمل السياسى وعن محاولة الاستفادة من الاجهزة البرلمانية ، وقصرت نشاطها على تنظيم الصناعة واصلاح شأنها وتطويرها وفق ما تقتضيه مصلحة الطبقة العاملة بالاضافة الى السعى لتحسين اجور العمال . وقد سيطرت هذه النزعة النقابية على اتحادات العمال فى فرنسا وتركت أثرا عميقا فى الحياة الاوروبية بأسرها الا فى المانيا التى أصبحت قاعدة قوية لاشتراكية الدولة عند ماركس ، بعد ان اجرى عليها برنشتين الكثير من التعديلات . وكانت الحركة النقابية تهدف الى تلقين العمال مبدأ التضامن فى المجال المحلى أولا وداخل الحرفة الواحدة ثانيا ثم فى مجال الدولة باسرها ثالثا بعد ذلك . وكان بيلوتيير وهو شيوعى فوضوى يتزعم هذه الحركة ويدير دفتها فى فرنسا . وقد صرح بيلوتيير أن هدف الثورة هو تحرير الانسانية لا من السلطة فحسب بل من كل نظام ليس من شأنه أن يطور الانتاج .

وكانت الحركة النقابية ثورية دموية تستخدم أساليب الاضراب

والمقاطعة والتدمير لتحقيق اهدافها . ولذلك كانت تصطدم كثيرا فى صراع دموى مع السلطات . وكانت للحركة السند كالية هذه اهداف موقوته واهداف بعيدة المدى ـ كانت اهدافها الموقوتة تتلخص فى تحسين ظروف العمل ، اما اهدافها لبعيدة فكانت الاطاحة بالنظام الرأسمالى برمته وذلك بشل اجهزة الدولة ومراكز الصناعة الحساسة بواسطة الاضراب العام ثم تصفية الرأسمالية ونقل وسائل الانتاج الى الملكية العاملة . ومن هذا يتضح لنا أن الحركة النقابية كانت تحتفظ بجذوة الصراع الطبقى الذى ورثته عن ماركس متقدمة ، كما كانت هذه الحركة قريبة الصلة بالفوضوية فهى تناصب الدولة العداء وتعتبر أن الدولة قادرة على البطش والاستبداد اذا حلت محل الرأسمالية المنهارة . فتصفية الدولة من جهة نظر السند كالية أمر لا مناص منه . وباختصار يمكن وصف الحركة النقابية (السند كاليه) بانها حركة اشتراكية أساسا تقوم على الشك فى فائدة العمل السياسى وانها تهتم بمصلحة الانسان كمنتج ، متجاهلة مصلحته كمستهلك . كما أنها تسعى الى تحقيق الحرية للانسان أكثر من اهتمامها برفع مستواه المادى . ويعتبر المفكر سوريل رائدا من رواد الحركة السند كالية فى فرنسا .

د ـ الاشتراكية الحرفية

ولكن هذه الحركة الثورية الدموية لم تجد صدى كبيرا بين افراد الشعب البريطانى نظرا لتطرفها وثوريتها الشديدة ، التى لا تتفق مع مزاج الشعب الانجليزى الذى يميل بطبيعته الى الحلول الوسطى . ولذلك قامت بينه حركة معروفة بالاشتراكية الحرفية .

واحتفظت هذه الحركة الجديدة بشك السند كالية فى الدولة كجهاز للضغط والقسر والاستبداد ، كما اخذت منها ايمانها العميق بقيمة الحرية الانسانية ولكن الاشتراكية الحرفية رأت أن المخرج لا ينطوى على الغاء الدولة بل الحد من سلطانها واعطاء الصناعات المختلفة استقلالا ذاتيا لادارة شئونها الداخلية ، بشرط الا يهدد هذا الاستقلال من جانب الصناعات مصلحة المستهلكين فهدف الاشتراكية الحرفية اذن تحقيق استقلال مقيد للصناعات لايدخل فى اعتباره الانسان كمنتج فقط بل يتنبه الى مصلحته كمستهلك كذلك ويرى برتراند رسل فى الحركة الاشتراكية الحرفية أفضل نظام لاعادة البناء الاجتماعى .

مشاكل المستقبل فى المجتمع الاشتراكى المثالى

يذكر لنا برتراند رسل أن هناك خلافا جوهريا بين دعوة الاشتراكيين ودعوة الفوضويين فيما يتعلق بتوزيع السلع فى المجتمع الجديد الذى سينهض على أنقاض المجتمع الرأسمالى . فالغالبيه انعظمى من الاشتراكيين ترى وجوب استمرار نظام الاجور المعمول به فى المجتمع الرأسمالى كما ترى وجوب منح العمال الاكفاء امتيازات اقتصادية يتميزون بها على أقرانهم . ويطالب بعض الاشتراكيين بوجوب التفرقة فى مكافاة الاعمال حسب أهميتها الاجتماعية . ولا تعنى هذه التفرقة أكثر من حث الناس على العمل والاجتهاد والانتاج والاشتراكية تهدف بطبيعية الحال الى توفير حد أدنى للمعيشة لجميع الافراد طالما انهم يعملون بل وطالما انهم على استعداد للعمل حتى اذا اقعدهم العجز أو الشيخوخة . اما الفوضوية فتهدف الى اقامة مجتمع يخلو من الاجبار والقسر ، مجتمع لا يضطر فيه احد الى العمل أو يساق اليه مكرها حتى ولو أدى هذا الى تفضيل قطاع من المجتمع لحياة الدعة واستسلامهم الى الخمول . وحجة الفوضويين فى هذا أن العمل فى المجتمع الرأسمالى شاق وكريه بينما أن العمل فى المجتمع الفوضوى سيصبح نوعا من الترفيه والتسلية وازجاء الوقت بطريقة محببة الى النفوس ، ولهذا لن يلجأ احد الى التهرب منه . والفوضويون يرون ضرورة حصول كل فرد فى المجتمع سواء كان عاملا أم خاملا على حد أدنى للمعيشة ، بل على كل مطالب الحياة التى يشعر بالحاجة اليها والتى يسهل على المجتمع توفيرها . اما اذا كانت السلع من النوع الذى لا يسهل انتاجه بالوفرة التى ترضى احتياجات جميع الناس فتوزع عليهم بالعدل والقسطاس ودون أدنى تمييز .

ويرى رسل انه من الممكن توفير السلع بحيث تكفى حاجات السكان عن طريق تحسين وسائل الانتاج العلمية ولا يرى رسل تعارضا بين وفرة الانتاج وتخفيض ساعات العمل (بحيث لا تزيد عن أربع ساعات يوميا) . وهذا الرأى على نقيض تشاؤم مالتوس الذى كان يرى فى الفقر المدقع والتضور جوعا الضريبة التى لا مناص منها والتى لابد للطبقات الفقيرة أن تدفعها عن الزيادة الهائلة المطردة فى تعداد السكان ويستشهد رسل على خطأ تنبؤات مالتوس المتشائمة — التى ليس هناك ما يبررها فى المستقبل القريب على الاقل — بان مستوى المعيشة فى أوربا قد تحسن بشكل ظاهر خلال القرن الذى جاء بعد مالتوس .

والآن يحق لنا أن نسأل عن موقف برتراند رسل فى عام ١٩١٨ من المذاهب الاشتراكية المختلفة التى قام بعرضها • والاجابة عن هذا السؤال تتلخص فى ان رسل يرى ان الفوضوية لا تفى بالفرض المطلوب ، وان الاشتراكية الماركسية تعجز كذلك عن تحقيق اهداف المجتمع الجديد ، وان لكل من المذهبين عيوبه . وهو يحبذ فى الفوضوية حرصها على الحرية كما انه يحبذ فى الاشتراكية اصرارها على الحافز الاقتصادى. ويعتقد رسل أن الجمع بين الحرية والحافز الاقتصادى أمر ضرورى لاقامة مجتمع مثالى ، ولتجنب مناحى القصور التى تشوب كلا من المذهبين ورغم ان رسل يعطف على الفوضوية من الناحية النظرية ولا يجد استحالة فى تنفيذ مبادئها ، الا أنه يشك فى صلاحيتها للعمل عند التطبيق بحيث يخالجه الشك ويتسرب اليه التخوف مثلا من آن عددا كبيرا من الناس فى المجتمع الفوضوى ، قد يفضل حياة الدعة والخمول على حياة العمل والنشاط • وهو يعتقد انه على الرغم من ادخال كثير من نواحى البهجة على العمل وعلى الرغم من تخفيض ساعاته فى المجتمع الاشتراكى ، الا انه ستبقى بعض اعمال بحكم طبيعتها أكثر مشقة وأقل بهجة من غيرها (كالعمل فى مناجم الفحم مثلا) وبطبيعة الحال سيعرض السواد الاعظم من الناس عن مثل هذه الاعمال ويرى رسل ان الحل الوحيد لاغراء الناس على القيام بها هو منحهم من الامتيازات الاقتصادية ما يعوضهم عن مشقة العمل وقبحه • ولكن رسل فى نفس الوقت يتشكك فى اشتراكية الدولة فهو يخشى أن يصيبها التحجر وان يعتريها الاسن بحيث تقف حجر عثرة امام التقدم والتجديد فى الفنون والعلوم والفكر ولهذا فهو يقترح نظاما يجمع بين مزايا الفوضوية واشتراكية الدولة فى صعيد واحد . فهو لا يرى مانعا من أن يوفر المجتمع لكل فرد فيه العامل والخامل على حد السواء حدا أدنى للمعيشة بشرط ان يحتفظ بمبدأ الحافز الاقتصادى حتى يتميز العاملون على الخاملين وحتى لا نضحى بالعدالة فى سبيل الحرية أو بالحرية فى سبيل العدالة ومن جهة أخرى يرى رسل ان الفوضوية قاصرة فهى لا تدخل فى اعتبارها قدرة الانسان على البطش والطغيان اذا لم تكن هناك سلطة خارجة عنه توقفه عند حده ولكن رسل يدرك فى نفس الوقت أن هذه السلطة التى تمثل الدولة والقانون شر أكيد ولكنه شر لابد منه والمبرر الوحيد لقبوله لهذا الشر هو أنه يجنبنا شرورا أكثر سوءا • وليس معنى هذا ان تتدخل الدولة فى حياة الافراد كلما عن لها هذا فتدخلها يجب ان يكون فى أضيق الحدود وفى الاطار الذى تدعو اليه الضرورة القصوى . والسلطة

المركزية فى نظر رسل لها شرعيتها فى حالة منع الناس عن حمل السلاح وهى لازمة أيضا للتدخل فى حياة الافراد اذا كان من شأن هذا التدخل أن يحميهم من الموبقات والمخدرات والخمور او غيرها من الاضرار .

يقبل برتراند رسل تدخل « الدولة » فى حياة الافراد فى أضيق حدود ممكنة ولا يطالب بالغائها او تصفيتها والسبب فى حرصه على بقائها وتقييدها هو انه يتشكك فى النوازع الانسانية فهو يدرك ان احترام حرية الآخرين ليس بالدافع الطبيعى للانسان وان النفس البشرية تتوق ابدا الى السلطان والسيطرة على حياة الآخرين ومصائرهم ان لم تجد رادعا يضع الامور فى نصابها . ومن أهم ما صرح به برتراند رسل فى هذا الصدد قولة بأنه يخشى ان النوازع الشريرة فى الانسان ليست كلية من نتاج النظم الاجتماعية السيئة (كما زعم روسو واتباعه وكما يزعم الفوضويون) وبمعنى آخر ان رسل لايبدى تفاؤلا مطلقا بالطبيعة البشرية . وهذا سر حذره من المذهب الفوضوى . وهذا ايضا سر حذره من اشتراكية الدولة . صحيح ان ماركس يتنبأ باختفاء « الدولة » بعد تحقيق الاشتراكية . ولكن ما الضمان انها ستختفى فعلا ؟ وعلى هذا فرسل يتخوف من استمرار « الدولة » بحيث تصبح قوة باغية باطشة جديدة تحل محل طبقة الرأسماليين القديمة . ويبدى رسل تخوفه من دعوة ماركس الى تركيز السلطة فى يد الدولة فماركس فى بيانه الشيوعى يدعو الى انشاء بنك قومى برأسمال الدولة يحتكر كل العمليات الاقتصادية وهو يدعو كذلك الى تركيز وسائل النقل والمواصلات فى يد الدولة . ويرى رسل فى هذا التركيز خطرا على الحرية داهما .

ولتخوف برتراند رسل من استبداد الدولة الاشتراكية عند ماركس ، ومن النوازع الشريرة فى الانسان التى يتجاهلها الفوضويون يجنح الفيلسوف الانجليزى الى الاشتراكية الحرفية كما سبق أن أشرنا . وهو يعتبر — حتى الآن — أن هذا النوع من الاشتراكية يتلاءم مع مزاج الشعب الانجليزى غير الدموى ، هذا المزاج الذى تستهويه الحلول الوسطى — والاشتراكيون الحرفيون يقترحون انشاء أداتين للتمثيل : اداة لحماية مصالح المستهلكين وتقوم على التمثيل الجغرافى وتأخذ صورة البرلمان أو مجلس نيابى عام ، واداة تتمثل فى النقابات الحرفية تستهدف حماية العمال كمنتجين وتدافع عن مصالحهم كمشتغلين بالصناعة بحيث لا تتعارض مصالحهم فى نهاية الامر مع مصلحة

المستهلكين وبهذا يمكن الوصول الى حل وسط يضمن للمستهلك والمنتج على حد سواء حماية مصالحهما .

ومما يدل على عدم تفاؤل رسل المطلق بالطبيعة البشرية أعتقاده بأن الجريمة الفردية لن تختفى تماما من المجتمع الاشتراكى الموعود . ولهذا فهو يحبذ الاحتفاظ بقانون العقوبات وقد يتبادر الى ذهننا ان نتساءل عن الفرق بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الاشتراكى فى هذا الشأن . الفرق كما يذكر برتراند رسل فرق فى روح القانون الجديدة . فقانون العقوبات فى المجتمع الراسمالى مدموغ بطابع الانتقام والحقد والرغبة فى التشفى من المجرم أو الخارج على القانون فالمجتمع الراسمالى الحاقد لا يهمه فى قوانينه ان يضع الامور فى نصـابها بقدر اهتمـامه بانقصاص من المجرم ووصـمه بالعـار وادانته من الناحية الاخلاقية والادبية . أما روح قانون العقوبات الاشتراكى السمحة فستنأى عن التشفى والانتقام وتربأ بنفسها من الحقد وهى تقدم على العقوبات لا رغبة فى انزال القصاص بل سعيا منها وراء الطمأنينة والاستتباب .

يدرك برتراند رسل ادراكا تاما ان المجتمعات تناصب الخارجين على مااعتادت أن تسلكه العداء وأن الجماهير اذا تركت وشأنها تقتص قصاصا قاسيا من هؤلاء الخارجين عليها ، قصاصا تكمن وراءه روح التشفى والانتقام وهـو لا يريد أن يتكرر فى المجتمع الموعود ما حدث للفيلسوف الكبير اسبينوزا على ايدى جماهير الرعاع فى هولندا التى كادت أن تقضى عليه حيا لشكها فى أنه كان على علاقة طيبة بدولة عدوة هى فرنسا فى وقت كانت رحى الحرب دائرة بين هولندا وهذه الدولة العدوة . ولم يخلص الفيلسوف الكبير من المصير المحتوم وفتك الجماهير به سوى تدخل السلطات والسبب فى رغبة رسل فى بقاء قانون العقوبات فى المجتمع الاشتراكى الموعود هو انه يفضل ان يرى السلطات تتدخل لوضع الامور فى نصابها من ان يستولى الفوغاء على زمام الامور ويباشرون عملهم كقضاة وجلادين .

ومن الامور الهامة التى تستهوى برتراند رسل فكرة اللامركزية فالمركزية فى نظره سواء كانت فى ظل نظام ديمقراطى نيابى أو فى ظل نظام اشتراكى شر مسـتطير . ويمكن تجنب أضرارها كما سبق أن ذكرنا باتباع سياسة الاشتراكية المهنية التى تحرص حرصا تاما على منح الصناعات المختلفة استقلالا ذاتيا لا يتعارض فى نهاية الامر مع مصلحة

المجتمع ككل . ومن النقاط الهامة التى يجب علينا أن نلتفت اليها عند استعراض نظرة برتراند رسل السياسية أن الفرد فى المجتمعات الحديثة بما فيها المجتمعات البرلمانية يحس بهوه سحيقه وبعد شديد يفصل بينه وبين أجهزة الحكم المركزية وفى نظره أن هذا الشعور بالبعد عن مراكز الحكم شعور نفسى أكثر من كونه احساس بالبعد الجغرافى وبكلمات أخرى يمكن أن نقول ان احساس الفرد بالبعد عن اجهزة الحكم المركزية يولد فيه شعورا بعجزه وتفاهته فى تسيير مقاليد الأمور وعلاج هذا فى نظر الفيلسوف الانجليزى هو المزيد من اللامركزية أو الحكم المحلى والاقلال بقدر ماالستطاع من مركزية الدولة .

ويعرض برتراند رسل لنظرة الاشتراكية الى العلاقات الدولية والحروب . وهو يتفق مع تفسير الاشتراكية للحروب بشكل عام غير أنه يعترض على بعض نواحيها تقول الاشتراكية ان النظام الراسمالى بسعيه وراء الاسواق الخارجية فى البلاد المتخلفة لتصريف منتجاته يلجأ الى الغزو والحرب وان هذا النظام يسخر الصحافة الآجيرة لقضاء مآربة ولتمهيد الرأى العام للحروب ببث الحقد فى نفوس الشعوب ورسل لا يجادل فى صحة هذا . ولكنه يجادل فيما يزعمه الاشتراكيون من ان القضاء على الرأسمالية كفيل بالغاء الحروب والاستغلال الغاء تاما . ويرى رسل ان الصواب يجانب هذه النظرة لانها بتفاؤلها الزائد عن الحد لا تقوم على فهم صحيح للغرائز الانسانية التى تميل الى القتال والمنافسة والاستغلال . ويرى برتراند رسل ان بذر الحب بين الامم يتطلب ارادة واعية وموقفا ايجابيا أكثر من هذا فلا يكفى أن يركن الانسان الى هذه النظرة المتفائلة حتى تستقيم الامور وحتى يتحقق الخير والسلام على الارض . ولا يكفى العالم ان يتحول الى معسكر اشتراكى حتى يختفى الاستغلال وينتفى الجور ففى عالم اشتراكى تتوفر فيه لبعض الدول أسباب التقدم ولبعضها الآخر أسباب التخلف سنجد ان الدول المتقدمة لن تحجم عن استغلال الدول المتخلفة ومعاملتها معاملة التابع لها ... ويقول رسل ان شواهد الامور فى العالم تؤيد شكوكه فعمال العالم من وجهة نظر الاشتراكية تربطهم وحدة المصالح والاهداف ولكننا نرى ان التطبيق يجافى هذه النظرة المجردة . ففى عالم الواقع نجد ان العامل الانجليزى مثلا فى مركز المستغل بالنسبة لعمال المستعمرات فالعامل الانجليزى اذن جزء له مصالحه التى تربطه بنظام الاستغلال والاستبداد القائم .

ورسل يحب أن يرى المبادىء العامة التى يريد المجتمع الاشتراكى ان يسير بمقتضاها تطبق فى المجال الدولى فهو يحب أن يرى نوعا من السلطة المحايدة التى تقف فى وجه التشاحن والصراع بين المجتمعات المختلفة بحيث لا يتعارض وجود هذه السلطة المحايدة مع حق كل مجتمع فى تقرير مصيره وتسيير دفته فى الشئون التى تعنيه دون تداخل من الخارج طالما ان هذا الاستقلال لا يعكر صفو السلام . وفى الواقع ان هذه الاشارة المبكرة لفكرة التعاون الدولي هى الخميرة لفكرة الحكومة العالمية التى نمت واتضحت معالمها الى حد ما فيما بعد فى اتجاهات رسل السياسة .

وفى ختام هذا العرض لاراء رسل السياسة فى سنة ١٩١٨ وما حولها نشير الى أمر له أهمية القصوى فى فهم روح الفيلسوف الكبير وان كان الدارسون لرسل لا يحفلون به . وهو ان رسل العالم الرياضى والفيلسوف يحمل بين جنباته روح فنان عظيم مرهف الحس رقيق الشعور وأكبار برتراند رسل للفنون لم يصبه الفتور فى اية لحظة من حياته وما الفصل الختامى من كتاب « الطرق الى الحرية » الا موقف فنان يحلم بتحقيق جنة السماء على الأرض واقامة عالم أمثل يفيض بالسعادة ويعمه الحب ويخلو من الحسد والاحقاد والضغائن وسائر الصغائر البشرية التى تشوه وجود الانسان .

ما هو وضع الفنون والعلوم فى المجتمع الاشتراكى ؟ هل المجتمع الاشتراكى جامد يهدد ازدهار الفنون والعلوم ؟ يجيب رسل عن هذين السؤالين بقوله ان الفنون والعلوم هى الهدف الأسمى الذى يسعى المجتمع الاشتراكى الى تحقيقه وان الانسان لا يستطيع ان يحقق انسانيته اذا اكتفى بارضاء مطالب الحياة المادية من مآكل ومشرب ولباس ومسكن وتجاهل قيم الروح العليا ولا يعدو ارضاء الجانب المادى فى الانسان أن يكون الخطوة الاولى الاساسية التى توفر للانسان وقت الفراغ الذى يسمح له بالاستمتاع بالفنون والعلوم فالمعرفة هى الهدف الاسمى وهى التى تميز الانسان عن الحيوان وحياة العقل هى الاصل اما حياة الجسد فلا تخرج عن كونها الوسيلة التى لا غنى عنها لنمو الروح ويقول رسل اننا نجد فى أى مجتمع مجموعة من الناس تمتاز بالرغبة فى الخلق والاستعداد للابتكار فى الفنون والعلوم وان أى مجتمع يقف حجر عثرة امام هذه المجموعة ويمنعها من الخلق والابتكار لا يستحق منا سوى الادانة والاستنكار وواجب المجتمع الامثل ان يقوم بتوفير

اشياء لا غنى عنها للتقدم الروحى فيه . يجب عليه أن يمد أفراده بالخبرة الفنية ووسائل المعرفة كما انه يجب عليه أن يمنح أفراده الحرية فى اتباع نزعاتهم الخلاقة .

ويحمل برتراند رسل حملة شعواء على كل نظام من شأنه أن ينتهى فى آخر الامر الى سيطرة بيروقراطية موظفى الدولة ، فالفن عدو النظام ، عدو البيروقراطية ورسل تصير الفنون عدو البيروقراطية . الفن كما يقول رسل ينبع من الجانب الفوضوى فى طبيعة الانسان وهو لهذا يأبى الخضوع للنظام فالنظام يلف حبل المشنقة حول الفن . لا بد للفنان ان تهيأ له أسباب الخلق والابتكار سواء رضى موظفو الدولة أم لم يرضوا . ولأن رسل حبيب الفنون عدو البيروقراطية فقد أبدى تخوفه من اشتراكية الدولة كما وضعها ماركس . وقد بلغ حبه للفنون الى الحد الذى يقبل معه التضحية بالعدالة الاجتماعية اذا كان بقاء الفنون يتطلب هذا . وهو يفضل أن يستمر المجتمع الرأسمالى بكل قطاعاته وشروروة وآثامه من ان يرى مجتمعا اشتراكيا يصبح الفن صريع البيروقراطية التى لا تعرف قداسة الفكر وطهارة الحس بل هو على استعداد أن يرى الفوضوية تسود العالم وتدب فى ارجائه من أن يرى الفنون تختنق على أيدى موظفى الدولة والحرية فى نظره شرط أساسى للخلق والابداع ، وفى نظر برتراند رسل ان الاشتراكية لا تتعارض مع الفنون والعلوم وان كانت بعض النظم الاشتراكية تقتل روح الفنون والعلوم .

(٢)

موقف برتراند رسل
من تطبيق البلشفية

فى عام ١٩٢٠ زار برتراند رسل روسيا السوفيتية لفترة وجيزة كتب بعدها كتابه « تطبيق البلشفية ونظريتها » يحدد فيه موقفه من التجربة الشيوعية الوليدة • ومن خلال هذا الكتاب يعرب رسل عن سخطه الشديد على الوسائل التى تستخدمها البلشفية لارساء قواعد النظام الشيوعى الجديد ، ولكنه يعلن فى نفس الوقت عن عطفه الواضح على مبادىء البلشفية وأهدافها النظرية •

ويعترض رسل على الوسيلة البلشفية ، لا على الهدف الاشتراكى لاقتناعه بأن نشوب الثورة العالمية التى تنادى بها الماركسية سيكلف الانسانية أبهظ الأثمان وأغلى التضحيات التى تعصف بالكيان الحضارى نفسه ، وتعود بالانسانية القهقرى الى عهود البربرية وعصور الظلام •

وفى نظره ان فشل البلشفية راجع الى أنها « فلسفة نافذة الصبر، تهدف الى خلق عالم جديد بدون أجراء تمهيد كاف فى أفكار الناس العاديين ومشاعرهم • » (١)

وهناك جانب آخر من البلشفية لا يروقه وهو انها قد أصبحت دينا جديدا له « مسلماته المعقدة وكتبه المقدسة المنزلة » • فايمانها اليقينى القاطع فى مسائل غير يقينية انتهاك للمنهج العلمى السليم الذى ينهض على الشك فى صحة أى شىء لا يستند الى دليل علمى أكيد •

ولكن اعتراضه على الوسيلة البلشفية وعلى ملامحها الدينية لا يمنعه من الاعتراف ــ (أولا) بأهمية التجربة السوفيتية فى الهاب حماسة العالم الخارجى لتحقيق الاشتراكية وليس أدل على هذا من قوله : **« اننى أومن بأن الاشتراكية ضرورية للعالم ، كما أومن بأن بطولة روسيا قد ألهبت آمال الناس بطريقة جوهرية لتحقيق الاشتراكية فى المستقبل وباعتبارها محاولة رائعة نجد أنه لولاها لأصبح النجاح النهائى بعيد الاحتمال للغاية مما يجعل البلشفية تستحق العرفان بالجميل والاعجاب من جانب قطاع الانسانية التقدمى •** » (٢) • (ثانيا) بحسن معاملة

---

(١) ، (٢) « تطبيق البلشفية ونظريتها » ص ــ ٨ •

الحكومة السوفيتية له ، وما أسدته اليه من خدمات · « لقد عاملونى بأكبر عطف وأعظم أدب · وانى أدين لهم بالفضل والاعتراف بالجميل للحرية الكاملة التى سمحوا لى بها فى تحرياتى واستقصائى » (١) ·

وفى عام ١٩٢٠ تنبأ رسل باحتمالات ثلاثة للثورة السوفيتية عند ما كان مصيرها يتيه فى غياهب المجهول وهى :ـ

١ ـ أن تنجح قوى الرجعية والرأسمالية فى سحق الثورة الشيوعية الوليدة ·

٢ ـ أن تنتصر البلشفية على أعدائها ، وتتخلى عن مثلها ومبادئها وتتحول الى نظام نابليونى استعمارى ·

٣ ـ أن تندلع نيران ثورة عالميــة ضــــد الرأسمالية تطيح بكيان الحضارة القائم ·

يعتقد رسل أن الثورة البلشفية قد خلقت فى نفوس الناس أملا يتعلقون بأهدابه ، أملا يربو سحره خارج الجمهورية السوفيتية على سحره فى داخلها · ولكن رسل يرفض هذا الأمل لأنه يقوم على التعصب وضيق الأفق · وفى رأيه أن المبادىء الجميلة وحدها لا تكفى فموعظة المسيح على الجبل التى تتضمن أروع المثل العليا تمخضت عن القرون الوسطى ، قرون الجهالة والظلام · تمخضت عن محاكم التفتيش واحراق أعداء الكنيسة وخنق الفكر الحر · والقضاء المبرم على العلوم والفنون مدى ألف سنة · والسبب فى هذا لا يرجع الى تعاليم المسيح بل الى استمساك أتباعه بها فى تعصب وضيق أفق ويرى رسل أن الانسان ينزع الى القســـوة وانه يخفى نزعته نحو القســـوة وراء قناع التعصب لمذهب أو مبدأ ويتوقع رسل من الدولة السوفيتية أن ترتكب بسبب تعصبها من أعمال الظلم والوحشية مثلما ارتكبته الكنيسة المسيحية فى القرون الوسطى ·

ويفسر رسل انتشار عطف الناس فى الغرب على التجربة السوفيتية بأن الحرب الأولى قد زعزعت جذور معتقداتهم الدينيــة وأصابتهم باليأس والقنوط حتى باتوا يرنون الى دين مخلص جديد يخلف الدين الذى تهافت وتهاوى واستطاعت البلشفية أن تمدهم بالدين الجديد · دين يبشر بالخير العميم وبتحقيق الفردوس على الأرض ، دين لا محل فيه لأسباب اليأس أو التشاؤم ومما ساعد على انتشـــار العطف فى الغرب على البلشـــفية

---

(١) نفس المرجع ص ١٠ ·

السوفيتية أن الاشتراكيين الغربيين الذين زاروا الجمهورية الروسية قد تعمدوا اخفاء الحقائق البشعة عن الناس ، وخرجوا من روسيا مهللين مكبرين يعلنون انبلاج فجر جديد ، واقامة الفردوس الأرضى فى القريب العاجل • وينحى رسل باللائمة على هؤلاء الاشتراكيين الذين يفتقرون الى الشجاعة الكافية لأن يصارحوا الرأى العام بملامح النظام البلشفى الشائن كما وقعت أبصارهم عليه مما أفضى الى تضليل الاشتراكية الغربية وانحرافها عن جادة السبيل • ويعلن رسل ان الاشتراكية الغربية تستطيع الوصول الى أهداف البلشفية دون حاجة الى الخوض فى أوحال القسر والجور اللذين تورطت فيهما البلشفية الروسية • وهناك فى نظره نظم اشتراكية أسوأ حالا من الرأسمالية ومنها النظام السوفيتى الذى يرى رسل أنه عائق يعترض سبيل التقدم •

عبر رسل الحدود الروسية يوم ١١ مايو ١٩٢٠ وغادرها يوم ١٦ يونيو من نفس العام ووافقت السلطات السوفيتية على دخوله الأراضى الروسية بشرط أن يرافق فى أسفاره وفد حزب العمال البريطانى الذى كان فى زيارة رسمية لروسيا •وتكرم الوفد بأن سمح له بالانضمام اليه• ويصف رسل الاستقبال الرائع الذى قوبلوا به ، فيقول ان الحفاوة البالغة كانت تنتظرهم فى كل مكان ، وأقيمت المآدب تكريما لهم ، وخصصت الحكومة لهم قطارا فاخرا يستقلونه ونظمت لهم الاستعراضات العسكرية ،وباختصار كان استقبالهم محاطا بكل مظاهر الهيل والهيلمان• والسر فى هذا ان الشيوعيين الروس أرادوا استغلال وفد حزب العمال البريطانى للدعاية لهم عند عودته الى بلاده ، ولكن هذا الاستقبال الرسمى كان يضايق أعضاء الوفد الذين كانوا يتحرقون شوقا للسير فى الشوارع والطرقات والاختلاط بالناس العاديين للوقوف على حقيقة أحوالهم وموقفهم من الحكم الشيوعى ، ومن ثم جاءت محاولتهم للتنصل والتهرب من جو الاحتفالات الرسمية الخانق كلما كان الى ذلك سبيل •

وكان رسل بحكم عدم انتمائه رسميا للوفد يتمتع بقسط من الحرية في التهرب من الاحتفالات والمآرب الرسمية أوفر من القسط الذى كان زملاؤه من أعضاء الوفد الرسمى يتمتعون به ، وسمحت له السلطات السوفيتية بالاتصال بالاحزاب المناهضة للحكومة من منشفيك (حزب الاقلية) وفوضويين وثوار اجتماعيين من مختلف الطوائف • وكان الاجتماع بهم يتم فى حضرة مترجمين أمريكان وانجليز بعيدا عن عيون السلطات السوفيتية ، وكان هؤلاء المعارضون للحكم البلشفى يتوجسون

خيفة فى بادىء الأمر ، ولكنهم كانوا يتحدثون بصراحة عندما يطمئنون الى زوارهم • وقابل رسل الزعيم الشيوعى لينين وتحدث معه ساعة بأكملها على انفراد حديثا وديا بعيدا عن أية مظاهر رسمية • وقضى ليله مع كامنيف فى الريف كما قابل تروتسكى مرة واحدة فى دار الأوبرا بموسكو وتحدث معه لوقت قصير •

ويعقد رسل مقارنة بين الشيوعيين الرواد وبين البيوريتانز فى عهد كرومويل ، ويشير الى وجوه التشبه بينهما • فالشيوعيون الرواد متقشفون ويقسون على أنفسهم ، دون أن تحركهم غير الرغبة فى اقامة نظام اجتماعى جديد ، كما كان ترويضهم لأنفسهم على الحرمان يبرر لهم بطبيعة الحال القسوة على الآخرين • والشيوعيون الرواد متعصبون شأنهم فى ذلك شأن البيوريتانز المتعصبين ، وعلى استعداد للتضحية بكل شىء فى سبيل تدعيم عقيدتهم ولو اقتضى الأمر اقامة ديكتاتوزية عسكرية لا تعرف غير طريق الدم • وتذكر الحكومة السوفيتية برتراند رسل بجمهورية أفلاطون ، ويرى ما بينهما من شبه عظيم مهما حاول الشيوعيون انكار هذا ، ومهما اعتبروا أفلاطون بورجوازيا قديما • وفى نظره ان الحزب الشيوعى فى النظام السوفيتى يقابله الأوصياء فى جمهورية أفلاطون •

ويعترض رسل على المبدأ الشيوعى الذى يبشر باشعال الثورة فى كل بقاع العالم والذى يرفض التطور السلمى الى الاشتراكية كما ينادى به حزب العمال البريطانى مثلا •• « واخبرنى لينين أنه يأمل فى تكوين حكومة عمالية فى انجلترا ، وانه يريد من أعوانه أن يعملوا من أجل مجىء هذه الحكومة حتى يتضح عبث النظام البرلمانى بطريقة قاطعة للعامل البريطانى ••• » (١) وعلى الرغم من اقتناع رسل بكل اتهامات لينين الموجهة ضد الرأسمالية الغربية الا أنه يرفض الثورة العالمية لأن الاشتراكية التى تتحقق كنتيجة لها لابد أن تنهض على القسوة والجور والقسر ، ونجاح الاشتراكية بالحرب الاهلية وعن طريق الدم يقتضى تركيز السلطة فى يد قلة من الحكام • وليس هناك ما يدل على أن تركيز السلطة فى أيدى الاشتراكيين سيكون أقل فى شروره من تركيز السلطة فى يد الرأسماليين • « ولهذه الأسباب أساسا تجدنى لا أستطيع أن أؤيد أية حركة تهدف الى الثورة العالمية • » (٢) ويعتقد رسل انه

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠ •
(٢) ص ٣١ •

لينين يحفل بمصلحة الثورة العالمية أكثر من احتفاله بمصلحة روسيا ذاتها ويرجع انه لو تعين على لينين أن يختار التضحية بروسيا والتضحية بالثورة العالمية لما تردد فى التضحية بروسيا فى سبيل الثورة العالمية .

ولكن رسل يتنبأ باختفاء هذه النظرة الدولية لتفسح الطريق للعواصف القومية وقد شاهد بنفسه بشائر هذا الاتجاه القومى عندما رأى تروتسكى فى دار الاوبرا بموسكو حيث تحدث اليه لبعض الوقت فى المقصورة التى كانت يوما من الايام مخصصة للقيصر . رأى رسل ترتسكى وهو يقترب من حافة المقصورة مكتوف اليدين . واستقبله الحاضرون فى الأوبرا بالهتاف المدوى وتحدث اليهم ترتسكى بضع عبارات موجزة عن لهجة عسكرية دقيقة وحاسمة فى نفس الوقت . واختتم كلمته القصيرة بأن طلب من الحاضرين أن يرددوا ثلاثة هتافات « من أجل رفاقنا الشجعان على الحدود . » ، واستجاب الحاضرون لطلبه بطريقة متحمسة مشحونة بروح التقاتل الأمر الذى ذكره بلندن فى خريف ١٩١٤ . ويعبر رسل عن مخاوفه من أن تزداد حدة هذا الشعور القومى بحيث تتحول روسيا فى نهاية الأمر الى دولة توسعية استعمارية .

قابل برتراند رسل لينين وحضر المقابلة أحد المترجمين ورغم ان لينين لم يكن يجيد التحدث باللغة الانجليزية ، الا أن المامه بها كان كافيا للتفاهم المباشر دون حاجة الى خدمات المترجم طيلة المقابلة تقريبا . وكان من الواضح انه يمقت الترف أو حتى الراحة . وبدا انه ودود وبسيط وليست فيه ذرة واحدة من التعالى أو الكبرياء لدرجة أن رسل قال عنه : «اننى لم أقابل فى حياتى قط شخصية هامة تخلو من الزهو والشعور بالاهمية مثله . »(١) وكان من عادته أن يستغرق فى الضحك الذى ينم مظهره عن لطف المعشر والصداقة . ولكن رسل تبين بالتدريج ان ضحكه الكثير يخفى وراءه ملامح صارمة متجهمة ، كما أحس أن لينين لا يعدو أن يكون تجسيدا للنظرية الماركسية ، وان الفلسفة المادية فى التاريخ هى الدماء التى تجرى فى عروقه وتبعث فيها الحياة .

كان رسل حريصا على أن يعرف رأى لينين اذا كان الاشتراك فى الانترناشونال الثالث يستلزم بالضرورة الايمان بالثورة الدموية لتحقيق النظام الاشتراكى ، فسأله اذا كانت لانجلترا ظروفها الاقتصادية

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣ .

والسياسية الخاصة التى تجعل من غير الضرورى الالتجـــاء الى الثورة كوسيلة لبلوغ الهدف الاشتراكى ، وكان رد لينين ان التطور السلمى لا يخرج عن كونه دعاية وتحيزا بورجوازيا ، وان الثورة هى السـبيل الوحيد لاقامة الاشتراكية • وأضاف لينين ان العامل البريطانى لا يحس حتى الآن بالاشمئزاز من النظام النيابى • ولكنه (أى لينين) يأمل فى مجىء وزارة عمالية حتى يتضح للطبقة العاملة البريطـانية عدم جدوى اشكال الحكم النيابى ، وتقتنع عندئذ بضرورة الثورة •

ثم سأله رسل اذا كان من الممكن اقامة الشيوعية بمعناهـا الكامل فى بلد أغلبيتها من الفلاحين فرد عليه لينين بقوله بأن هذا عسير ، ولكنه يأمل عن طريق كهربة روسيا فى خلال عشر سنوات وعن طريق رفع الحصار الذى تفرضه الدول المتحالفة عليها أن ينصلح ما أفسدته الأيام وكان لينين يتوقع كسر الحصار المفروض عليـــه عن طريق الثـــورات الشيوعية داخل الدول الرأسمالية كما كان ينظر الى استئناف العلاقات التجارية بين روسيا والدول الرأسمالية على أنه مجرد مسكن غير مضمون الفائدة •

وكان رسل يعتقد أن غلاة الشـــيوعيين لن يرحبوا باســـتئناف العلاقات التجارية مع العالم الرأسمالى فمن شأن هذا الاحتكاك مع العالم الخارجى أن يضطرهم الى تخفيف جمود النظام البلشفى فسأل لينين اذا كان استئناف العلاقات التجارية قد يتسبب فى تشـــكيل جيوب للنفوذ داخل الجمهورية السوفيتية وأجـــاب لينين بأن التجـــارة الخارجية مع الرأسمالية ستسبب حتما الكثير من الصعاب لروسيا ، ولكنها أفضل من استمرار الحرب والحصار على أية حال • وأضاف لينين انه وزملائه لم يكن يخطر على بالهم منذ عامين فقط انهم سيستطيعون البقاء على قيـد الحياة أمام عداوة العالم الخارجى • ونسب لينين انقاذ الثورة الشيوعية من براثن أعدائها الى الصراع والتنافس والتعـارض فى المصـــالح فى صفوف المعسكر الرأسمالى من ناحية ، والى قوة الدعاية السوفيتية من ناحية أخرى • ويقول رسل انه اتضح له أن لينين كان يجهل جهـــلا تاما الدور الذى لعبته الاحزاب الاشتراكية والعمالية فى رسوخ قـدم الثورة الشيوعية كما أنه كان يجهـــل الدور الذى لعبه حزب العمال البريطانى الذى أعجز الحكومة عن شن حرب شاملة من الدرجة الاولى على الجمهورية السوفيتية ويصف رسل انطباعاته عن لينين قائلا : « أعتقد اننى لو كنت قد قابلته دون أن أعرف هويته لما خطر على بالى أنه رجل

عظيم فقد ترك فى نفسى الاعتقاد بأنه متعصب ومحدود الافق بدرجة تفوق الحد ، وقوته فى تصورى نابعة من أمانته وشجاعته وايمانه الذى لا يتزعزع — ايمـــانه الدينى بالانجيل الماركسى الذى يحل محـل آمال الشهيد المسيحى فى الفردوس ، مع فرق واحد انه أقل من الشـــهيد المسيحى انصرافا الى التفكير فى الذات ٠٠(١) وبدا له ان لينين لا يؤمن بالحرية ويرى فى الماركسية دواء لكل داء ٠ « واذا كان الامر كذلك فأنا لا أملك غير الابتهاج بروح العالم الغربى المتشككة لقد ذهبت الى روسيا اشتراكيا ولكن اتصالى بهؤلاء الذين لا يخامرهم الشك قد زاد ألف مرة حدة شكوكى لا فيما يتعلق بالاشتراكية فى حد ذاتها ولكن فى الحكمة الناجمة عن الايمان اليقينى بمذهب ٠٠٠ هذا الايمان الذى من شـــأنه أن يجعل الناس على استعداد لاشاعة البؤس فى سبيل تحقيقه ٠ » (٢)

وعلى الرغم من أن مقابلة رسل لتروتسكى كانت عابرة وسطحية الا أنها تركت فى نفسه أثرا كبيرا مما تركته مقابلة لينين ٠ فقد كان على قدر هائل من الذكاء الوقاد الخارق والشخصية الجبـارة المغنطيســـية ٠ كانت عيناه تلمعان فى ذكاء كالبرق الخاطف — كما كانت قامتـــه مديدة ومهيبة ٠ أما وجهه فكان جميل الصورة للغاية ، وشعره المتموج بديعا ٠ وشـــعر رســـل انه من نوع الرجال الذى تســـتسلم أمامه أية امرأة ، واستهوته فى تروتسكى روح المرح والدعابة التى شاعت فى نفسه ، وخيل اليه ان خيلاء تروتسكى تفوق رغبته فى السيطرة والســلطان ٠ ولكن رسل يبدى تحفظا فيقول انه قد يكون مخطئا فى حكمه هذا ٠

وقابل رسل جوركى مقابلة قصـــيرة فى بتروجراد فلمس جوركى شغاف قلبه وأحبه من أعماق فؤاده ٠ كان جوركى طريح الفراش ، وكانت تواجهه نوبات سعال حادة جعلت استمرار المقابلة غير ممكن ٠ وتوسل جوركى الى رسل أن يذكر الآلام التى تقاسيها روسيا فى أى شىء يكتبه عنها ٠ وأضاف جوركى انه يؤيد الحكومة السوفيتية لا لأنهـــا خالية من الاخطاء ، ولكن لأن البديل الممكن لها سيكون أسوأ منها حالا ٠ وأحس رســـل ان حب جوركى للشـــعب حب صاف رقراق ، عميق خـالص « وأحسست انه أحب انسان ، والطف شخصية معشرا بين كل الروس الذين قابلتهم ٠ (٣)

---

(١) ، (٢) نفس المرجع ص ٣٧ ، ٣٨ ٠

(٣) ص ٣٨ — ٣٩ ٠

وكان أخشى ما يخشاه رسل أن يكون جوركى المريض رمزا يمثل آخر معقل للفنون والآداب سيتهاوى تماما فى ظل النظام السوفيتى ، واقتنع رسل ان الجو السوفيتى لا يمكن الفنون والآداب . والفكر من الإزدهار وسأل رسل أحد الشيوعيين عن مصير الفنون فى ظل البلشفية — ولما لم يظفر منه باجابة مرضية الح فى سؤاله فأجابه فى صبر نافد : « ليس لدينا وقت لفن جديد كما انه ليس لدينا وقت لدين جديد »

كان رسل قبل سفره الى روسيا الشيوعية يتوقع أن يرى تجربة جديدة فى التمثيل النيابى . ولكن خبرته بروسيا على الطبيعة دلته على ان النظام البلشفى لا ينهض على التمثيل النيابى اطلاقا . فالحكومة التى تسيطر على سائر أجهزة الدعاية والاعلام من مطابع وقاعات للاجتماع الخ ... لا تسمح لمعارضيها بأية دعاية انتخابية لأنفسهم والفلاحون الذين يشكلون ٨٥٪ من مجموع السكان يناصبون الحكومة السوفيتية العداء . فلو ترك الانتخاب حرا لانتهى قطعا بهزيمة الحزب الشيوعى الذى يبلغ عدده حينذاك ستمائة الف عضو فى بلد تعدادها ١٢٠ مليون نسمة . ورغم ما تبذله الحكومة السوفيتية للضغط على الحريات فقد استطاع حزب المانشيفيك المعارض أن يفوز بأربعين مقعدا فى المجلس السوفيتى فى موسكو الذى يبلغ عدد مقاعده ١٥٠٠ .

وتتدرج الانتخابات فى روسيا السوفيتية فى القرية وهى أصغر وحدة انتخابية حتى تصل الى المجلس السوفيتى فى موسكو المكون من ١٥٠٠ عضوا . وينتخب هذا المجلس لجنة أعلى منه اسمها « اللجنة التنفيذية » تتكون من أربعين عضوا ثم تنتخب هذه اللجنة بدورها تسعة أعضاء يشكلون قمة الهرم الانتخابى وهى مجلس السوفييت الاعلى .

ذكر لينين فى حديثه مع رسل ان الفلاحين لم يأكلوا ويشبعوا مثلما أكلوا وشبعوا فى السنتين الأخيرتين من الثورة الشيوعية . وأضاف فى لهجة تنم عن شيء من الحزن « ومع ذلك فهم يعارضوننا . » وباحتكاك رسل المباشر مع الفلاحين أيقن صدق كلام لينين فيما يتعلق بأحوال الفلاحين الطيبة فقد كانوا بالفعل يجدون ما يكفيهم من الطعام الذى كان العمال وسكان المدن محرومين منه . ورغم هذا فقد كان تذمرهم من الحكم السوفيتى واضحا . واقتنع رسل أن استياءهم من الحكم الجديد لم يكن له ما يبرره . لقد كان الفلاحون يريدون الاستقلال بالأرض

ومنتجاتها • وكانوا يريدون ممارسة التجارة الحرة دون أن يدركوا لجهلهم ان التجـــارة الحرة لم تعد ممكنة بسـبب الحصار الذى تفرضه الدول الرأسمالية على روسيا الشيوعية ولا ذنب للحكومة فى هذا • كان الفلاحون يصرون على استبدال محاصيلهم الزراعية بالأقمشة والأدوات الزراعية التى يحتاجون اليها ولم تكن الحكومة تملك أن تعطيهم غير ورق بنكنوت عديم الفائدة نظرا لانقطاع الصلة التجارية بينها وبين العالم الخارجى • ولكن رسل يعيب على الحكومة السوفيتية انها التجأت الى الاستيلاء على كافة محاصيل الفلاحين تقريبا فى مقابل أوراق نقدية لا قيمة لها فلو انهـا سمحت لهم بالاحتفاظ بنسبة معينة من منتجاتهم الزراعية لكان هـذا حافزا لهم على زيادة انتاجهم ولما ناصبوا الحكومة كل هذا العداء •

يقول رسل فى معرض حديثه عن الجهـاز الحـاكم فى روسيا البلشفية انه يمكن تقسـيمه الى ثلاثة أقســام يتكون القسم الاول من الشيوعيين القدامى الذين ذاقوا مرارة السجن والاضطهـاد ويحتل هذا القسم جل المراكز القيـادية ويصفه رسل بالاخلاص الذى لا يرقى اليه الشك والتفانى المطلق فى خدمة المبدأ الشيوعى لدرجة تبلغ حد التعصب• ويتلوهم فى المكانة حشد من الانتهـازيين والوصوليين الذين لم يؤمنوا بالبلشفية عن اقتناع بل لما تدره عليهم من مكاسب وغنائم • أما القسم الثالث فيتكون من أناس ليسـوا بالشيوعيين ولكنهم أصـحاب طاقات وامكانيات شبيهة بطاقات وامكانيات الرجل العصامى فى الدول الرأسماليه ويسعى هؤلاء الطامحون الى القوة والسلطان لا الى جمع الثروة ، ويجدون فى الجو الجديد فرصة مواتية لتحرير طاقاتهم وتطوير قدراتهم • ويقول رسل ان صرف هذه الطاقات الطامحة فى مجال العمل لا جمع المال هو أعظم تغيير أحدثته البلشـفية فى النظام الاجتماعى ويتنبأ بأن روسيا الشيوعية ستستطيع عن طريق هذه السواعد الفتية والنفوس الطامحة ، أن تصيب فى المستقبل تقدما مذهلا فى ميدان الصناعة « وهذا ما يجعل فى الامكان أن نفترض انه اذا تركت روسيا لتعيش فى سلام فقد يحدث فيها تطور صناعى مذهل من شأنه أن يجعل من روسيا منافسا للولايات المتحدة » (١) •

شاهد رسل خلال الفترة التى قضاها فى روسيا الشيوعية ما آلت اليه الصـناعة من تدهور أصبح يهدد الجمهـورية السوفيتية بالانهيار

(١) نفس المرجع ص ٤٦ •

والخراب الشامل • ولم يجد المؤتمر التاسع للحزب الشيوعى مناصا من الاعتراف بهذه الحقيقة الاليمة ولا غرو فقد تعطلت المصانع عن العمل وكادت حركة المواصلات أن يصيبها الشلل الكامل • وانقطع الوقود سواء كان الفحم الوارد من بولندا أو البترول الذىتقوم روسيا نفسها بانتاجه• وكان السبب فى توقف دولاب العمل الصناعى هو اعتماد روسيا التام فى صناعاتها على الآلات الواردة من الخارج وعلى الفنيين الاجانب فلما نشبت الثورة الشيوعية أعلنت الدول الرأسمالية الحرب على روسيا وحاولت غزوها للاطاحة بالنظام البلشفى كما فرضت عليها حصارا يهدف الى حرمانها من السلع والبضائع التى ينتجها الغرب • وغادر معظم الفنيين الاجانب الاراضى الروسية • وانصرفت بقينهم الى أعمال التخريب بغية زعزعة الحكم الشيوعى ولم يكن الروس أنفسهم الذين أصابوا قدرا من المهارة الفنية أفضل حالا من الفنيين الاجانب فقد عملوا كل مافى وسعهم لتدمير النظام الشيوعى • ولكن النظام الشيوعى ظل راسخا لا يتزعزع رغم الاخطار التى تتهدده • فلم ير هؤلاء المخربون مناصا من العودة الى أعمالهم والتعاون مع الشيوعية ولان الحكومة كانت فى مسيس الحاجة الى أية مهارة فنية فقد قبلت عودتهم الى وظائفهم وأجزلت لهم العطاء •

وبلغ التدهور الاقتصادى والصناعى الى حد اضطرت معه الحكومة الى التجنيد الصناعى أى بارغام العمال المهرة على العمل فى المصانع ، وتحريم الانتقال من مكان لآخر عليهم • وخاصة لان سكان موسكو وبترجراد كانوا يلوذون بالفرار الى الريف سعيا وراء الطعام • واضطر المؤتمر التاسع للحزب الشيوعى أمام الفوضى الضاربة اطنابها أن يصدر بيانا يتوعد فيه كل من تسول له نفسه أن يترك عمله فى المصنع ويهرب الى الريف بأصرم العقوبات ويحذر من أضالبل الانتهازيين الذين يحاولون تحريض القطاعات المتخلفة من الطبقة العاملة على التخلص من خبرة الفنيين البورجوازيين والاستغناء عنها كلية • واعترف البيان بحاجة الجمهورية السوفيتية الى تجنيد كافة الكفاءات حتى ولو كانت هذه الكفاءات بورجوازية • وكان امتناع الفلاحين عن امداد المدن بالطعام يزيد الطين بله • فقد كان النقص فى المواد الغذائية والمحصولات الزراعية يشكل خطرا داهما على سلامة الدولة السوفيتية • امتنع الفلاحون عن تزويد المدينة بما يلزمها من طعام الا اذا حصلوا فى مقابله على حاجتهم من الاقمشة والادوات الزراعية • ولكن الحكومة لم تكن تملك بسبب الحرب والحصار سوى اصدار أوراق النقد المالية العديمة الجدوى تقدمها اليهم ولما كانت

المواد التموينيه التى توزعها الحكومة على الناس لا تكفى لسد رمقهم شاع بيعهـــا وشراؤها من يد الى يد فى السوق السوداء حتى بلغت السلعة خمسين ضعف ثمنها الاصلى • وأصبحت الحكومة السوفيتية محصورة بين المطرقة والســندان • فهى تواجه الخطر الخـــارجى والداخلى فى نفس الوقت • وكان الفلاحون يناصبونها العداء لأنها تستولى على محصولاتهم بأبخس الاثمان وفى مقــابل ورق لا حاجة لهم به • ولم يكونوا لأنانيتهم وجهلهم يقدرون موقف الحكومة الحرج أو يدركون ان هنــاك حربا وان هنـــاك حصارا مضروبا على حكومتهم فقد كان المهم عنــدهم أن يحتفظوا بمحصـــولاتهم أو أن يحصلوا على ما يريدون من سلع • ولم يكن أهل المدينة أقل كراهية للحكومة من الفلاحين فقد كانت بطونهم خاوية •

ويقول رسل انه يعذر قسوة الحكومة البلشفية وبطشها فلو انها لم ترغم الفلاحين على التخلى عن محصولاتهم لتضور أهل موسكو وبتروجراد جوعا • ولهذا نادى رسل بأن يرفع الغرب الحصار عن روسيا وبايقاف الحرب معها حتى يضع حدا لهذه المأساة الانســانية الاليمة ولكن الغرب لم يحرك ساكنا لتخفيف أوجاع روسيا الجريحة بل عمل كان مافى وسعه لينكأ جراحها وهو ينظر اليها نظرة ملؤها الشماتة والبغضاء •

وهكذا أصبحت الحياة اليومية بالنسبة لغالبية السكان فى موسكو وغيرها باستثناء حياة القلة الحــاكمة ، مملة سقيمة وخالية من سائر عناصر المتعة والتسلية ويكفينا أن نعرف شــيئا عن حالة المواصلات فى موسكو حتى نعرف ماآلت اليه الامور من تعاسة وشقاء • كانت المواصلات شحيحة لدرجة ان السلطات كانت تحرم على المواطنين السفر دون تصريح لهم بذلك • وكانت السلطات لا تعطيهم مثل هذا التصريح الا بعد ابداء أسباب السفر التى تقتنع بهــا ولم يكن الحصول على التصريح بعد مضى أيام وبشق الانفس هو كل شيء، فقد كان لزاما على المسافر نظرا للازدحام الفظيع أن يقف أمام شباك التذاكر فى طابور لا ينتهى حتى يستطيع حجز تذكرة فى قطار يقله بعد أيام • وكان المواطنون يتعرضون فى أى وقت وأى مكان لحملات البوليس التفتيشية المفاجئه التى يشنها الجهاز المعروف باللجنة غير العادية بحثا وراء المضاربين بالاغذية • وهو جهاز بوليس مستقل بذاته كانت تخول له فى بدء الثورة سلطة الاعدام بلا محاكمة • ويقول رسل فى هذا الصدد « اننى أدرك تماما أسباب سوء الحالة التى ترجع الى تاريخ روسيا القديم . والى السياسة الحديثة التى تتبعها الدول الحليفة • ولكنى فكرت انه من الافضل أن أسجل انطباعاتي بصراحة وأنا

فى ثقة من ان القراء سيذكرون ان نصيب البلاشـــفة من المسئولية عن الشرور التى تعانى منها روسيا لا يعدو أن يكون نصيبا محدودا للغاية(١)

ويرى رسل ضرورة وقف الغرب للحرب ضد روسيا ورفع الحصار عنها واستئناف التجارة معهـا ، لان استئناف التجارة معهـا هو الكفيل وحده بتخفيف قبضة الديكتاتورية البلشفية فى الداخل ، وتمكين الحكومة السوفيتية من العمل المستقر البناء ٠

ويصف رسل محاولة الغرب للقضاء على الحكومة الشيوعية بالحصار وقوة السلاح بأنها محـاولة اجرامية وغير مجدية فالنظام البلشفى مستقر رغم كل ما يتعرض له من هزات وأزمات ٠ وقد يدفع الغرب عامة وانجلترا خاصة ثمنا باهظا لهذه السياسة الخرقاء ٠ لان روســـيا ستتحول أمام الضغط الذى تجابهه الى دولة استعمارية توسعية ٠ وهذا ما يعمل لينين جاهدا كى يتحاشاه فى الوقت الحاضر ولكن ليس هناك ضمان ألا تلجا روسيا الى مثل هذه السياسة ٠ فمن السهل عليها أن تلفت أنظارها تجاه آسيا التى ترزح وتئن تحت نير الاستعمار ويقول رسل « واذا استمررنا فى معـــاداة البلاشفة فلست أرى أية قوة يمكن أن تحول بينهم وبين الاستيلاء على آسيا بأسرها فى مدى عشرة أعوام (٢) ، ٠ ويستشهد رسل على ذلك بمقال خطير الدلالة كتبه لينين للانترناشونال الثـالث (يوليو ١٩٢٠) يتعرض فيه لمشكلة القوميـات والمستعمرات وفيه يعلن ضرورة تحالف الجمهورية السوفيتية مع حركات التحرر القومى المحلية ، بل ومع البورجوازية الوطنية فى حربها مع الرأسمالية العـالمية والاستعمار كما يعرب عن واجب الحكومة السوفيتية أن تقوم بحمـــاية القوميات الثائرة وأن تأتلف معها فى جبهة فيدرالية حتى يجىء اليوم الكبير ، اليوم الذى يتحد فيه كل عمال العالم ٠

ولا يعنى وقوف رسل فى صـــف الحكومة الســـوفيتية انه يقبل البلشفية كنظام للحكم يمكن أن يحذو حذوه ٠ فالبلشفية فى نظره دين

---

(١) نفس المرجع ص ٦١ ٠

(٢) ص ٧٠ ٠

وليست مذهبا سياسيا جديدا فيه كل رزائل الدين من تعصب وايمـان بمسلمات لا تقبل الجدل أو النقاش ·

« والذين يقبلون البلشفية لا يقيمون وزنا للدليل العلمى وينتحرون فكريا » · وبفرض ان كل مبادىء البلشفية صحيحة فلن يغير هذا من الامر شيئا ، لانهـا لا تسمح لمناقشة مبادئها وتحليلها بنأى عن التحيز · والانسـان الذى يؤمن ـ مثلما أومن ـ ان العقـل الحر ركيزة للتقدم الانسانى لا يملك غير أن يناهض البلشفية أساسـا بنفس الحماسة الذى يناهض بها كنيسة روما (١) ·

---

(١) نفس المرجع ص ٧٤ ·

(٣)

موقف برتراند رسل من النظرية الماركسية

على الرغم من عطف رسل السابق على التسيوعية ، الا انه لم يكن فى اى يوم من الايام – كما نرى من كتابيه « الطرق الى الحرية » و « مستقبل الحضارة الصناعية» يدين بالماركسية بحذافيرها • فهو فى « الطرق الى الحرية » يعدد التنبؤات الخاطئة التى تردى ماركس فى وهدتهـا ، كما انه يلفت الانظار الى الاخطار البيروقراطية التى تكتنف اشتراكية الدولة عند ماركس • وفى «مستقبل الحضارة الصناعية» نراه يهاجم الماركسية لانها تستمد من الهيجيلية الاعتقاد بأن للدولة مصلحة عليا مستقلة عن مصالح الافراد • ومع ان النظرية الماركسية قد أثرت فيه بالغ الاثر كما يعترف بذلك فى كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» فنحن نراه يختلف معهـا منذ البداية فى كثير من الجوهريات • ويكفى أن نسوق ما ذكره فى « تاريخ الفلسفة الغربية » حتى نتبين الاثر الكبير الذى تركه ماركس فى نظرته الفلسفية الى الاشياء • فهو يقول فى معرض حديثه عن « التفسير المادى للتاريخ » : « أنا شخصيا لا أقبل هذه النظرية على ما هى عليه • ولكنى أعتقد انها تنطوى على عناصر من الحقيقة هامة للغاية • وانى أدرك انها قد أثرت فى آرائى فيما يتعلق بتطور الفلسفة كما يتضح من عرضى لهـا فى هذا الكتاب(١) •»

وفى كتابه « تطبيق البلشفية ونظريتها » الذى نشره عـام ١٩٢٠ نجده يشرح اعتراضاته على النظرية الماكسية ويقول انها تؤمن بالتفسير المادى للتاريخ الذى يعنى ان العوامل الاقتصادية تحـدد شكل الظواهر التاريخية • وفى رأيه ان المادية بمعناها الفلسفى ليست فى صلب النظرة الماركسية المادية للتاريخ مهما كثرت نقط الالتقـاء بينهما وتعنى المادية بمعناها الفلسفى الايمان بأن كل الظواهر الفكرية تبدو ذهنية فى مظهرها ولكنها مادية أو طبيعية فى حقيقة أمرها ، أو انها مردودة على كل حال الى أسباب مادية محضة • والماركسيون يؤمنون بالمادية بمعناها الفلسفى • ويعتبرونها أساسا لتفسيرهم المادى للتاريخ • غير ان رسل لا يرى ثمـة

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية ص ٨١٣ •

علاقة وثيقة بين المادية الفلسفية والتفسير المادى للتاريخ · ويوضح فكرته بقوله ان هناك فلسفات كثيرة تدخل فى نطاق الفلسفة المادية ولكنها مع ذلك لا تتمشى مع التفسير المادى للتاريخ ، ففلسفة «باكل» (١) التى تعتبر الجو من أهم العوامل الحاسمة فى تشكيل الاحداث لا تستقيم مع التفسير المادى للتاريخ ، فى حين انها تتمشى مع المادية بمعناها الفلسفى · وهكذا بالنسبة لفرويد الذى يرد كل شىء الى الجنس · ومن هذا كله يستخلص رسل ان التفسير المادى للتاريخ قد يكون غير صحيح حتى لو كانت المادية بمعناها الفلسفى صحيحة · كما انه يرى ان العكس صحيح · فقد يكون التفسير المادى للتاريخ صحيحا دون أن يستتبع هذا صحة المادية الفلسفية· والبواعث الاقتصادية التى تتمثل فى الرغبة فى التملك أو الاقتناء ، قد تكمن وراء الاحداث السياسية حتى لو عجزنا عن تفسير هذه الرغبة عن طريق المنهج المادى ·

والسبب الذى يحدو برسل الى هذا التمييز بين الفلسفة المادية والتفسير المادى للتاريخ هو اعتقاده ان الكثير من الاحكام التى تتضمنها النظريات السياسية تستند فى مؤازرتها أو مناهضتها الى عوامل بعيدة عن صلب الموضوع ، ولا تمت الى الواقع بصلة وثيقة مثل استناد التفسير المادى للتاريخ الى أساس المادية بمعناها الفلسفى · وبالاضافة الى هذا يعتقد رسل ان اقامة نظرية سياسية على أساس فلسفى عام يساعد على الاستمساك بهذه النظرية فى تعصب · فللشيوعية « يقينية اللاهوت الكاثوليكى الثابتة دون أن تتسم بالمرونة المتغيرة » (٢) ورسل من ألد أعداء التعصب واليقينية ويمجد التشكك ·

ويتفق رسل مع التفسير المادى للتاريخ لا باعتباره قانونا ثابتا ، ولكن باعتباره مجرد محاولة للاقتراب من الحقيقة · ويضرب أمثلة تشهد على صحة النظرية الماركسية فى مجموعها فقد أفضى التصنيع الى الفت فى عضد العقيدة الدينية بين الطبقات العاملة ، فى حين أن اتباع داروين ونقاد الكتاب المقدس أسهموا بنصيب محدود ضئيل فى التأثير على حفنة من المثاليين العاجزين الذين لا حول لهم ولا قوة · وكان الارستقراطيون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر يدينون بالفكر الحر ، ولكن أحفادهم فى الوقت الحاضر تحولوا الى الايمان بالدين لانهم فى دفاعهم عن مصالحهم أحسوا بضرورة جمع شمل القوى الرجعية وتحالفها مع الكنيسة لمحاربة

---

(٢) تطبيق الفلسفة وتطورها ، ص ٨١ ·

البروليتاريا الثائرة . ويسوق رسل مثلا آخر يوضح أثر التصنيع فى العلاقات الاجتماعية ، فلطالما نادى أفلاطون ومارى ولستونكرافت وجون استيوارت ميل بتحرير المرأة ، ولكن نداءهم ذهب ادراج الرياح ولم تتمتع المرأة بالتحرير فعلا الا حين دعت دواعى الحرب الى الحاقهم بالمصانع على نطاق واسع مما جعل فكرة اعطاء المرأة حقها الانتخابى تبدو شيئا طبيعيا ومعقولا . وقد كان لاستقلال المرأة الاقتصادى أثره الكبير فى تغيير الكثير من جوهريات الأخلاق الجنسية التقليدية الامر الذى أثر بدوره فى مجالات القانون والادب والفن التى تبدو بمنأى عن الاقتصاد .

ويتفق رسل مع المفهوم المادى للتاريخ فى اطاره العام ، ولكنه يقول انه لا يكفى لتفسير كل الظواهر فهو يتغافل بعض الاعتبارات غير الاقتصادية وأهمها ما يتصل بالقومية . صحيح ان القومية تعبر عن مصالح مجموعة من الناس ولكن ليس هذا هو الحال دائما . ففى بعض الحالات نجد ان القومية تضحى بمصالحها الاقتصادية فى سبيل عوامل عاطفية . وليس هذا خطأ الماركسية الوحيد ، فالماركسية تزعم أيضا ان ولاء الانسان يتجه نحو طبقته . وليست هذه الحقيقة دائما فنحن نرى ان العامل الكاثوليكى يساعد على فوز الرأسمالى الكاثوليكى فى الانتخابات ، ويعمل على اسقاط الاشتراكى الملحد فيها . والسبب فى هذا لا يرجع الى تضليل الرأسمالية وحده ، بل الى ان الانسان يهتم أحيانا برفعة شأن عقيدته الدينية أكثر من اهتمامه بمصالحه الخاصة . هناك اذن بواعث انسانية الى جانب البواعث الاقتصادية . ومن بين هذه البواعث غير الاقتصادية رغبة الانسان فى السيطرة والسلطان والفخار واحترام الذات . وسنرى لرسل فيما بعد رأيا متكاملا فى السلطان يدحض به الماركسية فيما تذهب اليه من رد السلوك الانسانى الى أسباب اقتصادية .

ويعيب رسل على الماركسية تخلفها فى مجال متابعة التحليل النفسى الحديث فقد بدا لماركس الذى ورث علم النفس العقلى من الاقتصاديين البريطانيين فى القرن الثامن عشر ان السعى وراء المال هو الهدف الطبيعى والمعقول لافعال الانسان السياسية . ولكن التحليل النفسى الحديث قد ألقى أضواء على الكثير من الجوانب اللاعقلية فى الانسان ، حيث نجد ان العقل لا يعدو أن يكون قاربا يطفو فى غير استقرار أو أمان على صفحة من اللوثة والجنون . ان العامل الاقتصادى فى رأى رسل لا يعدو أن يكون واحدا من العوامل الحاسمة التى تشكل مجرى الاحداث التاريخية والى

جانب الباعث الاقتصادى بجد عوامل الفخـــار والتنافس والسعى وراء القوة والسلطان • والخطأ الذى تقع فيه الماركسية يتلخص فى مبالغتها فى قيمة العامل الاول واغفالها التام للعوامل الثلاثة الاخرى التى تنبع من معرفتنا بالنفس البشرية •

ان البلاشفة يهاجمون النظام الديمقراطى الغربى ويتهمونه بالزيف وخيانة أحلام الطبقة العـــاملة ويعتقدون انهم لن يستطيعوا فى ظله أن يفوزوا بأغلبية المقاعد النيابية التى تكفل لهم تولى زمام الحكم • ولذلك فهم يحبذون استيلاء القلة المصممة العاقدة العزم من الشيوعيين فى الغرب الديمقراطى على مقاليد الحكم • ويعترف رسل بان هجوم الشيوعيين على النظم البرلمانية له ما يبرره ويصعب الرد عليه • والمحاجة البلشفية التى تساق ضد الديموقراطية البرلمانية كوسـيلة لتحقيق الاشتراكية تتسم بالقوة(١) وفى معرض حديثه عن توزيع السلطة فى كتـــابه « مستقبل الحضارة الصناعية » ، يردد رسل مثل هذا الشـــك فى جدوى النظام البرلمانى القـــائم فى ظل الرأسمالية ، فيكرر اتهامه له بانه ينهض على الزيف لانه من الناحية الاسمية يمنـح المواطنين الديموقراطية السياسية فى حين انه يخدم مصالح رجال الصناعة الاقتصادية • ويضيف رسل ان الحرية السياسية وهم لان الهيئات النيابية لو حاولت أن تسن من القوانين والتشريعات الجادة ما يلحق الضرر الفعلى بمصالح الرأسمالية ، لما ترددت فى التكشير عن أنيـابها ولسقط القنـــاع البرلمانى الزائف الذى تخفى وجهها الضارى وراءه ويجب علينا أن نلاحظ ان هذه اللهجة المتشككة فى صلاحية النظام الديموقراطى البرلمانى قد اختفت اختفاء تاما من كتابات برتراند رسل اللاحقة • صحيح انه كان شديد الاقتنـــاع بصـــلاحية الديموقراطية منذ مطلع حياته السياسية ، ولكنه كان على قدر من العطف على موقف الشيوعيين واليساريين المتشكك فى جدوى النظام البرلمانى • والتغير الواضح الذى طرأ على تفكيره السياسى انه تخلى فيما بعد بشكل قاطع ونهائى عن موقفه العاطف على هجـوم الشيوعيين على الديموقراطية البرلمانية• وسنرى هذا التحول بجلاء عندما نعرض لكتابات رسل اللاحقة التى تتضمن دفاعا عن الديموقراطية •

ومما يدلنا على تأصل الروح الديموقراطية الليبرالية فيه منذ فجر حياته السياسية انه كان يعترض على هذه المبررات التى يسوقها البلاشفة

---

(١) نفس المرجع ص ٩١ •

لاقامة ديكتاتورية والاستيلاء مع الحـــكم عن طريق الدم ، وسـحق الرأسماليين اعداءهم حتى لا يحولوا بينهم وبين تحقيق الاشتراكية • ففى عـام ١٩٢٠ كتب ينبه الى الاخطار الداهمة التى تكتنف الصراع الطبقى الذى يبشر الشيوعيون به ويحبذ الانتقال السلمى الى الاشتراكية • كتب يقول انه يعتقد ان اسـتيلاء الاقلية الشيوعية بالقوة على الحكم فى ظل النظام البرلمانى أمر بعيد المنـال من ناحية وانه قد يكون مصدرا عميما للشرور من ناحية أخرى فاستيلاء الاقلية الشيوعية على الحكم يقتضى ولاء القوات المسلحة التام لها • وهذه مسألة بعيدة الاحتمال ، بل ان الانقسام المتوقع فى صفوف القوات المسلحة سيفضى بطبيعة الحال الى مجازر أهلية رهيبة • وبفرض ان الاقلية الشيوعية الحـاكمة ستتمتع بتأييد القوات المسلحة التام لها ، فليس هناك ما يمنع من أن يقـوم عامة الناس باثارة الشغب والفتن والاضطرابات مما يعرض البلاد لاخطار الحرب الاهلية مافى ذلك شك • لقد نجحت تجربة استيلاء الاقلية على الحكم فى روسيا نظرا لظروف روسيا الخاصة ، فقد رحبت أغلبية الناس فيها بالحكم الشيوعى الجديد رغم كراهيتها للمبدأ الشيوعى لان روسيا خرجت من الحرب الاولى وقد أصابها الاعياء والتدهور الشديد• وتولى البلاشفة الحكم وهم يلوحون بغصن الزيتون • ولن يتكرر هذا الوضع بطبيعة الحال فى البلاد الغربية• ويرى رسل ان الحل الامثل هو الانتقال الى النظام الاشتراكى عن طريق الديموقراطية البرلمانية • صحيح انه حل بطىء ولكنه مضمون العواقب •

ويدعو رسل الاقليـات الشـيوعية فى الغرب الى نبذ الحض على الصراع الطبقى الدموى بالاضافة الى نبذ الثورة العـالمية التى بشر بها ماركس لان هذه الثورة ستطيح حتما بالكيان الحضارى القائم ، وستلطخ الارض بحمامات الدم • كما انه يطالبها بأن تبدأ العمل فى صبر وأناة لاقناع غالبية السكان بسلامة الهدف الاشتراكى • وعنـدما يأتى اليوم الذى تقتنع فيه الاغلبية بالمبدأ الاشتراكى سيكون التخلص من الرأسمالية سهلا وميسورا ولن تتكبد الانسانية التضحيات الغالية التى قد تتضاءل المكاسب بجانبها ، وخاصة لان المكاسب غير مضمونة فهذا شأن السياسة دائما • ويتساءل رسل قائلا : لو فرضنا ان الاقلية الشيوعية العـاقدة العزم قد استطاعت بالفعل أن تقيم الحكم الذى تريده فما الضمان انها لن تتحول بدورها الى سلطة بيروقراطية باغية مستبدة لها امتيازات وقف عليها تميزها عن سواد الشعب ؟ وبسبب هذا التخوف يرى رسـل ان الحل السليم للانتقال الى الاشتراكية هو التوعية فى شتى المجالات ، وفى

مجال التعليم بوجه خاص . فالتوعية وزيادة الذكاء هما الضمان الوحيد لحماية الشعب من التضليل ووقايته من الاحابيل . ان الماركسية يجانبها الصواب عندما تظن ان المال وحده هو مصدر كل الشرور فحب السلطان مصدر عظيم للشر كذلك لا تتنبه الماركســية اليه . « والماركسـيون لم يدركوا بالدرجة الكافية ان حب السلطان باعث له قوته ومصدر عظيم للظلم متل حب المال تماما » (١)

ورغم اتفاق رسل مع أهداف الشيوعية النهائية الا انه يقول « اننى أجد نفسى مضطرا الى رفض البلشفية لسببين : (أولا) لان الثمن الذى يجب على الانســانية أن تدفعه لتحقيق الشيوعية بالطرق البلشفية ثمن باهظ وفظيع (ثانيا) لانى لا أعتقــد حتى بعــد دفع الثمن ، ان مايزعم البلاشفة انهم يبتغونه سيتحقق» . (٢) والسبب فى هذا انه لايرى ضمانا يمنع البيروقراطية المستغلة فى ظل النظام البلشفى من أن تحل محل طبقة الرأسمالية المختفية .

لقد كان الياس فيما مضى يصيب برتراند رسل عندما يستعرض حلولا تكفل تحقيق الاشتراكية بغير أســاليب البلاشفة أما اليوم فثقته برسوخ الديموقراطية البرلمانية وأصالتها لا تتزعزع . ان جوهر المشكلة عنده كان ولا يزال ان الفرد ممسوخ ومضيع فى العصر الحديث ولابد له من استرداد كرامته ومكانته . ويرى رسل ان هناك بلاءا على الانسان أشد خطرا من البلاء الاقتصادى الذى ينسب اليه الماركسيون كل الشرور . ويتلخص هذا البلاء الاكبر فى الظلم وتوزيع السلطة . «واذا تعين على ان اختار شرا اعتبره أعظم الشرور السياسة جميعا ، فسأختــار الظلم فى توزيع السلطة (٣) ويضيف رسل انه بفرض ان النظام البلشفى سيقيم عدالة اقتصادية بالفعل فانه لم يقم عدالة فى توزيع السلطة ، وسيستمر تركيزها فى أيدى حفنة من موظفى الدولة التى لن تتخلى عنها بحال من الاحوال ، ولن تفرط فيها الا اذا اضطرت الى هذا . واذا كانت روسيا مضطرة بحكم ظروفها الى التضحية بالفرد فى سبيل الدولة فانه ليحز فى نفسه انه لم يبدر من زعماء البلاشفة الذين احتك بهم فى عــام ١٩٢٠ ما يدل على أسفهم لهذا الوضع . وهــذا بالذات مايدعو رســل الى يومنا الراهن الى المطــالبة بضرورة التوزيع العادل للسلطة (أى بالديموقراطية السياســية) لضــمان عــدم تركيز هذه السلطة فى أيدى قلة من

---

(١) نفس المرجع ص ٩٢ .   (٢) ص ١٠٧ .

(٣) ص ٢١٠ .

البيروقراطيين ، والى المطالبة كذلك بتوفير الاستقلال الذاتى وأسباب الحكم المحلى فى الصناعة « فالحكم المحلى فى الصناعة شرط لا غنى عنه فى المجتمع الصالح » ولن تتحقق هذه التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية طفرة واحدة ، بل بالتدريج وبتوفير جو السلام اللازم لها ولهذه الاسباب فانه رغم اعترافى بضرورة البلشفية فى روسيا بل وفائدتها الا انى لا أحب أن أراها تنتشر أو أن أشجع الاحزاب التقدمية فى الامم الغربية على تبنى فلسفتها(١) ٠

كان هذا رأى رسل فى الماركسية عام ١٩٢٠ ، فهل طرأ عليه تغيير؟ والجواب عن هذا انه لم يطرأ على رأيه سوى تغيير واحد ٠ وهو انه لو أعاد كتابة العبارة الاخيرة فى السنوات اللاحقة لما كان هناك أدنى شك فى انه سيحذف قوله : «ورغم اعترافى بضرورة البلشفية فى روسيا بل فائدتها٠٠ » لان البلشفية التطبيقية على يد لينين بوجه عام وستالين بوجه خاص قد غمرت قلبه بالحزن واليأس معا ، كما انها أساءت اليه أكثر مما أساءت النظرة الماركسية ٠

وفى مقال كتبه رسل بعنوان « دفاع عن قضية الاشتراكية ونشره عام ١٩٣٥ ضمن مجموعة مقالات تحمل اسم « فى مدح الكسل » نجده يدافع دفاعا مجيدا عن الاشتراكية ، ولكنه لا يريد للاشتراكية الغربية أن تلغ فى الدم مثلما فعلت الاشتراكية السوفيتية ٠ « وطالما ان التبشير بالاشتراكية يجد تعبيرا عنه فى لغة ماركس فان الماركسية ستثير عدواة وسخطا قويا لدرجة ان نجاحها فى البلاد الغربية المتقدمة يصبح بعيد الاحتمال يوما بعد يوم ٠ وستثير الماركسية بطبيعة الامر معارضة الاغنياء على أية حال ولكن هذه المعارضة كانت ستكون أقل ضراوة وانتشارا (لو ان الاشتراكية وجدت سبيلا للتعبير عنها غير أسلوب ماركس) » ٠

« ومن ناحيتى رغم اقتناعى الراسخ بالاشتراكية شأنى فى ذلك شأن أشد الماركسيين تحمسا فانى لا أعتبر الماركسية انجيلا يبشر بالانتقام البروليتارى ، ولا حتى وسيلة لتحقيق العدالة أساسا ، فأنا أنظر اليها باعتبارها أساسا ملائمة للانتاج الآلى تتطلبها دواعى العقل واعتبار انها تهدف لا الى زيادة سعادة الطبقة العاملة وحدها بل الى سعادة الجميع باستثناء قلة ضئيلة من الجنس البشرى ٠ واذا كان لا يمكن تحقيقها من

---

(١) نفس المرجع ص ١١٣ ٠

غير تقلبات عنيفة فمرد هذا أساسا الى العنف الذى يتصف به المدافعون عنها • ولكن شيئا من الامل لا يزال يراودنى فى أن يتمكن الدفاع عنها بأسلوب أكثر سلامة من التخفيف من حدة المعارضة وجعل الانتقال الى الاشتراكية أقل دمارا (١) •

ويرى رسل أن تحقيق الاشتراكية يتطلب أمرين • أولهما : اقتصادى يتلخص فى الملكية العامة لوسائل الانتاج وثانيهما : سياسى ويتلخص فى اشتراك جميع الناس فى ادارة دفة الحكم أى بارساء قواعد الاشتراكية على أساس ديموقراطى •

« وطالما انه ليستهناك سيطرة شعبية، فلايوجد سبب يدعو الى أن نتوقع من الدولة أنتجرى مشاريعها الاقتصادية الا من أجل ثرائها الخاص• ولذلك سيتخذ الاستغلال صورة جديدة لا أكثر • ويجب تبعا لهذا أن نقبل الديموقراطية كجزء من تعريف النظام الاشتراكى(٢) » • ويدل هذا بوضوح ، على ان رسل يرفض ديكتاتورية الطبقة العاملة ويريد ارساء قواعد الاشتراكية على أساس من الديموقراطية السياسية •

ويعتقد رسل ان دعوة ماركس الى الصراع الطبقى الدموى تنفر منها الطبقات غير العمالية التى ينبغى على الاشتراكية أن تكتسب صداقتها وتفيد منها • فالفهم الصحيح للاشتراكية انها تعود بالخير العميم لا على الطبقات الكادحة وحدها بل على المجتمع كله باستثناء فئة الرأسماليين القليلة •

والفوائد التى تجنى من ارساء قواعد الاشتراكية ، بفرض انه يمكن تحقيقها دون حرب ثورية مدمرة ، متنوعة للغاية ، ولا تقتصر بأى حال من الاحوال على الطبقة الكادحة(٣) • « ويرفض رسل أن تنهض الاشتراكية على أساس الصراع الدموى » وجميع المزايا التى أنسبها الى الاشتراكية تفترض سلفا ان تحقيق الاشتراكية سيتم عن طريق الحث والاقناع وانها لا تتطلب أكثر من تلك القوة التى قد تلزم فقط لالحاق الهزيمة بفئة قليلة من الساخطين(٤) ويكرر رسل فى هذا المقال اصراره على أن يتم الانتقال الى الاشتراكية عن طريق غير دموى مستندا الى الاسباب التالية:ـ

---

(١) « فى مدح الكسل » ص ١٢١ ــ ١٢٢ •

(٢) ص ١٢٣ •

(٣) ص ١٢٤ •

(٤) ص ١٢٥ •

١ ـ لان الطريق الدموى قد يفشل

٢ ـ لان الصراع الدموى قد يتسبب فى دمار شامل ٠

٣ ـ لانه من المحتمل أن ينسى الاشـــتراكيون المنتصرون فى هذا الصراع أهدافهم الاصيلة التى قاموا بثـورتهم من أجلهـــا ، وأن يقيموا ديكتاتورية عسكرية بدلا من اقامة النظام الاشتراكى المرجو ٠

ويرى رسل المتشكك ـ وفى هذا نجده يختلف مع الماركسية ـ ان الايمان بالاشتراكية لا يقتضى اعتناق الالحاد ٠ وتتعارض الاشتراكية فى بعض النواحى مع العادات القديمة ٠ وهى لذلك تثير معـــارضة مشبوبة لا يمكن التغلب عليهـــا الا بالتدريج ٠ وقد أصبحت الاشتراكية تقترن بالالحاد وحكم الارهاب فى أذهان مناهضيها ٠ ولكن ليس للاشـــتراكية ثمة علاقة بالدين فهى مذهب اقتصادى ٠ وقد يكون الاشتراكى مسيحيا أو مسلما أو بوذيا أو واحدا من عبـدة براهما دون أن يكون فى ذلك أى تناقض منطقى أما بالنسبة لحكم الارهاب فقد شاهد العالم الحديث عهود ارهاب كثيرة يقف معظمها فى صف الرجعية ٠ « وحينما تجىء الاشتراكية كثورة ضد أحد هذه العهود فيخشى انها سترث شيئا من ضراوة النظام السابق لها ولكنى أعتقد ان قضية الاشتراكية يمكن صياغتها ، عن طريق التحمس والصبر معا ، بحيث تقنع ما يربو بكثير على نصف الشعب فى البلاد التى لا تزال تسمح بقدر من الحرية الفكرية وحرية القول » ٠

ويرى رسل انه اذا أمكن كسب جانب سواد الشـــعب مع قضية الاشتراكية عن طريق الحث والاقناع ، فسيسهل حينذاك بل يحق تصفية الاقلية التى تعن لها المقاومة باستخدام العنف٠ « واذا عن للاقلية ـ عندما يحين ذلك الوقت أن تلجأ الى استخدام العنف غير المشروع ، فسيتعين على الاغلبية بطبيعة الحال أن تستخدم العنف للقضاء على المتمردين ٠ ولكن اذا تم الجهد المبذول سلفا فى الحث والاقنـــاع بدرجة كافية فسيصبح التمرد أمرا ميئوسا منه الى الحد الذى ينكص معه أكثر الرجعيين غلوا عن محاولة القيام به ٠ واذا قاموا به فسينتهى الامر بانهزامهم بسهولة وسرعة بشكل لا يسمح بحكم الارهاب(١) ٠

وقبيل الحرب العالمية الثانية شاع بين المفكرين رأى ينـــادى بأن

---

(١) نفس المرجع ١٥٤ ٠

الشيوعية هى البديل الوحيد للفاشية ، وان من لا يقبل الماركسية يمكن الفاشـــية فى واقع الامر من تثبيت أركانها · ولكن هذا الرأى لا يروق رسل الذى يرفض الماركسية والفاشية معا · ففى مقال له بعنوان سيلا وكبربيديس (أو الشيوعية والفاشية) نراه ينبذ هذا الرأى نبذا قاطعا مبينا الاسباب التى تحدو به الى رفض كلا الشيوعية والفاشية وموضحا أوجه الشبه بين هذين المذهبين رغم كل ما بينهما من تعارض · وفى هذا المقال يعدد رسل الأسباب التى تدعوه الى رفض الشيوعية فيمايلى :ـ

١ ــ انه لا يدين بالمذهب المادى رغم انه يناصب المثـــالية العداء الشديد » وأنا لا أومن بأن هناك ضرورة جدلية فى التغير التاريخى · وقد استقى ماركس هذا الاعتقاد من هيجل دون أن يأخذ معه الاساس المنطقى الوحيد الذى ينبنى عليه ، وأعنى بذلك أولوية الفكرة كان ماركس يعتقد ان المرحلة التالية فى التطور الانسانى يجب أن تنطوى بمعنى ما على التقدم « وأنا لا أجد سببا يدعو الى هذا الاعتقاد » (١)

٢ ــ يرفض رسل نظرية ماركس فى القيمة وفائض القيمة، ويقول فى هذا الصدد : «النظرية القائلة بأن القيمة الاستبدالية للسلعة تتناسب مع الجهد المبذول فى انتاجها التى استمدها ماركس من ريكاردو ، وقد أثبتت نظرية ريكاردو فى الايجار خطأها ، ونبذها سائر الاقتصاديين غير الماركســيين منذ أجل طويل · وتعتمد نظرية فائض القيمة على نظرية مالتوس فى السكان التى يرفضهـــا ماركس فى مكان آخر · ونظريات ماركس الاقتصادية لا تشـكل كلا منسجما من النـاحية المنطقية ولـكنها تنهض على التناوب فى رفض وقبول نظريات قديمة كما يحلو له ، بحيث يخدم أغراضه فى الهجوم الذى يشنه على الرأسمالية » (٢)

٣ ــ يقول رسل انه من الخطر أن تعتقد ان انسانا واحدا (أى ماركس) منزه عن الاخطاء لان هذا يفضى الى مبدأ عبـــادة السلطة الذى يتنافى مع الروح العلمية ·

٤ ــ وكما سبق أن ذكرنا يرفض رسل الشيوعية لانهـــا غير ديموقراطية ، وفى رأيه ان ديكتاتورية البروليتاريا لا تعـــدو أن تكون

---

(١) نفس المرجع ص ١٠٩ ــ ١١٠ ·
(٢) ص ١١٠ ·

سيطرة قلة حاكمة أوليجاركيه ستعمل على خدمة مآربها متجاهلة المصلحة العامة . وليس هنـــاك ما يمنعها من ذلك سوى الخوف من الرقابة أو المعارضة العامة التى يمكنها أن تثير القلاقل أو تطيح بسلطانها . ويرى رسل انه طالما ان هذه الطبقة الحـاكمة الاوليجاركية تضمن ولاء القوات المسلحة لها ، فليست هناك قوة فى العالم تحول بينها وبين قضاء مآربها. والافتراض بأنها ستعمل دائما من أجل المصلحة العامة لا يعدو أن يكون مجرد متالية سخيفة ، كما انه يتعارض مع النفسية السياسية الماركسية.

٥ ــ يعترض رسل على الشيوعية لانها تقضى على الحرية ، وخاصة الحرية الفكرية ، وفى ظل مثل هذا النظـام سرعان ما يصبح التقـدم مستحيلا لان طبيعة البيروقراطيين مجبــولة على الاعتراض على كل تغيير اللهم الا الزيادة فى سلطانهم(١) » .

ولكن يضيف ان هذين العيبين الاخيرين (الرابع والخامس) ليسا فى صلب الماركسية لان مفهــوم ماركس للاشتراكية لم يكن يتعــارض مع المبادىء الديموقراطية .

٦ ــ تتضمن الماركسية تمجيد العمـل ، والعمال اليدويين بشــكل ينفر منها الذين يقومون بالاعمال الذهنية، فى حين ان التنظيم الاشتراكى فى مسيس الحاجة الى خدماتهم . ويرى رسل ان الحل الصحيح يتلخص فى كسب عطفهم على قضية الاشتراكية لا تنفيرهم منها .

٧ ــ تحبذ الماركسية الصراع الدموى .

٨ ــ تقوم النفسية الشيوعية على الحقد والكراهية . ولا يمكن أن تكون الكراهية أساسا سليما لبناء مجتمع صحى .

وقد كرر رسل فيما بعد اعتراضاته السياسية والاقتصـادية على الماركسية فى مقال له بعنوان « لماذا لست شيوعيا » نشر عام ١٩٥٦ فى كتاب «صور من الذاكرة ومقالات أخرى» . بدأ رسل مقاله بقوله : «هناك سؤالان لا بد من طرحهما فيما يتعلق بأى مذهب سياسى .

(أ) هل مبادىء هذا المذهب النظرية صحيحة ؟

(ب) هل من المحتمل أن يزيد تطبيق المذهب سعادة الانســان ؟ ــ وفى اعتقادى ان المبــادىء النظرية التى تنطوى عليهما الشيوعية زائفة

---

(١) نفس المرجع ص ١١١ .

كما اعتقد ان تطبيقها العملي سيسبب زيادة الشقاء الانساني زيادة لا يسبر غورها .

« واعتراضاتي على ماركس نوعان : أولهما : انه كان مشوش الفكر وثانيهما : ان فكره يكاد يستلهم الكراهية تماما . وهو يصل الى مبدأ فائض القيمة الذى يهدف الى التدليل على استغلال الكادحين في ظل الرأسمالية (أ) عن طريق قبول نظرية السكان لمالثوس سرا في حين يرفضها ماركس واتباعه علانية (ب) عن طريق تطبيق نظرية القيمة لريكاردو على الاجور دون تطبيقها على السلع المنتجة .

ومبدأ ماركس القائل بان الصراع الطبقى هو الذى يحرك كل الاحداث التاريخية مبدأ طائش متسرع ، وتطبيق خاطىء لبعض المعالم الواضحة في انجلترا وفرنسا منذ مائة عام على مجرى التاريخ الانسانى . كما ان ايمانه بوجود قوة كونية اسمها « المادية الجدلية » تحكم التاريخ الانسانى حكما مستقلا عن الارادة الانسانية لا يعدو أن يكونا اسطورة»

ويتناول رسل الفاشية فى مقاله المسمى « سيلاوكيربيدس » فيقول ان كراهيته لها أعمق فى جذورها من كراهيته للشيوعية . « وبوجه عام فانى متفق مع هدف الشيوعيين وخلافى معهم ينحصر فى الوسيلة لا الغاية . أما فى حالة الفاشيين فأنا أكره غايتهم بنفس الحدة التى أكره بها وسيلتهم » فالفاشية تناصب الديموقراطية العداء ، وتنهض على القومية وعلى الرأسمالية وتتمتع بمساندة قطاعات الطبقة المتوسطة التى يلحق بها الضرر من جراء التطورات الاقتصادية والصناعية الحديثة والتى تتوقع أن يلحق بها ضرر أكبر اذا قدر للاشتراكية أو الشيوعية أن ترسى أسس نظامها . والفاشية تفوق الشيوعية فى عدائها للديموقراطية . ففى حين ان الشيوعية تنادى من الناحية النظرية على أقل تقدير بان الفترة الديكتاتورية مؤقتة وسينتهى الامر بها الى الاختفاء نجد أن الفاشية لاتعترف بمبدأ الديموقراطية أصلا ، لا فى الوقت الحاضر ولا فى المستقبل «وهى لاتقبل توفير أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس باعتباره مبدءا سليما فى السياسة ، بل تختار أفرادا وأمما وطبقات معينة باعتبارهم أفضل الافراد والامم والطبقات ، وباعتبارهم انهم وحدهم

جديرون بالاهتمام ٠ أما البقية فالقوة تتكفل بارغامها كى تخدم مصالح المختارين »

وتتشابه الفاشية مع الاشتراكية رغم كل مظاهر الاختلاف بينهما ٠ فقد استمدت الفاشية من الاشتراكية فكرة التخطيط الاقتصادى والزيادة فى سلطان الدولة ، ولكنها لا تهدف تحقيق الرفاهية فى العالم بل تهدف خدمة مصلحة الطبقات العليا والوسطى فى البلد التى تتحكم الفاشية فى مقدراتها السياسية وذلك عن طريق استغلال سائر الموارد الطبيعية والجهود البشرية فى كافة أنحاء العالم ٠

والالتجاء للحرب هو نتيجة حتمية للفاشية بسبب اعتمادها على مؤازرة الصناعات الثقيلة ٠ فالصناعة الثقيلة على مستواها القومى ــ وخاصة صناعة الحديد والصلب ــ تشكل دافعا قويا الى الاشتغال بالحرب بحكم الصلة الوثيقة بين هذه الصناعة وانتاج العتاد الحربى ٠ والصناعة الثقيلة هى أكثر قوة فعالة تؤازر النازيين ، وخاصة صناعة الصلب والكيماويات ٠ والصناعة الثقيلة المنظمة على المستوى القومى هى أعظم أثر يمهد للحرب فى الوقت الحاضر ٠ (واذا وجدت فى كل بلد متمدين حكومة تحنى رأسها أمام مصالح الصناعة الثقيلة ــ كما هو الحال الى حد كبير ــ فلن يكون هناك مناص من اشعال نار الحرب قبل مضى وقت طويل » ٠

والفاشية ليست فلسفة منظمة ، ولا هى مجموعة معتقدات مركبة كما هو الحال مع النظرية الليبرالية فى التجارة الحرة (دعه يعمل) أو الاشتراكية أو الشيوعية بل هى أساسا احتجاج عاطفى من جانب الطبقة البورجوازية الصغيرة (كأصحاب المحال التجارية الصغيرة التى أصابها الضرر من جراء التطورات الاقتصادية الحديثة ، كما أنها احتجاج عاطفى من جانب كبار رجال الصناعة الذين تلعب برءوسهم شهوة القوة والسلطان الى درجة جنون العظمة وهذا ما يدعو رسل الى أن يقول : « ليست هناك فلسفة فاشية بل هناك مجرد تحليل نفسى » ٠

ويعتبر رسل أن هناك بعض الوشائج الاساسية التى تربط الفاشية بالشيوعية ٠ فكلاهما محاولات تبذلها اقلية حتى تصوغ الشعب عن طريق القوة والقسر فى قالب يتمشى مع نمط سابق التصور

وكلا المذهبان ينظران الى الشعب كما ينظر انسان الى المواد التى يزمع استخدامها فى صنع آلة. ويطرأ على المواد تغيير كبير، ولكنه تغيير يتفق مع أغراضه ، ولا يتفق مع أى قانون للتطور كامن فيها » .

والفاشيون والشيوعيون – على حد سواء – الذين يتمثلون فى أذهانهم صورة المجتمع بوجه عام – يشوهون الافراد ويحرفونهم حتى يتلاءم هؤلاء الافراد فى اطار نمط معين . « وأنا لا أعتقد ان مثل هذه النظرة التى تتجاهل تماما نوازع الافراد التلقائية يمكن تبريرها من الناحية الاخلاقية أو يمكنها أن تصيب النجاح من الناحية السياسية على المدى البعيد والنتيجة الحتمية لصب الفرد فى قوالب مفتعلة هى خلق القسوة أو عدم الاهتمام بالحياة ، وربما كليهما بالتناوب » – « وستكون الحكومة فى كلتا الحالتين فى أيدى أناس غلاظ قساة يختفى فيهم حب القوة والسلطان وراء قناع الرغبة فى اقامة نوع معين من المجتمع» .

ويرى رسل أن الفاشية والشيوعية يتعارضان مع النمو الطبيعى للافراد . « والحاجة النفسية الاخيرة التى ندافع بها عن الديموقراطية وعن الصبر هى ضرورة توافر عنصر النمو الطبيعى وترك الحرية للانسان ليفعل ما يحلو له، وضرورة توافرالحياة الطبيعية التى لا تخضع للتدريب، اذا أراد الناس ألا يصبحوا وحوشا قبيحة شائهة » .

واذا تركنا اعتراضات رسل الاقتصادية والسياسية على الماركسية، وجدنا أن الماركسية لا تروقه من الناحية الفلسفية البحتة ، وفى معرض حديثه عن كارل ماركس فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » يعترف باثر نظرية ماركس المعروفة باسم (التفسير المادى للتاريخ) عليه كما انه يصفها بانها عظيمة الاهمية والدلالة وخاصة من وجهة نظر مؤرخ الفلسفة . ومفاد هذه النظرية « أن السياسة والدين والفلسفة والفن فى أية فترة فى التاريخ الانسانى – من وجهة نظر ماركس – نتيجة للوسائل المتبعة فى الانتاج ، والى درجة أقل فى التوزيع . »

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية ص ٨١٣ .

وتنهض اعتراضات رسل ضد ماركس من وجهة النظر الفلسفية الصرفة على أمرين أن ماركس يهتم بأمر العالم أكثر مما ينبغي· « ويقتصر مدى نظره على هذا الكوكب وعلى الانسان فى هذا الكوكب وقد بات من الواضح منذ كوبر نيكس انه ليست للانسان الاهمية الكونية التى كان يضفيها على نفسه فيما مضى ولا يحق لانسان لا يستطيع أن يتمثل هذه الحقيقة أن يسمى فلسفته فلسفة علمية » ·

ويعيب رسل على ماركس كذلك تفاؤله المطلق الذى يبلغ حد الايمان بنوع من التفاؤل الكونى · واذا كان التفاؤل المطلق مستساغا فى القرن التاسع عشر فليس له محل فى القرن العشرين «ويصاحب هذا الاقتصار المحدود على شئون الارض استعداد للايمان بالتقدم كقانون عام · وكان هذا الاستعداد ظاهرة يتميز بها القرن التاسع عشر تجلت فى ماركس كما تجلت فى معاصريه » ويصف رسل أحلام ماركس بشأن المجتمع السعيد المغرقة فى الاخيلة العذبة بأنها مثل أعلى بعيد المنال مثل عودة المسيح ثانية » ·

وخلاف رسل مع ماركس قديم ويرجع الى نهاية القرن التاسع عشر· « لقد كنت أختلف دائما مع ماركس ونشرت أول نقد لى أهاجمه فيه عام ١٨٩٦ ولكن اعتراضاتى على الشيوعية الحديثة أعمق فى غورها من اعتراضاتى على ماركس فأنا أجد أن الكارثة تتمثل فى نبذ الديمقراطية بالذات» (١) « لقد كان مذهب ماركس سيئا بدرجة كافية ولكن التطورات التى مر بها على يدى لينين وستالين جعلته أشد سوءا » (٢) ان دعوة ماركس أساسا لا تتنافى مع الفكر الديمقراطى فقد كان يتنبأ باقامة ديكتاتورية الطبقة العاملة عندما تنضج البروليتاريا وتصبح السواد الاعظم من السكان · ولكن ديكتاتورية البروليتاريا السوفيتية قامت فى مجتمع أغلبه من الفلاحين وانتهى الامر بتركيز السلطة فى يد حفنة من أعضاء الحزب الشيوعى ثم أصبحت فيما بعد وقفا على رجل واحد هو جوزيف ستالين ، « وحكم ستالين بالاعدام باعتباره البروليتارى الوحيد الواعى طبقيا على ملايين الفلاحين عن طريق تجويعهم ، وعلى ملايين آخرين بالاشغال الشاقة فى معسكرات الاعتقال · وقد بلغ به الامر أنه أصدر مرسوما بأن تصبح قوانين الوراثة من الآن فصاعدا مختلفة عما كانت

---

(١) ، (٢) صور من الذاكرة ومقالات أخرى ص ٢١٢ ·

عليه ، وأن على الخلية الجنسية أن تطيع المراسيم ولا تطيع أوامر القسيس الرجعى منديل ٠

وفى مقال كتبه رسل بعنوان « الافـكار التى أضرت بالانسانية » نشره ضمن كتابه المعروف باسم « مقالات غير شائعة » نجده يهـاجم النفسية الماركسية ويحملها مسئولية الكثير من مظاهر الشر الذى يستبد بالعالم الحديث ٠ يبدأ رسل مقاله بقوله أن النوازع الشريرة مسئولة فى أغلب الاحيان عن الحـاق الاذى بالجنس البشرى أكثر من المعتقدات أو الآراء الفاسدة ٠ ولكن الافكار والمبادىء التى تلحق الضرر هى بوجه عام وان لم تكن دائما أقنعه تختبىء ورائها العواطف الجامحة الشريرة»(١) ويضيف رسل قائلا انه من السهل على الانسـان أن يعدد الامثلة التى تثبت أن الآراء التى تبرر القسوة تنبع من نوازع الانسـان الشريرة الضارية ٠ ولكن هذا لايعنى أن النوازع الشريرة هى دوما مصدر قسوة الانسان ، ففى بعض الاحيان نجد أن المعتقدات ، وخاصة القديمة منهـا والمنظمة والمتجسدة فى تنظيمات ، تشكل عائقا من شأنه أن يقف حجر عثرة فى سبيل التقدم الانسانى ٠

ويعتبر رسل أن الدين مسئول عن الـكثير عن مظاهرة القسوة فى هذا العالم ، وخاصة اذا اتخذ صورة قهر البدن كما تتجلى فى المسيحية ٠ فالقديسون الذين يقهرون أبدانهم ويحرمون أنفسهم من لذات الحيـاة وأطاييبهـا لا يحتفلون بلذة ما عدا اللذة العقليـة أو الذهنية ٠ ومن أهم اللذات العقلية تلك اللذة التى يجنيها المؤمن وهو يتأمل عذاب الـكافرين الابدى فى الجحيم ٠ وعيب قهر البدن فى نظر رسل أن من يمارسه لايتنبه الى أن اللذات العقلية نفسها لا تخلو من ضرر جسيم فى بعض الحـالات ٠ صحيح أن أفضل اللذات ما كان ذهنيا ولكن أجسمها خطرا ما كان ذهنيا صرفا كذلك مثل اللذة العارمة التى كان ترتيليان يحس بهـا وهو يتأمل من علياء فردوسه الخطاة وغير المؤمنين وهم يصلون بنار الجحيم ٠ ويعتقد رسل أن انـكار اللذات الحسـية لم يسـاعد فى زيادة مشـاعر الشفقة والتسامح » ٠ فعندما يعذب انسان نفسه يشـعر أن هذا العذاب يمنحه الحق فى تعذيب الآخرين » (٢) ٠

---

(١) ، (٢) « مقالات غير شائعة » ص ١٨٩ ٠

وزغم أن أشكال قهر البدن القديمة قد اندثرت أو كادت بسبب ضعف نفوذ المسيحية فى الاوقات الحديثة ، فاننا نجد أن أشكالا جديدة لقهر البدن قد ظهرت الى الوجود « وقد أنتج العالم صورا جديدة ذات خطر ، يتخذها نفس النمط النفسى القديم • فقبل أن يصل النازيون الى الحكم كانوا يحيون حياة شاقة تنطوى على الكثير من التضحية بالراحة واللذة الراهنة ايمانا منهم بالحياة المرهقة المضنية، وبحكمة نيتشه التى تتمثل فى ضرورة توطين الانسان نفسه على الشدائد • واستمر شعارهم حتى بعد وصولهم الى الحكم « المدافع لا الزبدة » منطويا على التضحية باللذات الحسية من أجل اللذات الذهنية التى تتضمن النصر فى المستقبل ـ وهى فى واقع الامر ، نفس اللذات التى بدخل بها ابليس ميلتون العزاء على نفسه وهو يصطلى بعذاب النار فى الجحيم • ونفس هذه العقلية موجودة بين الشيوعيين الجادين الذين ينظرون الى الترف على أنه شر • والعمل الشاق على أنه الواجب الاساسى والفقر العام الشامل على أنه الوسيلة لتحقيق الفردوس الارضى • **والجمع بين قهر البدن والقسوة لم يختف بتخفيف قبضة التزمت المسيحى** • ولكنه اتخذ أشكالا جديدة تناصب المسيحية العداء •

ويرى رسل أن هذا النمط النفسى لا بد وأن تكون له بعض الجذور المتأصلة فى الطبيعة البشرية والدليل على ذلك الاشكال العديدة التى يتخذها هذا النمط النفسى• ويرد رسل الكثير من مظاهر القسوة الى تأصل الشعور بالذنب فى الانسان المصحوب بالخوف من عقاب الله الانتقامى « وأنا لا أستطيع أن أصدق كما يفعل بعض المحللين النفسيين أن الشعور بالذنب كامن فى طبائعنا البشرية ولكنى أومن أنه نتاج الطفولة المبكرة للغاية • وفى اعتقادى أنه اذا أمكن اجتثاث هذا الشعور فان كمية القسوة فى العالم ستقل بشكل عظيم للغاية » •

وبما أن جميع البشر يحسون بأنهم خطاة فانه يحلو لاى قطاع منهم (زحلقة) العقاب على الآخرين • والتصور أن الخلاص من نصيبه ، وأن اللعنة من نصيب الآخرين • هذا ما يدين به اتباع كالفين • والشيوعيون يعتنقون نظرة شبيهة بهذا • ونحن لا نختار عند المولد بين أن نولد رأسماليين أو من البروليتاريا واذا ولدنا من بين البروليتاريا فنحن من المختارين ، أما اذا ولدنا بين الرأسماليين فلسنا من المختارين • ونحن دون

خيار من جانبنــا مقدر علينــا عن طريق الحتمية الاقتصــادية أن نكون فى الجانب المصيب فى احدى الحالتين وفى الجانب المخطىء فى الحالة الاخرى ٠ لقد تحول ابو ماركس الى المسيحية عنــدما كان ماركس طفــلا صغيرا ٠ ويبدو أن بعض المسلمات على الاقل التى لابد أنه قد آمن بها طرحت الثمار فى نفسية ابنه » ٠

ومن بين الافكار التى يعتقد رسل أنها ضارة بالانسان فكرة الزهو والفخار سواء كان فى الجنسية أو العنصر أو الجنس أو الطبقة أو العقيدة ٠ وفى رأيه أن ظاهرة التحيز تختفى بسرعة من العالم الغربى فى حين أنها تظهر فى عنفوانها فى الاتحاد الســـوفيتى ٠ فالفرص المتــاحة لابن البروليتارى والمزايا التى يستمتع بها تفوق الفرص والمزايا المتاحة لابن البورجوازى ٠

ومن أشد الاوهام ضررا على الانسانية أن يدخل فى روع انسان أنه مبعوث العناية الالهية أو أن يؤمن بأنه أداة خاصة لتنفيذ الارادة الالهية سواء كان هذا فى مجال الدين أو السياسة ، لأن مثل هذا الايمان يفضى حتما الى الاعتقاد بتفوق جانب من الانســانية وتميزه على سائر الأجناس وهو ما يعرف باسم « شعب الله المختار » تارة ، والمصير المحتوم الواضح تارة أخرى ، وعلى منطق المصير الواضح أن يقف فى صفه ، لأن الحكمة والحصافة وبعد النظر يقتضيمنا هذا « لقد كان كرومويل مقتنعا بأنه معين من قبــل الله كأداة لتحقيق العــدالة المتمثلة فى القضــاء على الكاثوليك والاشرار ، وكان اندروجاكسون مبعوث القدر الواضـــح لتحرير أمريكا الشمالية من كابوس الاسبان الذين لا يرعون حرمة يوم عبادة الرب واليوم نجد أن سيف الرب قد وضع فى قبضة أيدى الماركسيين. وكان هيجل يعتقد أن الجدلية بمنطقها المحتوم قد وفرت التفوق والامتيـــاز لألمانيا ٠ ولكن ماركس قال : « لا ، ليس التفوق لالمانيا بل للبروليتاريا»٠ وهذا المبدأ وثيق الصلة بالمبادىء المبكرة المتمثلة فى فكرة « شعب الله المختار » و « المصير المحتوم » ٠ « وتظهر فكرة المصـــير الواضـــح » المناهضين لهذا المبدأ بمظهر الواقفين فى وجه المصير المحتوم ٠ وهو ينطوى على العبث ٠ فالعاقل هو من يسارع بالوقوف فى صف القدر المحتوم ، وليس فى وجهه ٠ ويقول رسل ساخرا أن اعتراضه الوحيد على هذا المبدأ هو « أنه يفترض معرفة الاغراض الالهية التى لايستطيع انسان عاقل أن

بزعمها لنفسه ، وانه من أجل تنفيذ هذه الاغراض يبرر القسوة التى لاتعرف الى الرحمة سبيلا والتى كانت ستوصم لو استمد برنامجنا وجوده من جذور دنيوية لاغير . انه لشيء طيب أن نعرف أن الله يقف بجانبنا . ولكنه أمر يدعو الى شيء من البلبلة والحيرة ان نجد عدونا على نفس القدر من الاقتناع بعكس ما نؤمن به » .

ويعتقد رسل أن كثيرا من البلاء يكمن وراء اقتناع الانسان بانه يؤدى رسالة من لدن الله « وايمان الانسان بأنه مبعوث الله هو احدى صور اليقين العديدة التى الحقت الضرر بالجنس البشرى» واعتقد ان التعليق الذى قيل عندما خاطب كرومويل الاسكتلنديين قبل أن يخوض موقعة دنبار ضدهم . « أتوسل اليكم فى احشاء المسيح أن تفكروا انكم قد تكونون مخطئين » ، قد يكون أحكم وأعقل ما قيل على الاطلاق . ولكن الاسكتلنديين لم يقتنعوا بما قال. ولذلك تحتم عليه أن يهزمهم فى المعركة . وانه لأمر يؤسف له أن كرومويل لم يوجه عين هذه الملحوظة الى نفسه مطلقا — ومعظم الشرور الجسيمة التى الحقها الانسان بالانسان ناجمة عن يقين الناس التام بصدد أمر لاينهض عليه دليل فى واقع الحال. ومعرفة الحقيقة أصعب ممايظن معظم الناس وتصرف انسان بعزم وتصميم لا يعرفان الرحمة اعتقادا منه أن الحقيقة حكر عليه لن يجر فى أعقابه غير الويلات والمصائب » .

وفى مقال آخر فى نفس الكتاب (مقالات غير شائعة) بعنوان « الفلسفة والسياسة » يلقى الفليسوف ضوءا على العلاقة التى تربط بين الفلسفة والسياسة فالفلسفة السيئة يترتب عليها نتائج عملية سيئة .

والمذهب التجريبى — كما يقول رسل — يرتبط بوجه عام مع الليبرالية . ولكن ليس هذا هو الحال دائما فقد كان هيوم محافظا من الناحية السياسية . والمثالية الفلسفية تقترن فى العادة بالمحافظة السياسية غير آن ت . ه جرين ليبرالى . « وقد كانت الفلسفة فى معظم البلاد المتمدينة فى معظم الاوقات أمرا للسلطات رأيها الرسمى فيه . واستمر هذا الوضع حتى وقتنا الراهن اللهم الا فى البلاد التى تسودها الديمقراطية الليبرالية . فالكنيسة الكاثوليكية تقترن بفلسفة توماس الاكوينى . والحكومة السوفيتية بفلسفة ماركس. وكان النازيون يؤيدون

المثالية الالمانية رغم أن درجة ولائهم لكانط أو فخت أو هيجل على التناوب لم تتضح بجلاء . والكاثوليك والشيوعيون والنازيون جميعا يعتبرون أن آراءهم فى السياسة العملية مرتبطة أوثق الارتباط بآرائهم فى الفلسفة النظرية والمذهب الليبرالى الديمقراطى فى نجاحه المبكر يتصل بالفلسفة التجريبية التى قام لوك بتطويرها » .

ويردد رسل فى هذه المقالة رأيا فى الدولة السوفيتية كان قد نادى به منذ ١٩٢٠ فى كتابه « تطبيق البلشفية ونظريتها » يتلخص فى وجود الكثير من أوجه الشبه بين الدولة البلشفية وجمهورية افلاطون وقد أفضى هذا الرأى الى اغضاب الشيوعيين والافلاطونيين على حد سواء . ويتهم رسل افلاطون الذى شيد مدينته الفاضلة على ضوء دستور اسبرطا، بالرجعية المفرطة التى لم ينتبه الناس الى خطرها عبر الاجيال المتعاقبة . « وقد بلغت مهارته الفنية على أية حال الحد الذى منع الليبراليين من أن يلاحظوا قط ميوله الرجعية حتى امداهم تابعاه لينين وهتلر بالشروح العملية » .

ويعرب رسل عن دهشته البالغة من أن الناس المهذبين يحملون كل هذا الاعجاب بجمهورية افلاطون فهى تهدف الى خلق الشجاعة فى القتال، وتتوسل الى ذلك بشتى الطرق. كفرض الرقابة على الأدب ، وتحريم شعر هوميروس باعتباره ضارا بالنشء فهو يجعل الابطال ينتحبون والآلهة تضحك كما أن الجمهورية تقضى بتحريم الدراما أيضا لانها تصور الاشرار والنساء وهى لا تسمح من الموسيقى الا ما يبعث الحمية والشجاعة والحماس فى نفوس النشء . وتلجأ حكومة افلاطون الاوليغاركية الى الخديعة فى سبيل تحسين النسل ، والى الكذب لاقناع عامة الشعب بأن هناك فارقا بيولوجيا بين الطبقات العليا والسفلى . ويعلق رسل على نظام افلاطون التوتاليتارى المستبد بقوله أن سعادة الناس أو تعاستهم فى ظل هذا النظام لا تهم لأن الامتياز امتياز الكل لا امتياز الاجزاء ، والكلام البديع عن الخير السرمدى يجعل فى الامكان تخدير القارىء حتى ينتهى به الامر الى قبول المبدأ المنادى بتولى الحكماء زمام الحكم ، وباقناعه بأن غرضهم هو الحفاظ على الاوضاع القائمة تماما كما تفعل الدولة المثالية فى السماء ويترجم رسل كلام أفلاطون الى لغة الواقع السياسى فيقول ان الخير

الافلاطونى معناه مصلحة الحزب الذى ينتمى اليه الانسان فاذا تم لهذا الانسان تشكيل دستور الدولة وفق هواه فسينتهى الامر بتجميد الاوضاع القائمة ٠ ولن تنشأ أية ضرورة لاجراء أى تغيير « وهكذا كان افلاطون يفكر ولكنه أظهر فكره بمظهر غير شخصى وغير مغرض خدع العالم لاجيال متعاقبة عن طريق اخفاء فكره فى ضباب ميتافيزيقى » ٠

ولا يكتفى رسل بتوضيح الصلة التى تربط الماركسية بجمهورية افلاطون ٠ فهو يسخر من اتجاه سائد بين كثير من الفلاسفة يتلخص فى أن يصنع الفليسوف قانونا عاما للتقدم ٠ فالفليسوف الذى يدين بمبدا التقدم يبدأ بالتمييز بين معالم التاريخ التى تبعث على الارتياح ، ومعالمه التى تدعو الى الاستياء ٠ ثم يحمل هذا الفليسوف نفسه على الاقتناع بأن مجرى التاريخ والاحداث يؤكدان الزيادة فى العناصر التى تدعو الى البهجة والتفاؤل كما يؤكدان نقصان العوامل التى تبعث على السخط والاستياء وبعد أن يقوم الفليسوف بصياغة قانون التقدم الذى يعتقد أن الكون يسير بمقتضاه يخرج به الى الناس ويخاطبهم قائلا : « انه لامر محتوم أن يتطور العالم كما أقول ٠ ولذلك سينضم الى حزبى الراغبون فى أن يقفوا فى صف الجانب المنتصر ، كما سينضم اليه الذين لا يبغون شن حرب غير مثمرة ضد المحتوم ٠ ويوصم من يتعرضون عليه بأنهم غير فلسفيين وغير علميين وبأنهم ينتمون الى الطراز القديم ، فى حين يوقن الذين يتفقون معه من النصر لأن الكون فى جانبهم ٠ ولأسباب تظل مجهولة بعض الشىء يمثل الجانب المنتصر جانب الفضيلة ــ ويقول رسل عن هيجل انه أول من قام بتطوير وجهة النظر هذه تطويرا كاملا ، وقد تبنتها الماركسية فيما بعد بطبيعة الحال ٠ »

ويستعرض رسل ساخرا نظرية هيجل بأسلوب مبسط للغاية ، ويقول أن هيجل غلف نظريته فى ابهام شديد لدرجة أن الناس توهموا أنها شديدة العمق ٠ ويعجب رسل كيف يمكن لانسان عاقل أن يستسيغ هراء هيجل ويقتنع بلغوه ٠ لقد نجحت الهيجلية فى الماضى فى استهواء معظم الشبان الأكاديميين الالمان ٠ ويجد رسل مبررا لاستجابة العقلاء من الالمان لهيجل فقد كانت فلسفته وتمجيده للدولة البروسية يتملقان شعورهم ٠ ولكن الامر الذى يبعث الحيرة الحقة فى رسل نجاح الهيجلية خارج ألمانيا ٠ ففى شبابه كان جل أساتذة الفلسفة فى الجامعات

الانجليزية والامريكية يدينون بالهيجلية لدرجة انه اقتنع أنها لابد تنطوى على شيء من الحقيقة . ولم يشفه من الهيجلية نهـائيا الا قراءاته لهيجل نفسه. فقد اتضح له أن كل شيء كتبه هذا الفيلسوف عن فلسفة الرياضة لا يعدو أن يكون كلاما فارغا .

وكان أثره على ماركس أغرب الأمور جميعا فقد استمد ماركس منه بعضا من أكثر معتقـداته شططا واسرافا فى الخيال . واستمد منه بوجه خاص الاعتقاد بأن التـاريخ يتطور وفق مخطط منطقى ويهدف مثله فى ذلك مثل الجدلية المجردة الصرفة الى ايجـاد وسائل لتجنب التناقض الذاتى . « وفى جزء كبير من سطح الارض ، سيحكم عليك بالاعـدام اذا خامرك شك فى صحة هذه العقيدة التى لا تقبل النقاش . ويظهر رجال العلم البـارزون فى الغرب الذين يعطفون سياسيا على روسـيا حد بهم باستخدام كلمة « التناقض » بطرق لا يمكن لعالم منطق يحترم نفسه أن يقبلها . .

وفى رأى هيجـل أنه كان يعرف ما يحتـاج العالم اليـه رغم جهل معظم الناس به. فالعالم بحاجة الى حكومة قوية ترغم الناس على التصرف بأحسن طريقة، وهو أمر لا تستطيع الديمقراطية أن تقوم به على الاطلاق. ويقول هيرقليطس الذى يدين هيجـل له بأعمق الفضل « ان كل حيوان يساق الى كلأ المرعى مكرها تحت وطأة اللكمات » . ويعلق رسـل على هذا التفكير ساخرا فيقول ان المهم أن نتأكد من تسديد اللكمات. وسواء قادت هذه اللكمات الى المرعى أم لا فمسألة لها أهمية ثانوية ــ اللهم الا بالنســبة « للحيوانات فقط » بطبيعة الحـال ومن الواضـح أن نظاما أوتوقراطيا كالذى يدافع عنه هيجل أو أتبـاع ماركس فى الوقت الحاضر لا يمكن تبريره من النـاحية النظرية الا على أسـاس التسليم بمعتقدات لا تقبل الجدل أو النقاش. فاذا كنت تدرك عن يقين غرض الكون بالنسبة للحياة الانسانية وماذا سيحدث، كما تدرك عن يقين خير الناس وصالحهم حتى ولو كانوا يخالفونك فيما تذهب اليه من رأى .... واذا أمكنك أن تقول ــ كمـا يقول هيجل أن نظريته فى التـاريخ « نتيجـة قيض لى أن أعرفها وحدى ، لأنى جبت الحقل بأسره فستشعر عندئذ بأن أى قدر من القسر والارغام له ما يبرره بفرض انه كفيل بتحقيق الهدف . »

ويتحدث رسل عن الروح الليبرالية التي يكن لها كل عطف وتقدير لأنها ترفض التزمت وتنبذ ضيق الأفق والتعصب الذميم كما أنها لا تقطع بشيء دون أن تدخل في حسابها احتمالات الخطأ والصواب • وتتنافى الماركسية في نظره مع الروح الليبرالية الحميدة لأنها تشجع التعصب الفكرى وضيق الأفق والايمان بالمسلمات التى لا تقبل الجدل أو النقاش• ونحن نجد فى الاتحاد السوفيتى أن معظم أحكام ماركس بصدد المادية الجدلية لا تقبل الشك لدرجة أنها تساعده فى تحديد آراء تحسين النسل فيما يتعلق بكيفية الحصول على أحسن صنف من القمح ، رغم أنه المعتقد فى أماكن أخرى أن التجربة هى الطريق الصائب لدراسة مثل هذه المشاكل • والعلم تجريبى ينهض على المحاولة ولا يقطع بشيء أو لا يسلم به دون جدل أو نقاش • وسائر المسلمات التى لا تقبل التغيير تتنافى مع الروح العلمية• ويستتبع هذا أن النظرة العلمية هى المقابل الفكرى للنظرة الليبرالية فى المجال العملى » •

ويرى رسل أن تطبيق الليبرالية على مجالات السياسة العملية له عظيم الدلالة والأثر • فالليبرالية تبين لنا أنه من الخطأ أن نتورط فى توقيع المظالم والبؤس الاكيد فى الوقت الحاضر بدعوى أننا سنجنى مكاسب غير أكيدة فى المستقبل • « فلو كان لاهوت الازمنة السالفة صحيحا تماما لكان احراق عدد من الناس على خشبة الاحراق امرا يستحق القيام به حتى يتمكن الباقون على قيد الحياة من الاستمتاع بالجنة • ولكن اذا كان ذهاب المهرطقين الى الجنة أمرا مشكوكا فيه فستعطل المحاجة التى يستند اليها الاضطهاد • ولو كانت فلسفة ماركس فى الحشر والنشر والثواب والعقاب صحيحة وأننا جميعا سننعم بالسعادة الابدية بمجرد الانتهاء من تصفية رأس المال الخاص ، عندئذ لايجانبنا الصواب اذا اقتفينا اثر هذه الغاية عن طريق الديكتاتوريات ومعسكرات الاعتقال والحروب العالمية • أما اذا كانت الغاية غير أكيدة ، أو اذا كان هناك شك فى أن تحقق الوسيلة الغاية المنشودة ، فسيصبح الشقاء الراهن محاجة قوية تعترض بمثل هذه الطرق والتدابير الصارمة • أما اذا كان الاحتمال الاكبر بكثير أن العالم الناجم عن مثل هذه الطرق سيكون جحيما ، فيجدر بنا أن نطلق العنان لاستبشاعنا الانسانى الطبيعى للضراوة والقسوة •

ويهاجم رسل الماركسية والفاشية ولاهوت القرون الوسطى رغم أن هذه المذاهب جميعا تساعد على توافر التماسك الاجتماعى اكثر مما يوفره النظام الديموقراطى • والنظم القائمة على المسلمات دون استناد الى أساس تجريبى ، كما هو الحال مع اللاهوت المدرسى ، والماركسية والفاشية ، تتميز بخلق درجة عظيمة من التماسك الاجتماعى بين أتباع هذه المذاهب • ولكن يعيبها أنها تتضمن اضطهاد قطاعات مفيدة من السكان • فقد تدمرت أسبانيا بطرد اليهود والمغاربة كما عانت فرنسا بسبب هجرة الهيجنوت بعد الغاء قانون نانتس •

وانى أكرر ما سبق أن قلت من أن الانظمة القائمة على المسلمات التى لا تقبل النقاش يشوبها بالاضافة لما سلف عيبان هما تبنى المعتقدات الزائفة التى لا ينهض على صحتها دليل فيما يتعلق بحقائق لها أهميتها العملية ، كما أنها تثير السخط العنيف فى نفوس من لا يشاركونها فى تعصبها ويستخلص رسل من هذا ان الحكومات الديموقراطية الليبرالية رغم كل عيوبها تتمتع بمركز متفوق على النظم التوتاليرية (كالماركسية) رغم ما لها من قدرة على تحقيق التماسك الاجتماعى بدرجة أكبر من الديموقراطيات •

من الملاحظ أن رسل يردد فى كتاباته هجومه على النظرة العملية الصرفة للاشياء فهو يقول فى كتابه « اثر العلم فى المجتمع » ان العلم الحديث قد علمنا ثنائية التفكير فى مكانة الانسان بالنسبة للكون . فالجانب التأملى من العلم يدعونا الى ادراك هوان شأن الانسان وضآلة الوجود البشرى •. وهذا ما لا تؤمن به الفلسفة الماركسية ، اما الجانب العلمى من العلم فيدعونا الى رفع شان الانسان وتمجيده . وهذا هو الجانب الذى تبالغ الماركسية فى اظهاره وتاكيده • وقد سبق أن عبر رسل عن هوان شأن الانسان بالنسبة للكون من الناحية التأملية بقوله فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » ان نظرة كوبرنيكس الفلكية تخصص للارض والانسان مكانا أكثر تواضعا مما كان يتمتع به حسب النظرية البطليموسية (١) •

ولنبدأ بالجانب التأملى من العلم • كانت الفكرة السائدة قبل كوبرنيكس عالم الفلك المعروف (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣) ان الانسان ــ والارض

(١) تاريخ الفلسفة الغربية ص ١٦ •

التى يعيش عليهـا ـ محور الكون ومركز الأشـياء · ولـكن هذه النظرية الفلكية الخاطئة تغيرت بمكتشفات كوبرنيكس الذى أثبت بمعرفته الفلكية ان الارض ليست فى مركز الـكون كمـا كان يحلـو للأولين ان يتصوروا مرضاة لغرورهم واحساسهم بالاهمية انما الارض لا تخرج عن كونها كرة تافهة ضئيلة صغيرة تحتل جانبا مهملا من الـكون المترامى الفسيح · هذا بالنسبة الى الجانب التأملى من العلم · أما الجانب العلمى أو التطبيقى منه فيجعلنا نبجل الانسان وننظر اليه نظرة اجلال للانتصارات العلمية الهائلة التى أمكن تحقيقها ·

وتتمثل هاتان النظرتان المتعارضتان فى الكوميديا الآلهية لدانتى، ومملكة السدم لهبل فتتمثل النظرة الخاصة باهمية الانسان الكونية فى « الكوميديا الآلهية ، كما يتضح هوان شـأنه من الناحية الكونية والفلكية من كتاب هبل · » والارض عند دانتى تحتل مركز الكون . وهناك عشر دوائر مشتركة فى المركز ، تدور جميعا حول الارض ... والكون عند دانتى محدود وصغير فهو يجوب كل الدوائر فى مدة أربع وعشرين ساعة. ولكل شىء فيه صلة بالانسان تتلخص فى معاقبة الرذيلة ومكافأة الفضيلة (١) ثم يستعرض رسل المعلومات والاحصائيات الفلكية التى يتضمنها كتاب « مملكة السدم » والتى تدل على أن الارض بمن عليها لا تعدو ان تكون شيئا تافها فى هذا الكون الواسع . والجانب التأملى من العلم الذى تتجاهله الماركسية ينعم من براتراند رسل بكل تقدير ·

واحدى نتائج سيطرة الانسان على بيئته عن طريق المعرفة العلمية ـ كما يقول رسل ـ وهى خلق فلسفة جديدة تتضمن مفهوما مختلفا عن مكانة الانسان فى الكون » وهو مفهوم يتعارض بطبيعة الحال مع الماركسية التى تنظر الى الانسان باعتباره مركزا للاشياء ، كما تنظر الى الكون كما لو كان تجسيدا للديالكتيك الماركسى · ويرى رسـل ان من أهـم آثار الأسلوب العلمى على التفكير الانسـانى ان العـلم فى تفسيره للظواهر الطبيعية يرفض مناقشـة فكرة « الغرض » أو « الغـاية » القابعة وراء الاشياء · لنأخذ مثلا يوضح لنا رفض العلم لفكرة «الغاية» أو «الغرض» تحدث أرسطو عن نوعين من الاسباب (أ) ما اسماه بالسبب المباشر (ب)

---

(١) « أثر العلم فى المجتمع » ص ٢٣ ·

وما اسماه بالســـبب الاخير أو النهــائى ، ويعنى به « الغرض » أو « الغائية » ٠

ولنوضح الفرق بينهما دعنا نفترض اننا شاهدنا فندقا مقاما على جبل ٠ اذا فكرنا فى الســـبب المباشر الارسطاطاليسى ذكرنا لتونا نقل أدوات البناء وغيرها الى أعلى الجبل لتشييد هذا الفندق أما اذا فكرنا فى السبب النهائى – الارسطاطاليسى (أو الغائية) فيتجه ذهننا فى الحال الى أن الغاية من تشييد هذا الفندق هو ايواء السائحين واشباع جوعهم وارواء عطشهم ويرى رسل ا نالعلم الحديث قد علمنا الا نفكر فى (الغاية أو « الغرض » فليس لنا حاجة اليه فى البحث العلمى ، بل نفكر فقط فى نطاق الاسباب المباشرة بالمدلول الاول الذى أشرنا اليه ولن «يقبل صامويل بتلر وبرجسون وشووليسنكو انزال « الغرض » عن عرش الكون – رغم ان غرض ستالين ، لا غرض الله فى حالة ليسنكو ، هو الذى يحـــكم قوانين الوراثة فى انتاج قمح الشتاء » ٠

والنظرة التأملية أو الفلسفية للعلم التى لا يحتفل بهـــا أصحاب النظرة العملية من العلماء قد تقضى بنا الى شىء من اليأس والقلق فيمـــا يتعلق بمصير الـكوكب الذى نحيا عليــه : « صحيح انه اذا عن لنا يوما ان نتوقف لنتدبر أمر الكون فقد نجده لا يبعث على الراحة فمن الجائز ان تبرد الشمس أو تنفجر متناثرة وقد تفقد الارض غلافها بحيث تصبح غير صالحة للحياة ٠ والحياة ظاهرة وجيزة ضئيلة وعرض زائل فى ركن مجهول ، وليست على الاطلاق شيئا يستحق الاحتفال به لو لم تربطهـــا بالانسان مصلحة شخصية ٠

أما أصحاب النظرة العمليـــة والماركســيون من بينهم فلا يكترثون بهذا التامل العـــلمى الذى لا طائل وراءه ويقولون : « دعنـــا نستمر فى القيام بمهمة اخصاب الصحارى ٠ واذابة جليد القطب الشـــمالى وقتل بعضنا بعضا عن طريق الوسائل العلمية التى تتحسن يوما بعد يوم ٠ وسينجم الخير عن بعض أوجه نشاطنا كمـــا سينجم الاذى عن بعضهـــا الآخر ٠ ولكن اوجه نشاطنا جميعا تظهر قوتنا وسلطاننا وبهذا نصبح آلهة فى الـــكون الذى لا يـحكمه اله » ٠ وهو منطق كريه على رســل لا لانه يؤمن بالله ، ولكن لانه لا يكتفى بالنظرة التكنولوجية أو التطبيقية

من العلم كما أن هــذه النظرة لتنتهى بالانسان الى مزالق الزهو والغرور وتمجيــــده لذاته ، وتبتعد به عن فضــــيلة التواضـــع التى يجب ان يتحلى بها ٠

ولم تختف فكرة مركز الانســان فى الكون اختفــاء تاما حتى بعد كوبرنيكس ٠ فقد استمر الانسان على الرغم من كوبرنيكس يحتل المركز الاخلاقى للكون فى نظر نيوتن ومعاصريه من المفكرين فى القرن الثامن عشر ٠ واستمرت رعاية شئون البشر غرض العناية الآلهية الاساسى ٠ وكان اكتشاف القوانين الطبيعية فى القرن الثامن عشر يحمل فى طياته مبدا الايمان بخالق أودع هذه القوانين فى أعماق الطبيعة ٠ ولكنالثوريين السياسيين من بين الفلاسفة الفرنسيين عارضوا الكنيســة وانكروا أن وجود قانون فى العالم الطبيعى يستتبع وجود خالق له ، وبدأوا يفسرون السلوك الانسانى على ضوء القوانين الطبيعية الامر الذى انتهى بهم الى المادية من ناحية وانكار حرية الاختيار من ناحية أخرى ٠ « ومن وجهة نظرهم ، خلا الكون من الغرض واصبح الانسان فيه حدثا تافها وبهرتهم رحابته واتساعه ، والهمتهم بنوع جديد من التواضع الذى جعله الالحاد قديمـــا وغير ذى موضوع ٠ » ويستهوى هذا التواضع الكونى رسل الذى يقول ان هذا التواضع الكونى يجد ـ احسن تعبير له فى قصيدة صغيرة كتبها لوباردى وتعتبر هذه القصيدة أصدق تعبير عن شعور رسل وموقفه من الكون :

اللامحدود ٠٠

كم كان هذا التل الموحش أثيرا الى قلبى دائما ٠

كمــا كان أثيرا الى قلبى سياج الشجيرات هذا ، الذى يحــول بين ناظرى وبين ذلك الجانب الكبير من الافق البعيد ٠

ولكن بينما انا جالس احلق ، يخطر علىفكرى اتساعالفضاء الهائل الذى لا ينتهى فيما وراء السياج ٠

كما يجول ببالى السكون غير الارضى وأعمق الهدوء مما يكاد يعرض قلبى لليأس الغامر ٠

وعندما يترامى الى سمعى عجيج الريح من بين هذه الاغصان ، أجد نفسى أقارن بين هذا الصوت ، وذلك الصمت اللانهائى •

وعندئذ أعود بذاكرتى الى الابدية •

والدهور التى أدركها المـوت ، والدهر الذى نحيا فيه الآن بصخبه وضجيجه •

وهكذا يغوص فكرى غريقا فى هذا الخضم الهائل •

ولكم يبدو لى مستعذبا أن تتحطم سفينتى فى هذا البحر •

ويقول رسل ان هذه النظرة القائمة على التواضع الكونى لم تعـد تتمشى مع شعور العالم الحديث الذى أثبت فيه العلم قدرته الهائلة على تغيير معالم الحيـاة وأشكالها • لقد كان العلم فيما مضى ينعم بالتقدير باعتباره وسيلة لمعرفة العالم ولكنه الآن ، نظرا لانتصار الاسلوب العلمى فى الانتاج ، يضىء الطريق لتغيير المعالم • وكان ماركس أول من بشر عام ١٨٤٥ بوجهة النظر الجديدة هذه التى تبنتها أمريكا وروسيا بالفعل، كما تبناها من النـاحية النظرية فلاسفة محدثون عديدون فديوى أشهر فلاسفة أمريكا على الاطلاق قد طور وجهـة النظر العلمية أو الفنيـة التى بشر بها ماركس وضمنها المذهب المعروف بالنفعية أو البراجماتية•

وللعلم منذ أيام العرب حتى الآن وظيفتان (أ) أن يمكننا من معرفة الاشياء • (ب) أن يمكننا من عمـل الاشياء ، وكان الاغريق باسـتثناء ارشميدس ، يهتمون بالشطر الاول لا غير • وكان حب الاستطلاع الشديد فيما يتعلق بالعالم يستبد بهم ، ولكنهم لم يحتفلوا بالاساليب العلمية فى الانتاج نظرا لان القطاع المتمدين منهم كان يعيش فى بحبـوحة ورغد على جهد العبيـد وكدحهم ويهتم رسل بوظيفة العلم الاولى أكثر من اهتمامه بوظيفته الثانية• ويمكن لنا تلخيص رأيه فى الدور الذى يستطيع التكنيك العلمى أن يلعبه فى حياة الناس العملية فيما يلى :

« فكرة الواجب من الناحية التاريخية كانت أداة استغلها أصحاب السلطان لاغراء الآخرين على قضاء مصالح أسيادهم الخاصة ، لا مصالحهم هم ويعمل أصحاب السلطان بطبيعة الحال على اخفـاء هذه الحقيقة عن أنفسهم وذلك بأن يفلحوا فى اقنـاع أنفسهم بأن مصـالحهم ومصالح

الانسانية عامة شيء واحد لا تعـــارض فيه . وهذه هي عين الحقيقة في بعض الاحيان . فأصحاب العبيد في اثينا مثلا كانوا يسخرون جانبا من فراغهم في اضافة شيء دائم الى الحضارة . هذه الاضافة الى صرح الحضارة لم تكن لتوجد تحت ظل نظام اقتصادى تسوده العدالة . فالفراغ ضرورة للحضارة . وفي الازمنة السالفة كان الفراغ الذى تنعم به الاقلية ممكنا بفضل كد الاكثرية وكدحها . وكان لكدحها قيمة لا لان العمل شيء حسن بل لان الفراغ شيء حسن . ويمكن عن طريق وســـائل العلم الحديثة توزيع الفراغ توزيعا عادلا بدون أضرار بالحضارة (١) .

ويعترض رسل على كل من الماركسية والبرجماتية لأنهما لا يحفلان بفهم العالم بل يهتمان بتغييره ، فالتأمل الفلسفى والعلمى عندهما عبث لا طائل وراءه ، أما المعرفة التكنولوجية فتفيد في تغيير هذا العالم وتساعد الانسان في السيطرة على العالم الخارجى ، في حين أن رسل يدأب على القول بأن العالم في محنته الراهنة يحتاج الى الحكمة أكثر من حاجته الى المعرفة التكنولوجية . وفي هذا الصدد يقول ان الانسان ماهر وذكى في اتقانه للوسائل والمخترعات العلمية المذهلة ولكنه أشـــد مايكون حماقة وغباوة فيما يتعلق بالغايات لاستخدامه هذه الوسائل في الحاق الأذى بنفسه وبغيره .

والماركسية تؤمن بالعلم ايمانا مطلقا كما تؤمن بأن العلم وحده كفيل بتحقيق التقدم واحراز السعادة والرفاهية ورغم تحمس رسل للاسلوب العلمى في التفكير والانتاج تحمسا لا يقل عن تحمس ماركس له ، الا أنه دائب التخوف من آثار العلم الضارة في المجتمع الانسانى ولهذا نراه يحبذ استخدام العلم بحيث لا يقضى على طاقات الانسان الخلاقة المبدعة .

وتتلخص الآثار السيئة للعـــلم التى ينادى رسل بضرورة تجنبها فيما يلى : ــ

١ ــ في نهاية القرون الوسطى اكتشف الانسان البارود ، وأفضى اكتشاف البارود الى تركيز سلطة الدولة أو الحكومة المركزية على مصائر الأفراد التابعين لها ابتداء من القرن الخامس عشر فبعد هذا القرن لم يعد من السهل أن يتمرد أحد على سلطان الحكومة المركزية كما كان الحال قبل هذا القـــرن ، وليس في هذا الوضع مايدعو الى الأسف فقد كانت

(١) « في مدح الكسل »

الفوضى والاستبداد يشيعان فى القرون الوسطى وكان من المصلحة بوجه عام تثبيت سلطان الدولة واقرار مبدأ سيادة القانون · غير أن تركيز السلطة فى يد الدولة قد تفاقم فى العصور الحديثة ويرجع الفضل فى هذا الى التقدم العلمى وتحسين سبل الاتصال والمواصلات بحيث أصبح من الأمور الميسورة أن يصدر القائمون بأمر الحكم أوامرهم الدقيقة المفصلة الى أى موظف فى أى جزء من الدولة مهما كان نائيا أو قصيا ، ويعترض رسل على اللامركزية المفرطة لأنها تسمم فى الفرد ينابيع الخلق والمبادأة والابداع ·

٢ ـ وفى رأى رسل أن المجتمع العلمى الحديث مجتمع عضوى ، أكثر عضوية من أى وقت آخر فى تاريخ الانسانية بمعنى أنه مجتمع متشابك المصالح يعتمد كل جزء فيه على الاجزاء الأخرى فالفلاح المعدم الفقير الذى ينتج بنفسه حاجاته الأولية التى يقيم بها أود عائلته يتمتع بحرية واستقلال لا يتوفران لنظيره الذى يررع بطريقة علمية ، اذ أن تصريف انتاجه مرتبط ارتباطا وثيقا بعوامل سياسية واقتصادية خارجة عن ارادته ·

وهذا التشابك العضوى بين أجزاء المجتمع العلمى الواحد من جهة وسائر المجتمعات الانسانية من جهة أخرى يستدعى ضرورة خضوع كل دولة للنظام ، وسلطان القانون الدولى الشامل ، من شأنه أن يتجاوز مصالح الدولة المختلفة كوحدات قومية متناحرة الى مصلحة المجتمع الانسانى ككل ، ومن هنا نشأت لدى رسل فكرة ضرورة اقامة سلطة عالمية لتنظيم شئون الأجزاء المختلفة من العالم ···

٣ ـ يمكن للعلم أن يتحول فى نهاية الأمر الى قوة طاغية ضارة ، فاستخدام الوسائل العلمية المستمدة من علم النفس وعلم وظائف الأعضاء وعلم الاحياء فى مجالات التعليم يمكن للقائمين بالحكم فى مجتمع علمى خلق أجيال من الناس كالآلات الصماء تفكر كما يريد لها حكامها أن تفكر فتنعدم بذلك قدرتها على التمييز والتفكير المستقل وعلى العالم اذا كان يبغى اسعاد البشر أن يجعل من العلم خادما مفيدا لا سيدا مستبدا طاغيا يصبغ العقول وفق أهواء الحاكمين وشهواتهم ···

وفى ربيع ١٩٥٩ أجرى ودروويات ثلاثه عشر حديثا تليفزيونيا مع برتراند رسل ضمنه كتابا يحمل اسم « رسل يفصح عما فى خلده » بدأ ويات حديثه مع رسل بسؤاله عن ماهية الفلسفة والدور الذى تلعبه

فى العصر الحديث • ولا شك أن بعض اجابات رسل تلقى ضوءا على مدى الخلاف بينه وبين كارل ماركس • فقد سأله ويات : عن التغييرات التى طرأت على موقف الفلاسفة على مر الاعوام فحظى منه بالاجابة التالية التى تدل على أن مفهوم رسل للفلسفة أقرب الى روح الاغريق منـه الى كارل ماركس « كان الشيء الرئيسى عند أفلاطون وأرسطو هو السـعى لفهم العالم • وانى شخصيا أعتقد أن هذه هى المهمة التى ينبغى على الفلسفة أن تؤديها ، وعندما سأله ويات اذا كان يعتبر ماركس فيلسـوفا أجابه بقوله : « نعم ، فمن المؤكد أنه كان فيلسوفا بمعنى ما • ولكن هناك خلافا هاما بين الفلاسفة • فهناك بعض الفلاسفة الذين يؤيدون الأوضاع القائمة، وهناك فلاسفة آخرون يستهدفون تغييرها ــ وينتمى ماركس بطبيعة الحال الى النوع الثانى • ولكنى أرفض من ناحيتى كلتا النظرتين ، ولا اعتبرهما مهمة الفيلسوف الحقة وفى رأيى أن عمل الفيلسوف ليس تغيير العـالم بل فهمه ــ وهذا عكس ما ينادى به ماركس تماما » •

ويخبرنا رسـل أن هناك وشـائج جوهرية تربط بين الماركسية والبراجماتية • فالبرجماتية لا تعنى باستقصاء « الحقيقة » التى تستبدلها « بالمنفعة » وهى تبارك أية نظرية أو مبدأ اذا كان هذا المبدأ يتضمن منفعة أو فائدة بغض النظر عن صحته أو زيفه • ولا يحفل ديوى وأتباعه اذا كانت أية نظرية صحيحة أم لا ، ولا يأبه سواء كانت هذه النظرية تستند الى أساس من الواقع أم من الزيف • فالمهم لديه أن تكون هذه النظرية ناجحة عند التطبيق وأنها تكفى للعمل بها وبمعنى آخر ليس هناك فى نظر البراجماتية خطأ أو صواب • فما هو الخطأ اليوم قد يثبت صوابه غدا • والعـكس صحيح • واعتراض رسـل على مذهب البراجماتية فى هذا المجـال قائم على استعداد هذا المذهب لقبول نظريات مبنية على الزيف والوهم لا لشيء الا لأنها نافعة وناجحة عند التطبيق • ويعلق رسل على النتائج الخطيرة المترتبة على اعتقاد البراجماتبة أن نفس الشيء قد يكون صحيحا فى وقت ما وزائفا فى وقت آخر بقوله : « فى عام ١٩٢٠ كان صحيحا أن تروتسكى قد لعب دورا كبيرا فى الثـورة الروسية ، وفى عام ١٩٣٠ كان هذا الرأى « زائفا » ولقد بين جورج أورويل فى قصته (١٩٨٤) بطريقة بديعة تفاصيل النتائج المتربة على هذه النظرة» •

ويرى « رسل » ان البراجماتية والماركسية يستمدان قوتهما من الجانب التطبيقى من العلم لأن هذا الجانب نافع ومفيد ويمنح الانسان السيطرة على الطبيعة وتتمشى مع هذه السيطرة على قوة الطبيعة الرغبة فى امتلاك الانسان لأسباب القوة والسلطان ٠ « واذا استبد بك حب القوة والسلطان فسينتهى بك الأمر الى الاقتناع بوجهة نظر ماركس التى تنادى بأن ما يهم هو تغيير العالم لا فهمه ٠ » والبراجماتية تمنح الانسان القدرة على صنع الحقائق أو (فبركتها) كما أنها تضفى عليه قوة تضارع قوة الآلهة بفرض أن تتوفر لديه الوسائل العلمية الكفيلة بتحقيق هذا ، وأن تتوفر لديه قوة بوليسية كافية ٠ « وأنت لا تستطيع أن تجعل الشمس باردة ، ولكن يمكنك أن تضفى « حقيقة » براجماتية على قضية مفادها « أن الشمس باردة » اذا أمكنك أن تضمن تصفية كل انسان تسول له نفسه انكار هذا ويساورنى الشك فيما اذا كان زيوس على قدر أكبر من القوة » ويتمشى مع تمجيد البراجماتية والماركسية للجانب المفيد والعملى من العلم ، احساس الانسان بأنه والارض التى يسكنها مركز الأشياء ٠ » والناس العمليون لا يرغبون فى اجراء تغييرات فى أى مكان آخر (غير سطح الارض أو بالقرب منه) ولهذا فهم على استعداد لقبول فلسفة تعالج سطح الارض كما لو كان الكون بأسره ٠ ولكن قوتنا محدودة حتى على سطح الارض وانه لضرب من جنون العظمة المحموم ان ننسى أن هناك حقائق تحدق بنا مستقلة عن رغباتنا فى أغلب الامر ٠ وقد استشرى هذا الضرب من اللوثة كنتيجة لانتصار الوسائل العلمية — وآخر مظهر لهذه اللوثة رفض ستالين الاعتقاد بأنه يمكن للوراثة أن تجسر على تجاهل المراسيم السوفيتية » ٠

والأسباب التى تدعو رسل للهجوم على البراجماتية هى فى مجملها نفس الأسباب التى تدفعه للهجوم على الماركسية ٠ وتبين هذه الاسباب بجلاء كيف يرفض رسل أن يحبس خياله فى سجن وجودنا الارضى ، وانا شخصيا أجد صعوبة فى تفهم رغبته الجياشة فى الانطلاق بخياله الى رحاب أوسع رغم عطفى الشديد عليها لأنها رغبة تشترك مع الصوفية التى يعافها مذهبه العقلى العلمى المتشكك فى بعض ملامحها ٠ « وبالاختصار فان البراجماتية تستهوى المزاج العملى الذى يجد على سطح هذا الكوكب

كل خامته الخيالية والذى يشعر بالثقة فى التقـــدم ، دون أن ينتبه الى الحدود غير الانسانية التى تحد من قوة الانسان ، وهى تحب القتال رغم كل المخاطر المصـــاحبة له لأن الشـــك لا يخامرها فى أنهـــا ستحقق النصر » ٠

ويشن رسل حملة شعواء على الكثلكة فى التفكير ويعنى بهذا ايمان الانسان الجازم بأنه على حق وبأن سواه على خطأ دون أن تتوفر لديه أية معرفة يقينية ٠ ورسل يحمل على الكثلكة فى أية صورة من صورها سواء المذهب المسيحى الكاثوليكى أو المذهب الشيوعى ٠ ففى رأيه أن الكثلكة الفكرية تحمـــل فى طياتها التعصب ، والتعصب يشعل الاحقـــاد ويثير البغضاء ويقضى على فضيلة العقل والتسامح فى الانسان ويعترف رسل لمعارضيه ونقاده أن يقينية المعتقدات القائمة على مسلمات تدخل الراحة فى نفس الانسان ٠ وهو أمر لا تستطيع فلسفته المتشككة أن تقبله » ويوجه اليه هذا السؤال دوما : « ما الذى تستطيع بمذهبك العقلى البارد ، أن تقدمه للباحث عن الخـلاص والذى يوفره ســـياج عقيدة قائمة على المسلمات مريحة دافئة تبعث فى النفس طمأنينة جو البيت وأمانته ؟ » ٠

« والاجابة عن هذا السؤال متعددة الجوانب ٠ وفى المكان الأول ، أنا لا أزعم أنى أستطيع أن أقدم القـدر الكبـــير من السعادة التى يمكن تحقيقها فيما لو تخلينا عن الاحتكام لمنطق العقل ، كما أنى لا أزعم أنى أستطيع أن أقدم ذلك القدر الكبير من السعادة التى يمكن أن تتوفر عن طريق تناول الخمور والمخدرات أو جمع ثروة عريضة من الاحتيال على الارامل واليتامى ٠ وليست سعادة الفرد الذى يتحول الى فلسفتى ويدين بها هى التى تهمنى فالذى يهمنى هو سعاده الانسانية » ٠

وفلسفة رسل تنهض على الايمان بما يثبته العقل ويؤيده المنطق ٠ ويفضل رسل للانسان أن يعيش فى شـــك من أن يؤمن بمبدأ قائم على الوهم لا فضيلة فيه سوى أنه مريح ، حتى لو أفضى هذا الشك الى الألم وخيبة الأمل ٠ ويدعوه هذا الى الهجوم على البراجماتية لأنها تقبل الدين مثلا لا على أنه قائم على حقائق بل على أنه مريح ويخدم أغراضا نفعية ٠ فهو ينجح فى أن يجعل الانسان فى سلام داخلى مع نفسه ووئام خارجى مع المجتمع الذى يعيش فيه ٠ ولا يقبل رسل الكثير من الاحلام العذبة التى

يحلو للماركسية أن تستغرق فيها (مثـــل الايمان بخلق فردوس على الارض) والانسان الذى يريده هو الذى ينفض عن نفسه غبــار الاوهام الجميلة والاحلام العذبة ليجابه الحقائق المرة وجها لوجه دون أن تخور قواه أو يتخاذل » ۰ واذا كان ابنك مريضا وكنت أبا ذا ضمير ، فستقبل التشخيص الطبى مهما كان غير أكيد وغير مشجع أما اذا قبلت رأى طبيب دجال يبعث على التفاؤل والارتياح ويموت طفلك فى أثر ذلك ، فلن تعفيك بهجة ايمانك بالطبيب الدجال التى تحس بها أثناء مرض طفلك ۰ ولو كان الناس يحبون الانسانية بصدق واخلاص مثلما يحبون أطفالهم ، فلن يكونوا على استعداد فى مجال السياسة كما هو الحال فى شئون البيت أن يسمحوا لقصص الخيال المريحة أن تخدمهم وتضللهم » ۰

ويكره رسل التعصب الذميم الذى يزعم لنفسه يقينية المعرفة فى حين تنتفى هذه اليقينية فى واقع الحال لأن مبدأ الكراهية هو الذى يسود التفكير المتعصب ۰ « وغالبا ما نجـد أن الناس الذين يقـولون لك أنهم يحبون البروليتاريا انما يكرهون الأغنياء فى واقع الأمر » ۰

ويعيب رسل على الماركسية اخضاع الفكر للسلطة ، ويرى أن هذا الخضوع يتنافى مع الروح العلمية ۰ « والموقف العام الذى ينطوى على قبول عقيدة دون تسـاؤل أو استفسار على أســاس الخضوع للسلطة يتعارض مع الروح العلمية ۰ واذا استشرى هذا الموقف فانه لن يتمشى فى أغلب الأحيان مع تقدم العلوم ۰ وليس الكتاب المقـــدس فحسب بل أعمـــال ماركس وانجلز نفسها تحتوى على بيانات واضـــحة الزيف ۰ فالكتاب المقدس يقول ان الارانب البرية تجتر ، وقال انجلز ان النمسويين سينتصرون فى حرب ١٨٦٦ ۰ ونحن لا نملك غير الحجج التى تعترض بها على المتمسكين بحرفية التفسير ۰ ولكن اذا احتفظ الانسان بكتاب مقدس فى حين يرفض مبدأ التمسك بالحرفية ، فان سلطة الكتاب المقدس ستنتهى بخلعهـــا على كهنوت ۰ ومعنى المـادية الجدلية يتغير كل عشر سنوات ، والعقاب الذى يلحق بكل من يتأخر فى ملاحقة آخر تفسير هو الموت ومعسكر الاعتقال » ۰

ويحدثنا رسل عن بعض فترات التاريخ الانسانى التى تتضمن قمة التعصب وذروة الاضطهاد ، كالأيام الأخيرة فى عمر الامبراطورية الرومانية

والقرن السادس عشر · « لقد كان الحماس الدينى حينذاك نتاجا للخوف واليأس · وهـذا هو الحال مع الحمـــاس الدينى فى عصرنا سواء كان مسيحيا أم شيوعيا · وهو رد فعل لا عقلى ضـــد الخطر يجنح الى خلق مايخشى خلقه · والخوف من القنبلة الهيدروجينية يولد التعصب · ومن المحتمل أن يقودنا التعصب أكثر من أى شىء آخر الى استعمال القنبلة الهيدروجينية فعلا » ·

وفى ختام الحديث عن موقف رسل من النظرية الماركسية ، أحب أن أذكر أن القـــارىء قد يحس بشىء من العطف من جانبه عليها فى كتاباته المبكرة (مثل الطرق الى الحرية ، و « مستقبل الحضارة الصناعية » · مما يدفع البعض للاعتقاد بأنه يتبنى مبادىء ماركس ويدافع عنها · ولكن يجدر بنا أن ندرك أن هذا الاعتقاد خاطىء ولا نصيب له من الصحة فرسل لم يكن فى أى يوم من حياته ماركسيا كاملا · بل ان كتاباته اللاحقة تظهر بما لا يدع مجالا للشك انه قد تخلى نهائيا عن لهجة الاعتذار عن نظرية ماركس التى قد تلوح لنا من خلال كتاباته الأولى ، كما أنه تخلى بشكل قاطع عن الثورية الشاملة التى تتصف بها كتاباته الاولى · فرسل الذى يكتب عام ١٩٢٣ فى كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » انه يرغب فى اجراء تغيير شـــامل فى المجتمع ، يقـول عام ١٩٦٢ فى كتابه « الحقيقة والخيال» · انه يؤمن فى الوقت الحاضر من الناحية الفكرية على الاقل بأن أى تحسن هام فى حياة الانسانية لابد أن يتم بالتدريج · ولكنه يرى رغم ذلك أن للثورة مايبررها فى بعض الحالات الخاصة ·

ومما يحيرنى أن رسل الملحد الذى يمجـد العلم والعقل والتشكك يتحدث الينا أحيانا بلغة تنقلنا من عالمنا الارضى ومشاكله الصغيرة الى نطاق عالم علوى رحيب · وتجعلنى هذه اللغة أعتقـــد أن أجمل ما فى الحضارة المسيحية يستقر فى أعمـــاقه مهما حـاول انكار هذا ويكفينى للدلالة على ذلك أن أسوق ما قاله فى احدى محاضراته المنشورة بعنوان « أثر العلم فى المجتمع » : ـ

« أما الذين يشعرون بأن الحياة على سطح هذا الكوكب حياة حبيسة فى سجن ، لولا النوافذ التى نتطلع منها الى عالم أعظم وأرحب يلوح وراء العالم الذى نعيش فيه ··· والذين يبدو لهم ايمان الانسان بقدرته على كل شىء ضربا من الزهو والخيلاء ، ويبتغون الحرية الرواقية التى تصمد

فى وجه الألم ، وتنجم عن التحكم فى الأهواء والعواطف الجامحة لا عن السيطرة النابوليونية التى نحلم برؤية مما لك هذا العـــالم راكعة عند أقدامها ــ وفى كلمة موجزة سيبدو للذين لايرون فى الانسان هدفا يستحق منهم العبادة ، ان عالم البراجماتية محدد وتافه ، يسلب الحياة كل شىء فيها من شأنه أن يضفى عليها قيمة ، كما يزيد من تصغير شأن الانسان لأنه يزيل عن الكون الذى يتأمله كل ما فيه من مجد وسناء » .

وتستبد بى الحيرة أيضا عندما أطالع العلاج الذى يقترحه رسل على الانسانية اذا شاءت أن تخرج من محنتها الراهنة ، وهو علاج ستناصبه الماركسية والماركسيون العداء ، وسيرمونه بالسذاجة المفرطة ما فى ذلك شك . ولكن هذا العــلاج يجعلنى كمـــا قلت أحس أن جذور الحضارة المسيحية فى أبهى صورها وبعد تنقيتها من الأوشاب متأصلة فى أعماق هذا الرجل مهما وقف كتاباته على الدفاع عن الالحاد والتشكك وانكار الديانات وعلى قمتهـــا الدين المسيحى « وحل المسألة شىء بسيط قديم ومألوف للغاية ، شىء تبلغ بساطته الحد الذى أكاد معه أن أستحى من ذكره لأنى أخشى الابتسامة الســـاخرة التى سيستقبل بها الساخرون الحكماء كلماتى . والشىء الذى أعنيه ــ وأرجو أن تغفروا لى ذكره ــ هو الحب : الحب أو التعاطف المسيحى » .

(٤)

إيمان برتراند رسل الراسخ
بالديمقراطية الليبرالية

الديموقراطية

يقول رسل أن كلمة الديموقراطية تعنى شيئين مختلفين فهى غرب الستار الحديدى تتضمن فكرة استقرار السلطان الأخير فى يد أغلبية الراشدين من السكان • أما شرق الستار الحديدى فهى تعنى اقامة ديكتاتورية عسكرية مكونة من أقلية صغيرة تشاء أن تطلق على نفسها صفة الديموقراطية • ولكن رسل يعترف على أية حال بأن مفهوم الديموقراطية فى الغرب الآن لا يتفق تماما مع ما كانت الكلمة فى الماضى ترمى اليه •

يرجع تأسيس النظام الديموقراطى الى الاغريق • لقد عرفت الدول الأخرى من قبل نظما مختلفة مثل الملكيات والحكومات الدينية (التيتوقراطيات) والأرستقراطيات • ولكن الفضل يرجع أولا وأخيرا الى الاغريق فى استحداث النظام الديموقراطى • لقد كان الاغريقى العادى يتمتع بقسط وافر من الديموقراطية وتوجيه سياسة مدينته مما يتمتع به نظيره فى الدولة الديموقراطية الحديثة ، كما كان فى امكانه أن يدلى برأيه مباشرة فيما يعرض عليه من قوانين وتشريعات • وكان القضاة يختارون بالاقتراع ، كما أنه لم تكن هناك بيروقراطية قوية تضع العراقيل فى طريق الارادة الشعبية • والذى لا شك فيه أن صغر حجم دولة المدينة الاغريقية قد ساعد على توفير هذا القسط من الديموقراطية المباشرة وهذا ما لا يتوافر فى الدولة الديمقراطية الحديثة• ومع هذا كانت الديموقراطية الاغريقية محدودة فى بعض النواحى ، فقد كان النساء والعبيد محرومين من ممارسة حقوقهم الانتخابية • وبالرغم من أن أفلاطون كان يدافع عن حقوق المرأة الانتخابية الا أن أثره كان محدودا هزيلا •

ويرى رسل أن الديموقراطية الاغريقية لم تكن ناجحة للغاية • فالأصل فى الديموقراطية أنها قامت لتناهض الارستقراطية التى كانت قد قامت بدورها لتناهض الملكية • صحيح أن الديموقراطية استطاعت أن تمحق الارستقراطيات القائمة فى معظم دول المدن الاغريقية ولكن

الديموقراطيـة كانت بوجه عام تنتهى الى الطغيـان • لم يكن الاغريق ينظرون الى الطاغية باعتباره حاكما سيئا بالضرورة ، فهو فى نظرهم لا يعدو أن يكون مجرد رجل استولى على مقاليد الحكم بالقوة أو بالارادة الشعبية وليس بالوراثة • وفى أول عهده بالحكم كان الطاغية فى العادة يقف فى صف الشعب ضد الارستقراطية والبلوتوقراطية حتى تتحقق له المتعة فى ارسـاء قواعد حكمه على أسـاس من الرضـاء الشعبى • ولكن الطاغية بعد أن يستقر له الحكم كثيرا ماكان يظهر أمام الناس بمظهر الانسان الذى تحاك من حوله المؤامرات لاغتياله حتى يبرر بذلك تكوين حرس مسلح خاص لحمايته والحفاظ على حياته • وعندما يتم له تكوين هذا الحرس ، يبدأ فى منح الامتيازات للمقربين اليه حتى ينتهى به الأمر الى اغتيال حقوق الشعب تماما • وقد اسـتمر النظام الديموقراطى حتى مجىء الاسـكندر الأكبر الذى قام بتصـفية الديموقراطيـة فى المـدن الديموقراطية الاغريقية قبل أن يشرع فى شن حربه ضد الفرس •

وقد تكرر فى روما ما حدث فى اليـونان بصـورة أوسع ، ففيها استمر الصراع سجالا لمدة طويلة بين الأرستقراطية والشعب • وعندما استولى يوليوس قيصر على الحكم فعل هذا كبطل يدافع عن حقوق الشعب ويؤازر الديموقراطية التى سرعان ما تحطمت على يديه بمجرد أن اطمأن الى استتباب قواعد حكمه وبعد يوليوس قيصر اختفت الديموقراطية من العالم لأمد طويل • ثم ظهرت مرة أخرى بطيئة للغاية وتدريجية للغاية كنتيجة الرواج التجارى الجديد الذى بدأ فى لومباردى فى القرن الحادى عشر وانتشرت بعد ذلك فى الشمال •

أما الليبرالية الحديثة فقد بزغت فى ميلانو • واقترنت فى ظهورها بالصراع الذى دار رحاه بين تلك المدينة وبين رئيس الأساقفة والامبراطور. ورغم أن هذه الديموقراطية كانت محدودة للغاية ــ فهى تنهض أساسا على الاستقلال عن الاقطاع والكهنوت الا أن أثرها التاريخى فى انتعاش حرية الفكر كان هائلا • صحيح أن هذه الديموقراطية لم تكتب لها الحياة طويلا جدا ، فقد أفضت فى البندقيـة الى الارسـتقراطية ، وفى ميـلان وفلورنسـا الى حـكم البلوتوقراطيـة • ولكن على أية حـال لم تبلغ الارستقراطية فى البندقية والبلوتوقراطية فى ميلان وفلورنسـا الدرك الأسفل للخسف والجور نظرا لادراك الحاكمين أنهم معرضون للطرد وغضبة الشعب اذا هم سمحوا للفساد أن يتطرق اليهم بصورة أكبر مما ينبغى •

وفى الوقت نفسه أرسيت قواعد حكم جديد هو الحـكم النيابى فى اقطار مختلفة فى شمال الالب • ويقول رسل أنه قد يبدو لنا أن الحكم

النيابى جزء أســاسى من مفهوم الديموقراطيــة • ولكن هذه النظرة الى الديموقراطية جديدة ، فهى لم تكن سائدة بين الأقدمين أضف الى ذلك أن أشكال الحكم النيابى فى أول عهده فى القرون الوسطى كانت بعيدة عن الديموقراطية الحقة الى حد كبير • ورغم هذا فقد افادت الديموقراطية الأولى فائدة هائلة فى تمكين دائرة انتخابية كبيرة من ممارسة السلطان الســياسى بطريق غير مباشر ، وبهذا مهدت الطريق الى امكانيــة توزيع المسئولية السياسية فى الأمم الكبيرة الحجم فى العصر الحديث ، فى حين كانت هذا الامكانية قاصرة فيما مضى على المدن المنفصلة فقط •

وقد يتبادر لأذهاننا أن الحكم النيابى وثيق الارتباط بالديموقراطية ولكن ليس هذا هو الحال دائما • لأن الدائرة التى تتمتع بحق الانتخابات قد تكون فى أضيق الحدود • فالنبلاء الاســكتلنديون مثلا يتمتعون بحق انتخاب الممثلين فى مجلس اللوردات • وهذا أبعد مايكون عن الديموقراطية الحقة • ولكن رسل يعترف أنه ليس للنظام النيــابى بديل اذا استهدفنا توزيع السلطان السياسى بين المواطنين العاديين فى دولة كبيرة من الناحية الجغرافية •

والنظام النيابى يحمل فى طياته أحيانا أخطارا تهدد الديموقراطية ، وهى تغاير الأخطار التى يتضمنها نظام الطغاة عند الاغريق والرومان • فقد يعن للمجلس النيابى المنتخب أنه مدين بوجوده الى الانتخاب الشعبى• وهذا ما فعله البرلمان الطويل « فى صراعه مع تشارلس الأول » فقد قام باصدار المراسيم التى تخول لنفسه حق الديمومة الدستورية فأصبح من المستحيل حل البرلمان الا اذا أقر البرلمان نفسه هذا الحل • وكان هذا أحد الأسباب التى جعلت كرومويل مضطرا الى تصفية البرلمان الطويل بطريقة غير دستورية اذ لم يكن لديه سبيل آخر للتخلص منه •

وكان روسو يزعم لنفسه الايمان بالديموقراطية • ولكنه كان فى الواقع يؤمن بالديموقراطية بمفهــومها الاغريقى القــديم وهو أن أركان الديموقراطية لا تتوافر الا اذا اســتطاع كل مواطن أن يدلى برأيه فى كل تشريع يسن • أما التمثيل النيابى بالمعنى الحديث فلا يعدو فى نظره أن يكون ارستقراطية متخفية • وهذا ما يجعله يعتقد فى استحالة تحقيق الديموقراطية الحقة فى بلاد كبيرة الحجم مثل فرنسا وانجلترا • وفى رأيه أن مدينة جنيفا مســقط رأســه هى المكان الوحيــد الذى يمكن تحقيق الديموقراطية الحقة فيه •

ويرى رسل أن النظرية الديموقراطية بمعناها الحديث لا تنحدر من

روسو ، ولكنها تنحدر من الجناح التقدمي فى جيش كروموبل • صحيح أن الجناح فشل فى ارساء قواعد الديموقراطية فى انجلترا نفسها ولكنه حمل مبادءه عبر المحيط الأطلسى حيث أثمر الديموقراطية الامريكية ، ثم انتشرت الافكار الديموقراطية من الاراضى الامريكية الى فرنسا ، وانجلترا كذلك وأن كان انتشارها فى انجلترا قد تم بطريق غير مباشر •

ويتناول رسل الديموقراطية الأمريكية بالحديث فيقول أن طبيعة الديموقراطية تحددها الى حد كبير للغاية القوى التى تناصبها الديموقراطية العداء • فالديموقراطية الامريكية كانت فى بادىء الأمر موجهة ضد انجلترا أساسا • والديموقراطية الفرنسية كانت موجهة فى عام ١٧٨٩ أساسا ضد طبقة كبار الاقطاعيين ، أما الديموقراطية الانجليزية فقد كانت منصرفة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر الى اكتساب السلطان من أجل الطبقة المتوسطة ، لكنها بدأت تسعى فيما بعد الى تحقيق السلطان من أجل الطبقة العاملة ، ومناصبة كبار الرأسماليين العداء •

ويرى رسل أن الديموقراطية الامريكية طرأ عليها تغيير كبير عندما أصبح أندرو جاكسون رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان الرؤساء الأمريكيون قبل جاكسون يختارون من بين السادة المثقفين المنتمين الى طبقة أصحاب الأراضى الراسخة القدم أما جاكسون فكان يعادى الثقافة ويتشكك فى نوايا المثقفين لأنهم يفهمون قضايا تستغلق على فهمه وتبلبل فكره • واستمر هذا العداء ضد الثقافة جزءا من الديموقراطية الأمريكية منذ ذلك الوقت حتى يومنا الحاضر وقد جعلت هذه العداوة من العسير على أمريكا أن تستفيد من رأى خبرائها على الوجه الأكمل •

ولا يمكننا القول مع ذلك بأن العداوة للثقافة جزء جوهرى من الديموقراطية • فلم يكن لها وجود فى انجلترا ، كما أنها لم تظهر على مسرح الأحداث فى فرنسا الا فى قمة عهد الارهاب أثناء الثورة الفرنسية•

واحدى المشاكل التى تجابهها كل ديموقراطية فى العالم الحديث هى مشكلة استخدام الخبراء فهناك شئون عديدة على جانب عظيم من الاهمية يصعب على المواطنين العاديين فهمها • ولعل الشئون المصرفية هى أوضحها جميعا • وقد ألغى أندرو جاكسون بنك أمريكا لأن الشئون المصرفية كانت تستغلق على فهمه أساسا • وهذه المشكلة التى تجابهها الديموقراطية الحديثة تتلخص فى التوفيق بين آراء الخبراء وبين سياسة شعبية تتبناها الحكومة يفترض فيها أنها لا تخدم صراحة سياسة أقلية معينة • ويضرب رسل مثلا على أهمية رأى الخبراء فى سن أية تشريعات

مستشهدا على ذلك بالتشريعات النقابية فى انجلترا ، فمنذ حصول الطبقة العاملة على حقها الانتخابى فى عام ١٨٦٧ أصبح من الضرورى عند اصدار أية تشريعات عمالية اقناع العمال بأن هذه التشريعات لا تتجاهل مصالحهم • ويقول رسل أنه كثيرا ما كانت هذه التشريعات تسن وفى ظاهرها الحرص على مصالحهم (الطبقة العاملة) • فاذا استعرض مجلس الشيوخ القانون تحت ضوء خبرته القانونية اتضح له أن التشريعات المسنونة لا تعنى ما تزعم أنها تعنيه • صحيح أن الطبقة العاملة فيما بعد كانت عندما تبارح الغشاوة عينها تتكفل عن طريق حقها الانتخابى باستصدار التعديلات المناسبة • ولكن هذا يدلنا على مقدار قدرة الخبراء على التغلب على الارادة الشعبية • وفى عهد اندروجاكسون تنبه الناس الى مدى الخطر الذى تنطوى عليه مشورة الخبراء • ولكن الأمريكان استحدثوا علاجا لهذه المشكلة ثبت أنه أشد سوءا وخطرا من الداء نفسه ، فقد قرروا اختيار القضاة من بين قضاة الدولة وليس من بين القضاة الفيدراليين • وكانت نتيجة هذا العمل أن زاد سلطان الزعماء السياسيين الذين كانوا يضمنون للموالين لهم ولمحاسيبهم مراكز القضاء حتى يطمئنوا الى تفسير القانون بما لا يتعارض مع مصالحهم وليس وفقا لأحكام القانون• وبهذا أصبح الزعيم السياسى الأمريكى شيئا أشبه ما يكون بالطاغية الاغريقى أو الرومانى ، مع فارق واحد هو أن الثورة أو الاغتيال كان فيما مضى السبيل الوحيد للتخلص من الطاغية الاغريقى والرومانى ، فى حين أنه يمكن التخلص من الطاغية الأمريكى بطرق دستورية •

ومن أبرز المشاكل التى تعترض تحقيق الديموقراطية السليمة فى كثير من البلاد مشكلة طغيان أجهزة البوليس • فالسلطات البوليسية الفاسدة والمعدومة الضمير تستطيع أن تدخل الهلع والرعب فى قلوب الأهلين ، بما لها من سلطان قانونى يتيح لها فرصة انتهاك حرمة القانون فى أمن • ويرى رسل أنه من حسن الحظ أن الشعب الانجليزى ينظر الى رجل البوليس باعتباره صديقا لا عدوا ، كما هو الحال فى كثير من بلاد العالم •

وهناك خطر أوضح يهدد الديموقراطية يتمثل فى استيلاء السلطة العسكرية على مقاليد الحكم • وقد تنبهت انجلترا الى هذا الخطر الداهم فى عهد وليام الثالث فأصدرت تشريعا ما زال سارى المفعول حتى اللحظة الراهنة • ويقتضى هذا التشريع تجديد قوانين التمرد العسكرى سنويا حتى يضمن البرلمان عدم محاولة الجيش الاستيلاء على الحكم واقامة ديكتاتورية عسكرية •

فاذا اشتم البرلمان جنوحا من الجيش الى الاستيلاء على السلطة امتنع عن تجديد قوانين التمرد ، بحيث يصبح كل جندى فى حل من اطاعة رؤسائه من الضباط ٠

ونحن نجد فى بعض الأحيان أن الجيش يتكون من طبقة تنحدر من أقلية فى المجتمع وأنه قد يعن له الاستئثار بالسلطان يفرضه على الأغلبية العزلاء من السلاح ٠ ويرى رسل أن حماية الديموقراطية فى مثل هذه الحالة تتطلب من الاقلية التى تناهض الاغلبية سياسيا الاحساس العميق بأهمية العمل الشرعى وتبجيل القانون ٠

يعرض رسل للظروف التى تدعو الى عـدم احترام الديموقراطيـة احتراما كافيا فى الآونة الراهنة فاليسـار فى الغـرب يعطف على روسيا السوفييتية ويعتقد أن الديموقراطية الغـربية لا بد وأن تكون رجعيـة بصورة ما لا لشىء الا أن روسيا الشيوعية التى تحظى بعطفهم تقيم بين ربوعها نظاما ديكتاتوريا ٠

وفى أقصى اليمين نجد من يخشون الاشتراكية ويؤثرون الابقاء على امتيازاتهم القديمة ٠ وبين طرفى اليسـار واليمين هناك عدد من النـاس يشعر بقصور النظام الديموقراطى ويتصور فى صبر نافد ان اقامة نظام آخر يحل محل الديموقراطية سيكون شيئا أفضل ٠ ومن ناحيتى فانى أرى أنه من الخطر جدا أن نتصـور على الأقـل فيمـا يتعلق بالمجتمعـات المتمدنة فى الغرب ، ان هناك نظما أفضل من الديموقراطية ٠ وليس مرد هذا الى أن الديموقراطية خير أكيد ، ولكن لأنه يستحيل فى ظلها اقتراف شرور عظيمة معينة يمكن أن تظهر فى ظل النظم الأخرى (١) ٠

ويتحدث رسل عن الشرور المقترنة بالسلطان فيقول « ان أصحاب السلطان دائما وفى كل مكان لا يكترثون بالخير أو الشر الذى يصيب من يخضعون لسلطانهم ، اللهم الا فى الحدود التى يكبح فيها الخوف جماحهم ٠ وقد يبدو هذا غلظة فى القول لا مبرر لها ٠ ويمكن الرد على ما أقول بأن الناس المهذبين لا يلحقون بالآخـرين سـوى قدر من العـذاب والبؤس لا يتجاوزونه ٠ وقد يمكن القول بهذا ولكن التاريخ يظهر بطلانه ٠ فالناس المهذبون الذين نعنيهم ينجحون فى اخفاء المعرفة عن أنفسهم ، أو يتظاهرون بأنهم لا يعلمون مقدار الشقاء الذى يلحقونه بالآخرين حتى يسعدوا (٢) ٠

---

(١) ، (٢) الحقيقة والخيال ص ٨١ ٠

ويضرب رسل مثلا على ذلك باللورد ملبورن أول رئيس وزارة فى عهد الملكة فيكتوريا • فقد كان ملبورن فى حيـــاته الخاصـــة انسانا جذابا ، واسع الاطلاع والثقافة ، شـــغوفا وليبراليا متحررا • ولكن ثراءه كان مستمدا من مناجم الفحم التى يملكها ، حيث يكدح الأطفال ساعات طويلة متصلة فى الظلام تحت سطح الأرض من أجل أجور هزيلة لا تسمن أو تشبع من جوع • كما يضرب رسل مثلا بماركس الذى كان يعيش عـالة على انجـلز الذى كان بدوره يعيش عـالة على اســتغلال البروليتاريا الجائعة فى مانشستر فى الأربعينات العجاف من القرن الماضى• وفى رأى رسل أنه من عادة الانسان أن يبرر الفـوائد التى يجنيها من الحاق الظلم والاجحاف بالآخرين عن طريق استحداث نوع من السفسطة يريح النفس • « والناس يهلعون وهم محقون فى ذلك للبشـاعات التى يرتكبها ماو ـ ماو • ولكن القلة القليلة منهم تذكر أن هذه الفظائع فى مجموعها لا تعدو أن تكون جزءا واحدا على ألف من البشائع التى اقترفها الرجل الأبيض على مدى القـرون فى حق الزنوج عن طريق العبـــودية وتجارة العبيد » •

وعندما استحدث ستالين نظام المزارع الجمـاعية اعترضت طريقه مقاومة الفلاحين العنيدة ، فما كان منه الا أن حكم بالاعدام على خمســة ملايين فلاح عن طريق تجويعهم ، كما قام بنقل ملايين عديدة أخرى من الفلاحين الى معسكرات العمل فى ســيبيريا • كل هذا تم ـ كما يقـول رسل ـ باسم « الزراعة العلمية » ، ولم يكن ليتم لو كان النظام القائم فى روسيا ديموقراطيا •

ويقول رسل أنه ليس هناك ما يدعو الانجليز لأن يشعروا بالتفوق الأخلاقى على السوفييت ، فقد حدث شىء شبيه بهذا فى انجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر رغم أن ما حدث حينذاك كان على نطاق ضيق • ففى تلك الفترة أصدر البرلمان الانجليزى بمجلسيه النواب والشيوخ (وكان آنذاك يمثل الأرستقراطية مالكة الأرض) قانون المراعى المسورة العامة الذى حرم بمقتضاه الفلاحون والمعدمون من أهل الريف من حق اســتعمال هذه المراعى العـامة الأمـــر الذى أفضى الى انتشار الجـوع والفاقة بينهم ، واضطرارهم الى الهجرة للمدينة للعمل فيها تحت ظروف أسيفة من الخســـف والاستغلال • ويقول رســـل « انه يحق لنا أن نستشبع قوة ستالين • ولكن الصواب بجانبنا تماما

اذا ظننا أننــا سنكون أفضل منــه لو توافرت لدينا نفس فرصــه • اننا أحسن حالا بفضل الديموقراطية لا غير • فعندما كانت الطبقة الراقية الانجليزية تملك احتكار السلطان السياسى كان الحال فى انجلترا سيئا بقدر ما كان سيئا تحت حكم ستالين ، ويجــدر بنا أن نحمل التقــدير للديموقراطية لأنهــا تمنع اقتراف مثل هــذه البشاعات على نطاق واسع فهذه أول وأعظم ميزة لها » •

وللديموقراطية الى جانب هذا ميزات أخرى • فهى تسمح بقدر من الحرية الفكرية لا يمكن أن تقوم له قائمة فى ظل نظام استبدادى •

والديموقراطية لاتعنى انتفاء الاضطهاد تماما • ولكن الاضــطهاد الذى قــد يظهر تحت نظام ديموقراطى قاصر على فئــة قليلة بعض الشىء مثل الاضطهاد الذى لحق بطائفة الكويكرز فى نيوانجلاند لفترة قصيرة من الزمن ، أو الاضطهاد الذى أصاب طائفة المورمون فى القرن التاسع عشر من جراء ممارستها لتعدد الزوجات •

ويرى رسل أن الديموقراطية وان كانت لا تقف فى وجه الحرب بصورة مطلقة فهى أقل رغبة فى اشعال نار الحرب من النظم الاستبدادية • ويعزو رسل السبب فى هذا الى أن أصحاب المناصب والساسة هم الذين يجنون وحدهم ثمار الحرب ، فى حين أن عبء الحرب كله يقع على عاتق الرجل العادى • فطبيعى اذن أن يعزف الرجل العادى عن الحرب أكثر مما يعزف عنها رجل السياسة • أضف الى ذلك أن شهوة القوة تحرك الساسة • وهذه الشهوة الى القوة والمجد تدفع الى اندلاع لهب الحرب • وميزة الديموقراطية أن السلطان موزع بين العاديين من البشر وهم أناس لاتحركهم شهوة القوة والسلطان بقدر ماتحرك رجال الحكم والسياسة •

« واذا نشبت حرب ثالثة ــ لا قدر الله ــ فمن الواضح أن عداوة السياسة الروسية وعدوانها منذ سنة ١٩٤٥ حتى الآن سيكونان السبب الرئيسي فى نشوبها مهما كانت الشرارة الاخيرة التى تسبب الانفجار • ولذلك أظن أنه قد يمكننا القول بوجه حق أن حب السلام يميز النظــام الديموقراطى على صور الحكم الاخرى •

وفى رأى رسل أيضا أن النظام الديموقراطى أكفأ فى مجال الحرب من الديكتاتوريات ، وحجته على ذلك أن نتائج الحروب الهامة التى وقعت

خلال المائتى وخمسين عاما الماضية شاهد على صحة ما يذهب اليه من منعة الديموقراطية وانتصارها النهائى على أنظمة الحكم الديكتاتورية ٠ ويعتقد رسل أن السبب فى هذا هو احساس الانسان الذى يعيش فى ظل الديموقراطية أنه يدافع عن كرامته وعزته وقدرته على توجيه النقد بحيث يصبح من العسير على الحكومة الديموقراطية أن تتمادى فى أخطائها أو تخنق المبادأة الحكيمة فيمن تتوافر لديهم بحيث لا يحل البيروقراطيون محل الرأسمالية المختفية ، الأمر ألذى يهدد بتجديد الصراع القديم بين العمال والادارة ٠

« وانى أحب أن أرى تسيير الشئون الداخلية لأية صناعة كبيرة مثل السكة الحديد أو التعدين بأسلوب ديموقراطى لا دخل للدولة فيه ولكن بوساطة العاملين فى هذه الصناعة تاركين الشئون الخارجية فقط فى أيدى الدولة ٠ والدولة الحديثة مترامية الأطراف ، والموظفون فى ظل الديموقراطية نفسها ينأون للغاية عن الناخبين لدرجة أنه لا يتبقى لدى العاملين فى أية صناعة كبيرة مؤممة غير النذر اليسير من المبادأة الشخصية ٠

وأعتقد أن عدم توافر الفرصة لتحقيق المبادأة الشخصية يشكل أحد الأخطار الجسيمة فى العالم الحديث ٠ فهو يفضى الى فقدان الاهتمام واللذة والحياة ، والى الاحساس بالعجز ومن ثم الى التشاؤم ولهذا ينبغى أن يتوفر لكل انسان نشيط ذى معتقدات قوية بعض المجالات كبرت أم صغرت ، حيث يأمل أن يكون فعالا ، ولا يمكن الوصول الى هذا سوى عن طريق توسيع رقعة اللامركزية عما هى عليه الآن ٠

وقبل الحرب العالمية الأولى كان السندكاليون فى فرنسا والاشتراكيون الحرفيون فى انجلترا يدافعون عن هذه الفكرة بصور مختلفة بعض الشيء ٠ ولكن الثورة الروسية استبدت بخيالهم فاندفعوا فى طيش ونزق نحو اشتراكية الدولة ، والأوتوقراطية البيروقراطية ٠٠ »

ويعرض رسل للعلاقة بين الديموقراطية والحرية الفردية فيقول ان هذه العلاقة ليست وثيقة كما نظن أحيانا ٠ فمن الناحية النظرية ليس هناك تعارض بين الديموقراطية وبين القضاء التام على حرية الأقليات ٠ وعلى هذا لايصح لنا الزعم بأن تحريم الشيوعية قانونا فى البلاد التى تحمل فيها الأغلبية العداء للشيوعية أجراء غير ديموقراطى بالمعنى الوثيق لكلمة ديموقراطية ٠ ومع هذا فهناك صلة سيكولوجية هامة تربط بين الديموقراطية والحرية الفردية ٠ فعدم احترام حرية الفرد يجعله يجنح

نحو التمرد العنيف • فاذا كثر عدد الناس الذين يجنحون نحو التمرد العنيف بات من العسير جدا تسيير نظام الحكم على أسس ديموقراطيـة حقة •

والاحتفاظ بنوع معين من الحريات فى ظل الديموقراطية من أشـق الأمور جميعا • وهو نوع يستمد أهميته من خدمة المجتمع بطريقة لا تتضح للجهلاء من الناس • ويتلخص هذا النوع فى البحث الفكرى الجديد الذى يثير فى الناس الكراهية لأنه يحرك التحيزات القابعة فى أعماقهم وهناك شواهد كثيرة على ذلك • فقد كان لوثر يعتبر كوبرنيكس مجرد متلاعب فكرى يريد أن ينال الشهرة وذيوع الصيت بسبب شذوذه • وكـان كالفين يشاركه هذا الرأى • وقصة الكنيسة الكاثوليكية مع غاليليو من معاد القول • وفى نظر رسل أن الديموقراطية لم تكن ـ حتى ولو توفرت حينذاك ، لتحمى غاليليو من الاضطهاد الذى أصابه •

ونحن نرى فى أمريكا اليوم شيئا يعيد الى أذهاننا الاضطهاد الذى يلحق بالمجددين فى الفكر • فالمدرس الذى يعلم التاريخ او الاقتصـاد أو العلوم الاجتماعية بأسلوب يغاير ما اتفق عليه الجهلاء والمتعصـبون يتعرض للتشريد الاقتصادى •

ويقول رسل أنه ليس من الصحيح فى شىء أن الديموقراطية وحدها تصون الحرية الفكرية وتضمنها فكثيرا ما يكشف التاريخ النقاب عن الحكام المستبدين الذين يهرعون لحماية رجال الفكر المتحننين، وانقاذهممن براثن الجماهير الغاضبة • فقد كان أرسطو يعيش فى طمأنينة وأمان فى أثينا يحميه الاسكندر • فلما مات الاسكندر اضطر المعلم الأول الى الفرار طلبا للنجاة • وكان ابن رشد يعيش فى حماية حكام الاسلام ورعايتهم حتى قاربت حياته على الانتهاء عند ما ازداد الضغط الشعبى على الحكومة بشكل لم تستطع معه مقاومته • وفى انجلترا قرر البرلمان ان الطاعون الذى اجتاح لندن قد جاء نتيجة النقمة الالهية على زندقة الفيلسوف هوبز وبعده عن التقوى والورع• ولكن الملك تشارلس الثانى مد اليه يد العون والحماية وفى ولاية تينسى الامريكية تقرر منع تدريس نظرية التطور • ولا يمكن القول بأن هذا المنع قد تم بطريقة غير ديموقراطية • وفى القرن الثامن عشر اضطرت الحكومة الفرنسية العـالم الطبيعى بيفون الى التراجع فى رأيه الذى ينادى بأنه ليست كل الجبال القـائمة الآن ، موجودة منذ بداية العالم •

يقول رسل ساخرا أن للديموقـــراطية ميزة قد تفوق كل المزايا الأخرى ، وهى أن ما يقرب من نصف الأمة المعارض يعتقد أن الحكومة مشكلة من قلة من الأوغاد • ويضيف رسل أنه كثيرا ما نجد أن الأمر كذلك • ولكن ليس هناك سبيل لاستمساك عدد كبير من أصحاب النفوذ بهذا الرأى غير سبيل الديموقراطية •

ويلفت رسل الانظار الى ظاهرة يتميز بهـا القرن العشرون • هذه الظاهرة هى عبادة « الحكومة » أو الدولة ، وهى الصورة العصرية التى تتخذها عادة عبادة الأصنام والتى تتجلى فى نظرة هيجـــل الى الدولة باعتبارها رداء الله • ويحـذرنا رسل من الاخطار الجسيمة التى تنطوى عليها مثل هذه العبادة كما يرى أن رسوخ قدم الديموقراطية يجعل من المتعذر الانسياق وراء مبدأ عبادة « الدولة » •

ويأسى رسل لافول نجم الحرية كما عرفها القرن الماضى فى القرن العشرين ، كما يعزو اضمحلال الحرية فى قرننا الراهن الى اعتبــارات الخوف المسيطر على أذهان الناس • واذا كان للخـــوف ما يبرره فان الانتقاص من الحرية بدافع الخوف لن يخلص العالم من مصـــادر هـذا الخوف • ففى أمريكا مثلا تعهد مهمة السماح للأجانب بدخول الأراضى الأمريكية الى سلطات البوليس غير المتعلمة • وفى جهلها تظن هذه السلطات أن كل عالم قادم من أوروبا لايعدو أن يكون جاسوسا يعمل لحساب الروس جاء لينقل الى الكرملين الأسرار الذرية التى يفلح فى اكتشافها الامريكان الأذكياء ــ أضف الى هذا ان سلطات البوليس تستبعد من البحث النووى كل عالم أمريكى لا يكون رجعيا فى فكره السياسى • ويقول رسل أن مثل هذه الاجراءات ستقضى الى ضعف مستوى البحث الأمريكى وضعف الكفاءة التكنولوجية •

ويعيب رسل على النظم الديموقراطية مظهرا آخر من مظاهر التأخر الفكرى ، فجامعات الدولة فى أمريكا تستمد ميزانيتها من الضرائب واعتماد نفقات هذه الجامعات على الضرائب يجعل دافع الضرائب العادى يشعر بأن من حقه أن يعترض على تدريس أى شىء لايروقه ، دون ان يخطر بباله أن الانسان الذى يقف حياته على دراسة موضوع معين أقدر منه فى الحكم على هذا الموضوع ، واذا كانت الديموقراطية تبارك مثل هذا التدخل وتحميه فستصبح مضحكة ما فى ذلك شك •

ويختتم رسل حديثه عن الديموقراطية بقوله أنها ليست دائما وفى كل مكان أفضل صورة للحكم • فانه لا يمكن ممارستها بنجاح بين أقوام

لا تعرف التمدن بالمرة • كما أنه لا يمكن تطبيقها فى شــعب مكون من مجموعات مختلفة متنافرة يناصب بعضها البعض كراهية أكيدة وعــداء راسخا ولا يمكن ادخال الديموقراطية فجأة فى بلاد لم تعتد فكرة الأخذ والعطاء المصاحبة لحرية الحكم • فالديموقراطى لا يضره أن يساوم وأن يقدم بعض التنازلات فى ســبيل الوصــول الى حل وسط يرضى جميع الأطراف المعنية •

ومع هذا كله فان رسل يرحب بالنظام الديموقراطى كلما كان الى اقامته سبيل • ويلخص رسل أسباب استمساكه بالديموقراطية فيمايلى:

أولا : وقبل كل شيء لأن الديموقراطيــة تكبل أنانية الانســان • فالحاكمون يوقعون المظالم على المحكومين فى غالب الأمر ما لم يحل دون هذا حائل ، والماضى شاهد على هذا ، فقد أساء البيض معاملة الزنوج ، وأساء الأرستقراط معاملة الفلاحين ، كما أساء الرجال معاملة النساء • والظلم لا يقتصر على الماضى فهو يمتد الى الحاضر فجرائم ستالين ما زالت ماثلة فى الأذهان ، وبشاعات هتلر ليست بحاجة لمن يذكرنا بها • ويكن رسل الاحترام للديموقراطية اساسا لأن اقتراف مثل هذه الفظائع يكاد يستحيل فى ظلها •

ثانيا : لأن الديموقراطية يمكنها أن تزيل أســباب شكوى وسخط قطاعات من الناس دون حاجة الى الالتجاء للعنف والتمرد • ويرى رسل أن الحرية المنيعة لا يمكن أن تتوافر الا فى ظل الديموقراطية • وعلى الرغم من أنه يمكن كما رأينا فيما سبق أن تقوم للديموقراطية قائمة بدون حرية غير أنه لا يمكن أن تقوم للحرية الاكيدة قائمة بدون ديموقراطية •

ثالثا : يرى رسل ان فى أعناق الدول الغربية دينا عميقا وواجبا عليهــا أن تؤديه للانســانية فواجبها لا يقتصر على الحفــاظ على التراث الرومانى ـ الاغريقى والتراث المسيحى فحسب بل ينبغى أن يتعداهما الى الحفاظ على الروح العلمية التى اكتسبتها الحضارة الغربية خلال القرون الأربعة الماضية • وتتلخص هذه الروح العلمية فى احلال التفكير العلمى محل الخزعبلات •

وأخيرا ينصح رسل الديموقراطيــات الغربية بالتأنى والصبر فى معاملة الاتحاد السوفييتى لا لأن الاتحاد السوفييتى يمثل شيئا حسنا او شيئا حبيبا الى نفســه ، بل لأن التورط فى حــرب نووية شر لا بد من تجنبه • ويقول رسل أن الوقت وحده كفيل بزيادة رقعة الحرية فيه •

العلاقة بين الديموقراطية والليبرالية

يقول رسل ان المذهب التجريبى هو الفلسفة الوحيدة التى يمكن على أساسها تبرير الديموقراطية من الناحية النظرية ، كما أنها الفلسفة التى تتفق مع النظرة الديموقراطية فى مزاجها العقلى • وقد أوضح الفيلسوف لوك الذى يعتبر مؤسس المذهب التجريبى فى العالم الحديث مقدار الصلة الوثيقة التى تربط بين هـذا المذهب وبين آرائه فى الحرية والتسامح ومعارضته للملكية المطلقة • « وهو لن يصيبه التعب مطلقا من تأكيد عدم يقينية معظم معارفنا دون أن تحدو به الى هـذا النية المتشككة التى نجدها عند هيوم ، ولكن بقصد تبصير الناس بأن الصواب قد يجانبهم وبأنه ينبغى عليهم أن يدخلوا هذه الامكانية فى اعتبارهم عندما يجابهون أصحاب الرأى الذين يختلفون معهم • لقد شاهد لوك الشرور التى جلبتها حماسة المتعصبين الطائفيين فى الحرب الأهلية ، والتى جلبتها العقيدة المتزمتة فى حق الملوك الالهـى • واعترض على كلتا الحماسة والعقيدة المتزمتة داعيا الى مذهب سياسى تدريجى ، تخضع كل نقطة من نقاطه للتجربة والاختبار بما تحققه من نجاح عند التطبيق » •

ويضيف رسل الى هذا قوله ان النظرية الليبرالية فى السياسة بمعناها العام هى نتاج الاشتغال بالتجارة ، وأن أول مثال معروف لها كان فى مدن ايونيا فى آسيا الصغرى التى كانت تعيش على التجارة مع مصر وليديا . وعندما بدأت أثينا فى عصر بركليز تشتغل بالتجارة تبنى الأثينيون الأفكار الليبرالية • وبعد خسوف طال أمده انتعشت الأفكار الليبرالية من جديد فى مدن لومبارد فى القرون الوسطى ، وانتشرت الليبرالية فى ايطاليا حتى قضى عليها الاسبان فى القرن السادس عشر • ولكن الاسبان أخفقوا فى اعادة فتح هولندا كما أخفقوا فى السيطرة على انجلترا • وبذلك أصبحت هولندا وانجلترا رائدتى الليبرالية ، وتتزعمان التجارة فى القرن السابع عشر • وفى يومنا الراهن انتقلت الزعامة الى أيدى الولايات المتحدة •

يقول رسل أن السر فى العلاقة بين التجارة والليبرالية واضح • فالتجارة تضطر المشتغلين بها للاتصال بأناس وأقوام يغايرونهم فى

التقاليد والعادات • وبهذا تقضى على تزمت من لا يبارحون ديارهم وتخلصهم من ضيق الأفق • وثمة أمر آخر فالعلاقة بين المشترى والبائع علاقة تنهض على التفاهم بين الطرفين • والتجارة الرائجة الرابحة تعتمد على نفهم كل طرف لوجهة نظر الطرف الآخر • صحيح أنه ليس هذا هو الحال دائما • فهناك بطبيعة الأمر التجارة الاستعمارية التى ترغم الناس على الشراء بقوة السلاح الغاشمة • ولكن ليس هذا هو نوع التجارة التى يعنيها رسل بقوله أن التجارة تولد الفلسفات الليبرالية التى قدر لها أن تزدهر فى أحسن صورها فى البلاد التى تشتغل بالتجارة ، والتى تنعم بالثروة دون أن تملك من أسباب القوة العسكرية الشيء الكثير ، ويقول رسل أن أقرب أمثلة فى الوقت الحاضر الى المدن التجارية الموجودة فى الأزمنة القديمة والعصور الوسطى هى البلاد الصغيرة كسويسرا وهولندا واسكندناوه •

والمذهب الليبرالى ينهض على التسامح والحرية كلما كان اليهما سبيل ، وعلى الاعتدال والبعد عن التعصب فى اعتناق البرامج السياسية• فالديموقراطية نفسها تنتفى منها الروح الليبرالية اذا هى أصبحت ديموقراطية قائمة على التعصب مثلما حدث مع أتباع روسو فى الثورة الفرنسية • وقد اتضح تعذر قيام الديموقراطية الحقة بسبب التعصب الأعمى لها فى انجلترا فى عهد كرومويل وفى فرنسا فى عهد روبسبير • « والليبرالى الحق لا يقول هذا هو الصواب » بل يقول « اننى أميل الى الاعتقاد أنه من المحتمل أن يكون هذا الرأى فى الظروف الراهنة أحسن الآراء » • وهو سيدافع عن الديموقراطية بهذا المعنى المحدود وغير المتزمت لا أكثر » •

« وجوهر النظرة الليبرالية لا تتلخص فى ماهية الآراء التى تعتنق ، ولكن فى كيفية اعتناقها • فبدلا من التسليم بها تسليما قاطعا يحسن اعتناقها بصورة تقديرية تخضع لاحتمالات الخطأ والصواب مع الادراك بأن التوصل الى دليل جديد قد يؤدى فى أية لحظة الى نبذها • هذا هو الأسلوب المتبع فى اعتناق الآراء فى مجالات العلم ، على خلاف الأسلوب المتبع فى الايمان فى اللاهوت فقرارات مجلس نيسيا مازالت سارية المفعول حتى يومنا الراهن ، فى حين أن آراء القرن الرابع عشر فى العلم لم يعد لها أى وزن أو اعتبار ونحن نجد فى الاتحاد السوفييتى أن أحكام

ماركس الرشيدة فيما يتعلق بالمادية الجدلية تعتبر قضايا لا تقبل الشك لدرجة أنها تساعد فى تحديد آراء علماء التناسل بصدد أفضل وسيلة للحصول على أحسن نوع من القمح فى حين أنه يظن فى بقاع أخرى فى العالم أن التجربة هى السبيل السليم لدراسة مثل هذه المشاكل . والعلم تجريبى ، يحتكم الى التجربة ، ولا يقطع بشىء . ولذلك فالنظرة العلمية هى المقابل الفكرى للنظرة الليبرالية فى المجال العلمى » .

ويلقى رسل المزيد من الضــوء الكاشف على جذور الليبرالية التى يدين بها فى العصر الحديث فيقول : « ان الفيلســوف لوك هو أول من فصل نظرية المعرفة القائمة على الملاحظة والتجربة ، كما انه بشر بالتسامح الدينى » ، ودعا الى الأنظمة النيابية والى تقييد سلطان الحكومة عن طريق كبحها ومراجعتها . ورغم أن لوك لم يستحدث من هذه المبادىء ســوى القليل ، الا أنه طورها بحيث أصبحت ذات وزن واعتبار مما أغرى الحكومة الانجليزية بتقبلها فى وقت كانت فيه هذه الحكومة ليست على اســتعداد لتقبلها . وقد كان لوك ــ مثله فى ذلك مثل رجال فترة ١٦٨٨ الآخرين ــ متمردا على كره وكان يمقت الفوضى بمقدار ما يمقت الاستبداد . وهو فى الأمور الفكرية والعلمية معا يمثل النظام فى غير تحكم أو سلطان . ويمكن اعتبار هذا الشعار الذى ينضوى تحته العلم والليبرالية على حد سواء ، ويعتمد هذا بجلاء على مبدأ الاتفاق والتراضى . وهو يتضمن فى مجال الفكر مقاييس للدلالة والبرهنة التى تفضى بعد نقاش سليم الى قدر من الاتفاق بين الخبراء كما انه يتضمن فى مجال التطبيق والعمل الخضوع للاغلبية بعد ان تتاح لكافة الأطراف فرصة توضح فيها وجهة نظرها .

ويعرض رسل لحماقة حــرب التعصب الضروس التى دارت رحاها بين البروتســتانت والكاثوليك على مدى قــرن ونصف من الزمان ، تلك الحرب التى أنهكت قوى المتقاتلين دون أن تنتهى بانتصار جانب على جانب. حينئذ التفت المستنيرون من الناس الى سخافة التقاتل والتطاحن واقتنعوا بضرورة وجدوى التسامح . وقد كان لوك رائدا لهذه الدعوة الى التسامح والتفاهم .

ويرى رسل أن العالم الراهن يمر بفترة جديدة من الحروب الدينية تشبه الحروب الدينية القديمة وان اختلفت فى أسمائها . ان محنة العالم الحديث كما يراها رسل تتلخص فى ابتعاده عن المثل الليبرالية التى لم تعد بسبب فتورها تغرى شباب اليوم باعتناقها .

« نحن نجتاز الآن للمرة الثانية عهدا من الحروب الدينية · ولكن اسم الدين الجديد يعرف بالايديولوجية · وفى هذه اللحظة الراهنة يشعر كثير من الناس أن الفلسفة الليبرالية ملطفة أكثر مما ينبغى ، وأن العمر قد تقدم بها فهى تجتاز من عمرها منتصفه · والشباب المثالى يبحث عن شىء أكثر حدة وأكثر وخزا مما تقدمه الليبرالية اليهم ، شىء يحتوى على اجابة أكيدة لكل ما يعن لهم من أسئلة ، شىء يستحث فيهم النشاط التبشيرى ، ويمنحهم الرجاء فى اقامة فردوس على الأرض عن طريق الغزو ·

وباختصار ، اننا نخوض فى عصر ايمان جديد · والقنبلة الذرية لسوء الحظ أمضى وأسرع فى فتكها من خشبة الاحراق (التى كانت الكنيسة تحرق عليها المهرطقين فى القرون الوسطى) ولا يمكننا – اذا أردنا السلامة والأمان – أن نسمح لها بقطع شوط أكبر · ويجب أن يداعبنا الامل فى التمكن من العمل على انتشار نظرة أكثر عقلية ، فالعالم لايمكنه الاستمرار على قيد الحياة الا باحياء التسامح الليبرالى ، وكذلك البعد الليبرالى عن القطع برأى فى عسف وتزمت» ·

ومما يدلنا على اقتناع رسل بالفكر الليبرالى (الذى يقترن بالديموقراطية) انه يرى أن الديموقراطية الليبرالية أصلب عودا من شتى المذاهب القائمة على التعصب ، لا فى مجال السلام وحده ، بل فى ميدان الحرب كذلك · ودليله على ذلك هو انتصار الجانب الديموقراطى فى حربين عالميتين · صحيح ان اللاهوت المدرسى والماركسية والفاشية – وهى مذاهب تنهض على التزمت والمسلمات ، ولا تستند الى أساس تجريبى كالذى تستند اليه الليبرالية – تتمتع بقدرة أكبر على خلق درجة من التماسك الاجتماعى تفوق التماسك الذى تحققه الليبرالية ، الا أن هذه المذاهب بحكم تعصبها تقضى على قطاعات مفيدة فى المجتمع ورغم هذا فرسل لا يرى أن الايمان بالمسلمات القاطعة ضرورى لصيانة التماسك الاجتماعى وحمايته · ويستشهد على ذلك بأن انجلترا أظهرت عام ١٩٤٠ أمام هتلر تماسكا لم تظهره أية دولة أخرى ·

ويدافع رسل عن الليبرالية ليس باعتبارها فى جانب الحق والصواب فحسب ، بل يدافع عنها من الناحية الاخلاقية أيضا · فالتسامح الليبرالى لا يقبل الخسف الذى تفرضه المذاهب غير الليبرالية · ويختم رسل مقالته عن « الفلسفة السياسية » بقول يلخص فيه رأيه فى الليبرالية ·

« واختتم بقولى أن الليبرالية التجريبيـة (التى لا تتعـارض مع الاشتراكية الديموقراطية) فى يومنا الراهن كما كانت فى أيام لوك - هى الفلسفة الوحيدة التى يمكن أن يتبناها انسان يطلب شيئا من الدليل العلمى على صحة معتقداته ، كما يبغى السعادة الانسانية أكثر من رغبته فى انتشار تلك العقيدة أو ذاك الحزب • وعالمنا المضطرب المعقد فى حاجة الى أشياء مختلفة اذا شاء أن يتجنب الدمار - ومن أهم الاشياء انه ينبغى على الدول التى لا تزال تؤازر المعتقـدات الليبرالية ، أن تؤمن بهـذه المعتقدات ايمانا عميقا ونابعا من القلب ، وليس ذلك الايمان المتردد الذى يظهر بمظهـر المعتذر فى موقفه نحو تعصبات اليمين واليســار « لكنها يجب أن تقتنع أعمق الاقتنـاع بقيمة الحـرية ، والبحث العلمى الحر ، والتسامح المتبادل لأنه يكاد يستحيل على الحياة على كوكبنا المنقسم على ذاته من الناحية السياسية ، والموحد من الناحية التكنيكية ، أن تستمر دون ايمان بهذه المعتقدات » •

الديموقراطية والوسائل العلمية

يرى رسل أن مفهوم « الحرية » كما كان سائدا فى القرنين الثامن والتاسع عشر لم يعد المفهوم الصحيح فى يومنا الحاضر ، والسبب فى هذا راجع الى التغييرات العلمية التى طرأت على تركيب المجتمع « اننى أميل الى الاعتقاد بأن « الحرية » كما كان مفهوما من الكلمة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تعد المفهوم الصحيح تماما • فأنا أفضل استبدالها « بالفرصة المتـاحة أمام المبـادأة » • والسبب الذى يدعونى الى اقتراح هذا التغيير هو طبيعة المجتمع العلمى » •

ويعرض رسل للفتور الذى اعترض تحمس الناس للديموقراطية فى الوقت الراهن • ويرد هـذا الفتـور الى أن الشرور التى كان دعاة الديموقراطية الرواد يهدفون الى ازالتها قد اختفت من مسرح الاحداث ، والى أن الناس قد نسوا ما حققته الديموقراطية لهم من نجاح فبـاتوا ينصتون الى استهزاء كارليل وهجوم نيتشه القارص عليها باعتبارها أخلاق العبيد •

ويقول رسل أن هناك ثلاث وجهات نظر تقضى الى ثلاث فلسفات مختلفة فيمكن النظر الى الفرد على اعتبار أنه : (١) رجل عادى ٠ (٢) أو بطل ٠ (٣) أو مجرد ترس فى آلة ٠ والنظـــرة الاولى تقضى بنا الى الديموقراطية بمعناها التقليدى القـــديم ٠ وتؤدى النظرة الثـــانية الى الفاشية ٠ أما النظرة الثالثة فتؤدى الى الشيوعية : « وأعتقد أنه اذا شاءت الديموقراطية أن تستعيد القدرة على الايحاء بالاعمال القوية الفتية فانها بحاجة الى أن تأخذ فى اعتبارها ما هـــو صحيح فى النظرتين الأخريين للأفراد » أى أن السبب الذى يجعـل كثـيرا من الناس ينفضـون عن الفكرة الديموقراطية هو أن الديموقراطية تهتم بالانســان كرجل عادى وتتجاهل الجانبين الآخرين فيه ٠ ويرى رسل أنه لا أمل فى أن تستعيد الديموقراطية الارض التى فقدتها ، الا اذا أرضت فى الانسان نزعتـه كبطل ونزعته لكى يكون نافعا فى آلة الدولة ٠

والاتجاه العلمى الحديث يعزز الجانب الذى يجعل الانسان ترسا فى آلة هائلة ضخمة ويتجاهل كيانه كشخص عادى وكبطل ٠ « والذى فعله العلم هو زيادة جانب الحياة الذى يلعب فيه الانسان دوره كترس الى الحد الذى يتهدد الجانب منه كبطل أو كانسان عادى بالخطر ٠

ويقول رسل : ان النظام الاجتماعى الصالح هو الذى ينجح فى مزج هذه العناصر الثلاثة المختلـفة فى كيـان نفسى منسجم متكامل ٠ فكبطل ينبغى أن تتوافر لدى الانسان الفرصة فى المبادأة وكرجل عادى ينبغى أن يتوافر له من الأمن والطمأنينة ، أما كترس فينبغى أن يكون نافعا ٠ « ويمكن ارضاء نزعته كترس فى آلة بمطالبته فى حزم أن يكون عضوا مفيدا فى الحياة الاجتماعية ٠ أما نزعته كرجل عادى فيمكن تحقيقها بتوفير أسباب الراحة والاستمتاع بحياته اليومية » ٠

ان الفرد فى المجتمع العلمى الحديث يشعر بضآلته وهوان شـأنه فتركيز السلطة فى أيدى قلة يسلب الكثرة قدرتها على المبادأة ، كما ان الفرد العادى يدرك أنه لا سبيل الى العمل الناجح فى المجتمع الا بالانضواء **داخل منظمات ضخمة تزداد قدرتها على العمـــل** الناجح بزيادة قوتها وضخامتها ، وهذا الاحساس بالعجز والتفاهة يسبب كثيرا من الامراض النفسية فى القطاعات النشيطة الايجابية فى الناس ٠ والحل الذى يقدمه رسل هو أن يوفر المجتمع العلمى كل مقومات المبادأة الفردية لكل فرد فيه بحيث لا يتعارض هذا مع مصلحة المجتمع ككل ، « والنقطة الجوهرية هى أن الاسلوب العلمى ، بحكم أنه يجعل المجتمع أكثر عضوية يزيد من

المدى الذى يكون فيه الفرد ترسا واذا أردنا ألا يتحول هـذا الى شر ، فيجب علينا أن نجد طرقا لمنعه من أن يكون مجرد ترس ويعنى هذا أنه يجب الحفاظ على المبادأة على الرغم من التنظيم ويمكن تحقيق المبـادأة عن طريق الحكم المحلى وتطبيق المبدأ الفيدرالى كلما كان الى هذا سبيل ، وعن طريق الاهتمام بالسياسة المحلية التى لا يحفل بها الناس فى الوقت الحاضر . والتأميم وحده لا يكفى لحل مشكلة التنظيم ولتوفير المبادأة . فقد أثبت التأميم الذى تشرف عليه وتوجهه الدولة أنه لا يقل فى ضغطه على الحرية والمبادأة عن تحكم الطبقة الرأسمالية المتخفية . ولهـذا فان الحل فى نظر رسل لا يكمن فى تركيز السلطة بل فى لا مركزيتها على أوسع نطاق فهذه اللامركزية كفيلة بتوفير مبدأ المبادأة لكل فرد نشـيط يريد أن يلعب دورا ايجابيا فى المحيط الذى يعيش فيه . ويرى رسل أن تتمتع الوحدات الصناعية بالاستقلال فيما يتعلق بالشئون بحيث لاتلحق الضرر بالمصلحة العامة للمجتمع ، وبحيث يترك تصريف الشئون الخارجية فى يد الدولة حتى يتم توحيد العالم كله عن طريق اقامة حكومة عالمية . وباقامة حكومة عالمية ستختفى الحاجة الى ممارسة السياسة الخارجية .

واندلاع الحرب أو التهديد بها يشكلان خطرا داهما على الحكم المحلى فى مجالات الصناعة والانتاج ، وعلى لامركزية الفيدراليات واستقلالها ، لأن خطر الحرب يزيد بطبيعة الحال من التركيز فى سلطة الدولة . وطالما أن هناك خطر حرب وشيكة الوقوع فانه يستحيل تجنب سلطة الدولة الا فى حدود ضيقة للغاية . وأن الحرب أساسا هى التى أنجبت سلطان الدول الحديثة المفرط .

وفى نظر رسل أن الفنانين والادباء فى الغرب الديموقراطى (فيما عدا الرسامين) يمكنهم بوجه عام فى الوقت الراهن الاحتفاظ بالكثير من مظاهر الحرية بمعناها التقليدى . فى حين أن العلماء قد فقدوا الكثير من أسباب استقلالهم القديم . والسبب فى فقدان هذا الاستقلال أن العالم لا يستطيع أن يؤدى عمله دون استخدام أجهزة علمية باهظة التكاليف تتكبد نفقاتها بعض الهيئات العامة ، وتحرص سلطات الأمن على الوثوق من آراء العلماء الباحثين وتطالبهم بالولاء السياسى . ويناصب رسـل التجسس الذى تقوم به أجهزة الدولة للتأكد من ولاء علمائها السياسى العداء ، ولكنه يجد لهذا التخوف من جانب الدولة ما يبرره . والامر الذى لا يستسيغه أو يجد ما يبرره على الاطلاق هو أن تتبنى الدولة مجموعة من الافكار العلمية . وتحاول أن تفرضها على الابحاث العلمية كما كان الحال فى روسيا فى عهد ستالين . ويرى رسل أن البحث العلمى لاينبغى

أن يخضع لأية قيود بل يجب أن يكون حرا طليقا دون أن يتحكم فيه وفى نتائجه اطار عام تحاول الدولة عن طريق التعسف أن تفرضه عليه ٠ والدول الديموقراطية بوجه عام أسعد حالا من روسيا الشيوعية فى هذا الشأن لأنها لا تتطلب فى العادة من الباحث العلمى أكثر من الولاء السياسى فى حين يتطلب الاتحاد السوفييتى منه نوعين من الولاء ، السياسى والعلمى ٠ ويعتقد رسل أن عدم اعتماد الفنان على أجهزة باهظة التكاليف يجعله يتمتع بقسط وافر من الاستقلال أكثر من زميله العالم ٠ ولكن الفنان فى مقابل هذا القدر من الحرية يقاسى من مضايقات لايتعرض لها العالم اذ من السهل تقدير كفاءة العالم فى حين يصعب تقييم قيمة العمل الفنى صعوبة لا حد لها ٠

ويدافع رسل عن الديموقراطية ، وعن الاشتراكية الديموقراطية ، ويرجو من الديموقراطية صونا لكيانها أمام الفلسفات التى تسعى لاكتساحها أن توفر مبدأ المبادأة والمغامرة لكل انسان نشيط يريد ألا يكون خاملا فى المحيط الذى يعيش فيه ٠ ويرى رسل أن استمرار الحرية الليبرالية كفيل بالتنفيس عن رغبات الانسان نحو المبادأة أو المخاطرة ، « وطالما أن الحريات الليبرالية تستمر فى البقاء فيمكنك الاشتغال بالدعاية من أجل أى شىء يثير اهتمامك » ٠ ويكفل هذا ارضاء الغرائز المقاتلة فى معظم الناس « والنوازع الخلاقة غير المقاتلة مثل نوازع الفنان والكاتب لا يمكن ارضاؤها بهذه الطريقة ٠ والحل الوحيد لها فى دولة اشتراكية هى الحرية فى استخدام وقت فراغك كيفما شئت » ٠

العلاقة بين الديموقراطية والعلم

فى عام ١٩٤٧ أذاع رسل حديثا على موجات الأثير يميط فيه اللثام عن العلاقة بين الديموقراطية والنظرة العلمية قال فيه : « يبدو لى أن للتقليد الليبرالى الذى نشأت فى أحضانه أهمية عظيمة فى اسعاد البشر ٠ صحيح أن نمو التنظيمات الصناعية الهائلة فى المجال الاقتصادى قد حتم معالجة جديدة لمشكلة توزيع العدالة ، ولكننى لم أجد فى النواحى الاخرى سببا يدعونى لهجران المثل العليا التى تشربتها فى شبابى والتى تتمثل فى حرية الكلام والتسامح والديموقراطية واحترام الفرد فى الحدود التى تسمح بها الحاجة للنظام العام ٠ وهذه المثل العليا فى المجال السياسى هى المقابل للاسلوب العلمى فى المجال الفكرى وحيثما تنبذ المثل العليا

فى أحد هذين المجالين يعانى المجال الآخر • وهذه العلاقة بين الديموقراطية والنظرة العلمية هى ما أعنى الآن بتوضيحها (١) •

ويقول رسل ان هناك بوجه عام منذ عهد الاغريق حتى يومنا الراهن وجهتى نظر فيما يتعلق بتكوين المعتقدات الحقة ، وبأحسن نظام للحكم احداهما تقوم على السلطة ، والاخرى تنهض على المناقشة والاستقصاء الحر • والاتحاد السوفييتى يتبع الاسلوب الاول ، أما الغرب فينبع الاسلوب الآخر • وهو الاسلوب القائم على منهج البحث العلمى • ولم يكن انتصار المنهج العلمى فى الغرب على التزمت الفكرى أمرا يسيرا فقد حارب العلم فى استماته لكى تكتب له الحياة ابان القرنين السادس والسابع عشر بل ابان القرن التامن عشر • ففى هذه الفترة أشعل الفكر التقليدى المتزمت حربا شعواء على العلم فأحرق جيوردانو برونو ، ووصم غاليليو الذى كان يدين بنظريات كوبرنيكوس ، واضطرت جامعة السربون بيفون الى انكار ما ذهب اليه من أن الجبال والوديان القائمة فى الوقت الحاضر لم يكن لها وجود منذ الخليقة • والذى ساعد النظرة العلمية على الانتصار أساسا فى الغرب هو الفوائد التى تجنى منه من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية • « ولم يكن هناك سبيل الى مقاومة الفوائد البرجماتية التى تجنى منه من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية » • ولكن موقف عدم الاكتراث بالسلطة الذى غرسه العلم لم يكن فى الامكان قصره على المسائل العلمية المحضة • والثورتان الامريكية والفرنسية ، ونمو الديموقراطية فى انجلترا ، كانت جميعها نتائجه الطبيعية » •

ان العلاقة بين الديموقراطية والعلم أوثق مما قد يخطر على البال ، فكلاهما يستندان الى حرية المناقشة والبحث والاستقصاء • صحيح ان الديموقراطية نفسها لا تخلو من الايمان بالسلطة ، فأغلبية الناس تسلم بأن الشمس تبعد عن الارض ٩٣ مليون من الاميال وبأن سرعة الضوء تبلغ ١٨٦ ألف ميلا فى الثانية دون أن تحاول أن تضع هاتين الحقيقتين موضع الفحص والاختبار • والناس يصدقون مثل هذه الحقائق العلمية لأنهم يضعون ثقتهم فى بعض الاشخاص الذين يعتد برأيهم • ولكن السلطة فى مثل هذه الاحوال لا ترتكز على الارغام اذ أنه فى استطاعة أى انسان أن يعتنق ما يحلو له من آراء بشأن سرعة الضوء اذا كان على استعداد أن يكون أضحوكة أمام الآخرين وأن يظهر بمظهر المغفل • وجوهر الروح العلمية يتلخص فى عادة اصدار الاحكام التى تستند الى الادلة والبراهين

---

(١) الحقيقة والخيال « دفاع عالم عن الديموقراطية » ص ١٠٢ •

وفى تشجيع الفكر على الانطلاق فى المجالات الاخرى غير العلمية · وبذلك يسهل على الانسان أن يتساءل عما يسوغ أن يرث بعض الناس الغنى ويرث بعضهم الآخر الفقر ، وعما يسوغ للرجل الأبيض أن يسيطر على الشعوب التى تختلف فى بشرتها عنه ويستغلها ، وعما يسوغ استعباد الرجل والمرأة ·

ويرى رسل أن الديكتاتورية تحمل فى طياتها العداوة للروح العلمية · « وعلى العكس من ذلك فان أولئك الذين يسعون فى العالم الحديث لاعادة اقامة صور الحكم الاستبدادى سواء فى ألمانيا أو فى روسيا يناصبون النظرة العلمية العداء » · لقد كان النازيون قبلا ينادون بالتفكير بالدم لا بالمخ · وكان لهذا المبدأ نتائج فى منتهى الغرابة مثل الاعتقاد بأن اينشتين قد صاغ نظريته فى النسبية لا لأنه يؤمن بصحتها بل كى يصيب عقول الامم غير اليهودية بالحيرة والبلبلة · وكان النازيون يعتبرون اليهود شركاء له فى مؤامراته ويعلق رسل على هذا السخف الفكرى بسخريته المعهودة قائلا : « ومن ناحيتى فانى أعتبر وجهة النظر هذه مهينة بعض الشىء لعقول الامم غير اليهودية ولكنها قد لا تكون مهينة بالنسبة لعقول النازيين · ونفس هذا الشىء يحدث فى روسيا ، فطريقة التأكد من الحقيقة ، مثل وسيلة الحصول على نوع من القمح يمكنه أن يقاوم البرد ، لا تتم باجراء التجارب ولكن بالرجوع الى الاستنتاجات التى يمكن استخلاصها من عقيدة ماركس الميتافيزيقية المادية الجدلية » ·

ان الديكتاتورية تعمل جاهدة حتى تقضى على التفكير المستقل الذكى وهى لا تشجع من الآراء سوى مايتفق مع مصلحة الحاكمين الذين يوغلون فى الطغيان والاثرة اذا لم تكن هناك رقابة على أفعالهم ·

والديموقراطية كنظام للحكم لا تصل الى أقصى مراتب الكمال · ولكن الظلم الذى يمارس فى ظلها يتضاءل اذا قورن بالظلم الذى تمارسه الديكتاتورية « قد لا تتلخص أكبر ميزة للديموقراطية على سائر أنظمة الحكم الاخرى فى أن الناس الذين يرتفعون الى القمة يتسمون بالحكمة بشكل غير عادى ، ولكن فى أنهم يعرفون ــ نظرا لاعتماد قوتهم على التأييد الشعبى ــ أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بمكانتهم اذا تجاوز ظلمهم قسطا ضئيلا معينا » ·

ويهاجم رسل اتجاها سائدا بين المفكرين فى السنوات الاخيرة ، يستهزىء من الحرية الفكرية باعتبار أنها لا تهم سوى قلة صغيرة من

المتحذلقين الذين لن يخسر العالم شيئا بتصفيتهم • ويرى رسل أن هذا الموقف ينم عن الجهل بالطبيعة البشرية وبالتاريخ • فالحركة التى قامت تنادى بمســاواة المرأة بالرجل بين فئة صــغيرة من المفكرين كانت فى بادىء الامر تذهل النساء والرجال على حد سواء ، ولو كانت تلك القلة من المفكرين قد حرمت من حقها فى الاعراب عن رأيها ، لما تمكنت المرأة من أن تصبح على قدم المساواة بالرجل • وهذا الوضع نفسه ينطبق على الحركة النقابية التى لم تمارسها الا حفنة صغيرة فى أول الامر •

والجو الديموقراطى يساعد على القضاء على الزعم من حق الرجل الابيض ان يمارس سيادته على الاجناس الاخرى • فالنقاش الحر يساعد على دحض الافكار شبه الداروينية القائمة على نظريات شبه علمية المؤيدة لمبدأ التفرقة العنصرية • « والثورة الحديثة على الديموقراطية فى جانب قطاعات معينة من الفكر اليسارى تناصب بالضرورة ، العلم العداء سواء كان هذا عن قصد أم عن غير قصد• لقد أوضح ماركس أن مصالح الطبقة العاملة مرتبطة ــ بطريقة غامضة ــ بالفلسفة المادية وبما أن علم الطبيعة الحديثة يجعل المادية « أمرا غير معقول تماما وغير مستساغ للغاية من الناحية الفلسفية فان هذا العلم يوصم باعتباره بورجوازيا • ولكن علم الطبيعة الحديث قد أفضى الى صنع القنبلة الذرية • وسيفضى هذا على المدى البعيد الى تعطيل التقدم فى النهاية • ان تخلف أى نظام ديكتاتورى أو استبدادى سيتزايد بمضى الوقت ــ وعندما يتخلف ستكون النتيجة وخيمة ليس من الناحيـــة النظرية فحسب ولكن فى أســـلوب الانتاج العلمى •

ويرى رسل أن جو الحرية الفكرية يوفر الكفاءة والاتقان فى المجالات الحربية والعسكرية وهو بطبيعة الحال لا يدافع عن الديموقراطية لأنهـا فى اعتقاده تفوق الديكتاتورية فى مضمار التفوق الحربى • ولـكن لأن النقاش الحر يميل الى زيادة روح التسامح ، وروح التسامح تميل الى منع الحرب • أضف الى ذلك أن الحـــكم الاستبدادى يولد الحقد والكراهية اللذين قد ينفجران فى أية لحظة ويطيحان به ولكن الاطاحة بالاستبداد عن طريق الحقد والكراهية لن تؤتى ثمارا طيبة بأى حال من الاحوال •

علاقة الشك بالديموقراطية

هناك مشكلتان ــ كما يقول رسل ــ تجابهان الانسان « احداهما مشكلة السيطرة على قوى الطبيعة ، ويتوسس الانسان الى هذا بالتكنيك

العلمى • والمشكلة الثانية هى الوصول الى أحسن وسيلة للاستفادة بها فى سيطرتنا على هذه القوى ويتضمن هذا مسائل مختلف عليها أشد الاختلاف مثل الديموقراطيه مقابل الديكتاتورية . والرأسمالية مقابل الاشتراكية ، والحكومة العالمية مقابل الفوضى الدولية • والفكر الحر مقابل الفكر القاطع الذى يفرض سلطانه على راى الناس والمعمل لا يستطيع أن يوفر الارشاد والتوجيه الحاسمين بصدد هذه المشاكل •

يحارب رسل الايمان بالمسلمات لأنه يفضى الى التعصب الذى هو « عدو السلام ، ويشكل عائقا لا يمكن تخطيه يعترض طريق الديموقراطية » ، ومن ضمن المسلمات التى تلحق الضرر بالانسان الاعتقاد الشيوعي الذى ينادى بأن تصفية الرأسماليين ستمنح ثقة المجتمع بالسعادة الأبدية ويدعو رسل الى نوع من التشكك يضع حدا للشرور السياسية • واذا أردنا من الفلسفة أن تخدم غرضا ايجابيا فعليها أن تلقن شيئا أكبر من مجرد الشك • صحيح أن المؤمن بالمسلمات شخص ضار ، ولكن الشكاك شخص غير نافع أيضا • وكلا الايمان بالمسلمات والشك ، بمعنى ما فلسفتان مطلقتان • احداهما تؤمن بالمعرفة والاخرى تؤمن بانتفاء المعرفة •

ويقول رسل الذى يكره زعم الانسان بأنه يملك المعرفة اليقينية ، كما يكره الشك السلبى الذى يحلو له تصوير عجز الانسان الاكيد عن معرفة أى شيء • « وبدلا من أن نقول « انى أعلم هذا » ينبغى علينا أن نقول « يخيل الى انى على علم بشيء أشبه ما يكون بهذا » • واذا طبقنا مذهب الشك الايجابى على المجال السياسى، سنتحفظ فيما نصدره من أحكام بشأن المذاهب السياسية المتباينة • « لنفرض أننى أقول أن « الديموقراطية شيء طيب » يجب على أن أعترف أولا انى لست متأكدا من هذا بالدرجة التى أتأكد معها من أن ٢ + ٢ = ٤ ، وثانيا أن « الديموقراطية اصطلاح غامض لا يمكن تعريفه بدقة » •

ويرى رسل أن المعارف تتفاوت فى درجة يقينها ، فيقينية المعرفة العلمية أكثر من يقينية المعرفة السياسية • وتتضح ايجابية مذهب الشك عند رسل فى قوله : « ان الاقرار بتفاوت شتى معارفنا فى درجة عدم يقينيتها وفى غموضها لا يكفى • فمن الضرورى أن نتعلم فى الوقت ذاته كيف نتعرف بمقتضى أفضل افتراض دون أن نؤمن ايمانا ينطوى على التسليم المتزمت » •

ويحبذ رسل بأن نلوذ بالحياد عند اصدار الاحكام ، وخاصة تلك الاحكام التى تهيج خواطرنا وتثير عواطفنا · ويلخص رسل فضيلة الموضوعية الفكرية فى هذه النصيحة · « وانى أنصح بممارسة التالى : « عندما تقابلك وأنت تطالع جملة تعبر عن رأى سياسى ، كلمات من شأنها أن تثير عواطف حارة تختلف باختلاف القراء ، حاول أن تستبدلها بالرموز أ · ب · ج وهكذا دواليك بحيث تنسى المدلول الخاص بالرموز · افرض ان أ هى انجلترا ، ب هى ألمانيا ، ج هى روسيا وطالما انك تتذكر ما تمثله هذه الحروف فان معظم معتقداتك ستتوقف على كونك انجليزيا أو ألمانيا أو روسيا · وهى أشياء بعيدة من الناحية المنطقية عن صلب الموضوع » ·

والشك عند رسل فضيلة لأنه ينطوى على شجاعة أدبية ، فالانسان يحتاج بطبعه الى الامان الفكرى ويكره التشكك · وفى نظره أن الانسان الذى يساوره الشك دون أن يكون هذا سببا فى تهافته أو خوره انسان يتحلى بشجاعة خلقية ·

والى جانب الحياد الفكرى يحبذ رسل فضيلة يطلق عليها رسل « الشمول الاخلاقى » وتتلخص هده الفضيلة فى القدرة على العطف على محنة أناس بعيدين عنا لا يهمنا أمرهم مباشرة « فاذا استطعت أن تتصف بالقدرة على الشعور بصورة جادة بالشرور النائية عنك أمكنك أن تحقق خلال شعورك متعة الشمول الاخلاقى » ·

ما الحرية ؟

يقول رسل فى مقالة نشرت فى عام ١٩٥٢ وقام بمراجعتها فى عام ١٩٦٠ : « أن الحرية لا ينبغى أن تكون مطلقة · « فالعالم لا يستطيع الحصول على أكبر قدر ممكن عن طريق نشر الفوضى فحسب ، لأن معنى ذلك أن القوى سيتمكن من حرمان الضعيف من حريته » وهو يرى أن الحرية بمعناها الاول هى اختفاء السيطرة الخارجية على أفعال الأفراد والجماعات · ويضرب رسل على هذا مثلا بالاسكيمو · فليس هناك مايضطرهم الى التعليم الالزامى أو الخضوع لسلطة الحكومة الى آخر هذه القيود · ولكن هذا المفهوم للحرية سلبى حى لو تمتع الاسكيمو بقدر هائل من الحرية · ويدافع رسل عن المفهوم الايجابى للحرية الذى يتضمن فرض بعض القيود اللازمة على الحرية ، لأن هذا هو السبيل الوحيد لأن تؤتى

الحرية ثمارها الطيبة . فنحن نعتقد مثلا أنه من الصواب ارغام الانسان على تعلم القراءة والكتابة حتى لو كان هذا يعنى التدخل فى حريته . والفوائد الناجمة عن هذا التدخل كفيلة بتبريره .

وفى رأى رسل أن هناك تقسيمين للحرية يمكننا معالجة الحرية على أساس منهما . فاما أن تقسم الحرية الى الحرية القومية ، وحرية الفرد ، وحرية الجماعات ، واما أن نقسمها الى الحرية السياسية والاقتصادية والفكرية . ولكن بنود التقسيم الثانى متشابكة بحيث لا يسهل الفصل بينها . وسنبدأ بعرض وجهة نظره فى مفهوم الحرية بمقتضى التقسيم الاول . يقول رسل أن الحرية القومية كانت سائدة فى الحياة الفكرية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، دون أن يلتفت الداعون لمثل هذه الحرية الى أنها ليست فى واقع الامر بالحرية الخالصة التى لا تشوبها شائبة ، وانها خاضعة لهيمنة العصابات المتحكمة فى عالم الصحافة » . ولم يكن أحد يفكر فى أن عصابة الصحافة مثلا تتدخل فى الحرية » أو أن هناك أى تناقض فى الكلام عن انجلترا كبلد حر فى وقت كان الناس ينعرضون فيه للنفى بسبب آرائهم الراديكالية (الثورية) .

ويرى رسل أن الحرية قد تقتضى أحيانا التحرر من بعض الحريات المرغوب فيها بشكل ظاهر ، فعندما استقلت ايرلندا عن انجلترا عام ١٩٢٢ حرمت تداول الكتب التى لا تروق الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والتى كانت انجلترا تفرضها عنوة وقسرا على ايرلندا قبل عام ١٩٢٢ عندما كانت ايرلندا تبعث بممثليها الى وستمنستر ، وكانت أصوات هؤلاء الممثلين تندحر أمام أصوات النواب الانجليز والاسكتلنديين .

ويدافع رسل عن رغبة الشعوب فى التحرر من نير الاستعمار ، ويجد أن هذه الرغبة فى تحطيم الاغلال التى ترسف فيها الشعوب أمر طبيعى للغاية . « وحيثما انتفت الحرية القومية فسيكون البحث عنها جاريا دائما على قدم وساق . وهى فى الوقت الحاضر الهدف الذى يسود شمال افريقيا كما يسود تلك الاجزاء من آسيا التى لم تتحقق لها الحرية القومية حتى الآن . والرغبة فيها جارفة وعنيفة لدرجة أنها تشكل دون ريب عدم استقرار ينطوى على الاخطار حيثما حاولت أمة أن تتولى مقاليد أخرى » .

ولكن رسل يعتقد أن هذه الحرية القومية لا ينبغى أن تتجاوز حدودها حتى لا تتعارض مع استقرار المجتمع الانسانى . « ولا يستتبع هذا ـ على الرغم من أنه يبدو أن الكثير من الناس يظن عكس ذلك ـ ألا

تخضع الأمة لأى اشراف مهما كان نوعه » • وفى الحدود التى تشكل فيها الأمم مجتمعا دوليا ، فان الدول الافراد بحاجة الى سيادة القانون تماما كما يحتاج الاشخاص الافراد اليها فى مجتمع قومى وشقة الخلاف الشاسعة بين الاستعمار والاشراف الدولى هى نفس الخلاف بين العبودية وسيادة قانون العقوبات • وفى رد الفعل ضد الاستعمار ، نجد أن الأمم التى تحرر نفسها من سيطرة قوة استعمارية واحدة تكون على استعداد للمطالبة بالاستقلال التام عن كل أنواع السيطرة التى لا يمكن تبريرها الا عن طريق مبادىء تفضى مباشرة الى مبدأ الفوضى •

ولا ينحى رسل باللائمة على الأمم المتطلعة الى التمرد على نير الاستعباد فحسب ، فهو يرى أن الدول الكبرى تشترك معها بنفس القدر من المسئولية « ويجب القول بأن الدول الكبرى تكاد تكون ملومة بنفس القدر • فهى تميل الى مؤازرة أية سلطة دولية طالما أنها موقنة من السيطرة عليها • وبهذا تجعل هذه السلطة الدولية تظهر على أنها مجرد استمرار مقنع للاستعمار القديم » •

ثم يتناول رسل مشكلة حرية الجماعات داخل الأمة الواحدة ويقول أن روسو يعترض على حرية الجماعات داخل اطار الدولة لأنها تضعف من الولاء نحو الدولة • وهذه هى نفس وجهة نظر البلاد الشمولية (الديكتاتورية) التى تناصب حرية التنظيمات والجماعات داخل أراضيها العداء • أما رسل فيميل الى توفير الحرية لهذه التنظيمات والجماعات بحيث لا تتجاوز حدودا معينة ، من شأن تجاوزها أن يضر بالمصلحة العامة • وهو لا يريد لتنظيمات نقابات العمال أو غيرها أن تصبح مجرد أجهزة حكومية كما هو الحال فى الاتحاد السوفييتى ، فنقابات العمال السوفييتية لا تتمتع بحق الاضراب أو المطالبة الجماعية بتحسين الأجور •

ويثير رسل مشكلة حرجة تواجه الغرب بشأن الجماعات التى تنهض بهدف القضاء على الحرية دون مداراة أو مواربة • هل يجب على الدولة أن تسمح لهذه الجماعات بمزاولة نشاطها الهدام ؟ وتستبد الحيرة برسل فلا يقترح اجابة قاطعة على هذه المشكلة • ولكنه يميل بوجه عام الى التدخل فى حريات هذه الجماعات صونا لحرية المجتمع • ولكنه ينبه الى الخطر الداهم الذى يتهدد الحرية من جراء اضطهاد هذه الجماعات ، فقد يتمادى

الناس فى التدخل فى حرية الآخرين تحت ستار وقاية المجتمع وحمايته بحيث ينسون أن الهدف الاصلى من تدخلهم فى حريات هذه الجماعات هو حماية الحرية نفسها . ومع أن الحيرة تستبد به الا أنه يمكن تلخيص وجهة نظره فى هذه المشكلة فى قوله : « وفى الاطار العريض ، يمكن القول بأنه كلما ازداد الخطر الذى تنطوى عليه مثل هذه المجموعات الهدامة ، ازداد المبرر للتدخل فى وجوه نشاطها » .

وفى معرض حديثه عن الحرية الفردية يقول رسل أن الاهتمام فى الماضى كان قاصرا على حرية الافراد كما كان الحال فى نهاية القرن الثامن عشر وأثناء القرن التاسع عشر . ولكن الفرد فى العالم الحديث يكاد يكون عديم الاثر والفاعلية خارج التنظيم الذى ينتمى اليه . ومن ثم نشأت الدعوة الى ضرورة الاهتمام بحرية التنظيم بغض النظر عن حريات الافراد . ويرى رسل فى هذا الموقف تهديدا صارخا لحرية الفرد التى يؤكد أهميتها البالغة . وهو يقول : ان التقدم المعنوى والعلمى قد جاء نتيجة للجهود الفردية ، مما يستدعى ضرورة الحفاظ على الحرية الفردية . والفضل فى وجود البوذية والمسيحية والماركسية يرجع الى مجهودات أفراد . ولهذا يجب على المجتمع أن يفسح صدره للافكار الجديدة ومهما كانت هذه الافكار غريبة أو مؤذية للشعور العام . ويضيف رسل : ان الاضطهاد المنظم للافراد بالصورة الراهنة البشعة ظاهرة جديدة فى التاريخ الانسانى ، فالاضطهاد الحديث يفوق فى بشاعته اضطهاد القرون الوسطى نفسه ، فهو اضطهاد متقن وقائم على أحدث الاساليب العلمية . « فقد أصبح الاضطهاد فى الزمن الحديث للغاية ، بل منذ نهاية الحرب العالمية الأولى فقط ، اضطهادا علميا وفعالا . واذا عن لك أن تنادى فى عالمنا الحديث بفكرة جديدة تثير حفيظة الناس وسخطهم فستجد أن قوات القسوة المنظمة التى تختفى وراء ستار الإخلاق تحاول أن تسحقك اذا أمكنها هذا » .

وفى معالجة برتراند رسل للتقسيم الثانى للحرية نجده يعتبر أن الحرية السياسية تتضمن مبدأين أولهما الوصول الى قرارات تكون الأغلبية هى صاحبة الحق فى اتخاذها ، وثانيهما أن يتوفر الاستعداد الكامل لتجنب اتخاذ القرارات المشتركة كلما كان مثل هذا التجنب ممكنا وينبه رسل الى ضرورة التسامح مع الأفكار التى لا تروقنا لأن هذا هو

جوهر الحرية السياسية » فالتســــامح مع من تحب أمر سهل • ولكن التسامح مع من تكره هو الذى يميز الموقف الليبرالى » •

لقد كان الناس يعتقدون فى الماضى أن مجرد اتباع السياسة الليبرالية « دعه يعمل » كفيل بتوفير الحرية الاقتصادية • ولكن خطأ هذا الرأى اتضح لهم بالتدريج • » والفوضويون المتطرفون يدافعون عن حرية القتلة واللصوص • ولكن معظمنا يدرك أن حريتنا ستنقص كثيرا عما هى عليه لو ترك المجرمون دون ضابط أو رابط » •

ويرى رسل أن الحرية الفكرية تقتضى تحقيق أمرين : أحدهما أنه لا ينبغى اضطهاد انسان لأنه يعتنق آراء لا تتفق مع الحكومة أو الحاق الأذى به بسبب معتقداته • وثانيهما أن نظام التعليم لا يجب أن يسخر بطريقة تجعل ضحاياه غير قادرين على التفكير المستقل •

وعند ماتختفى الحرية من بعض البلاد ، وتحكم هــذه البلاد حكما توتاليريا ، نجد أنها قد تظهر بمظهر القوة والبأس • ولكن هذه القوة الظاهرة لا يجب أن تخدعنا فهى قوة موقوتة ليس لها القدرة على الاستمرار وقد تظهر الأمة المستعبدة بهذه الطريقة لفترة ما صلابة ومناعة • ولكن لا مفر من أن تتفوق عليها قبل وقت طويل الأمم التى تحتفظ بالمبادأة الفكرية والقدرة على التقدم العلمى اذا قدر لمثل هذه الأمم أن تبقى • ولكن هذا لا يعنى أن الحرية ستساعد الأمم على اتقان فن الحرب وحده ، والتفوق في مضمارها لأن أجمل ما فى الحرية يتجلى فى الفن والأدب والعلم وكل ما هو جميل فى الشخصية الانسانية •

ويعتقد رسل أنه من الضرورى أن تعطى فرصــة لأصــحاب الآراء الجديدة أن يذيعوها بين الناس • وهو لا يعترض على انزال العقاب بهم • ولكن يعترض على اسكات أصــواتهم بصــورة لا تمكن الرأى الجديد من الوصول الى مسامع الناس • فليس هناك مايضير فى الشهادة من أجل الفكر ، ولكن هناك ضيرا فى ابقاء هذه الشهادة سرا لا يحيط بها الناس علما . والمفكر الخلاق حقا لا يهمه مصيره الشخصى بقدر ما يهمه وصول وجهة نظره الى عامة الناس • والدولة الحديثة التى تتقن فن الاضطهاد تستطيع أن تقضى على الرأى الوليد فى المهد دون أن يتراءى الى ســــمع

انسان أن وأبا وليدا قد ظهر الى الوجود . « واذا ظهر سقراط حديث في روسيا ، فسيقتل وهو لا يزال صغيرا ، ولن يجد أفلاطونا يذيع مبادئه وينشرها » .

وفى رأى رسل أن النظام القيصرى الذى عرف بقسوته واستبداده يتضاءل في جوره اذا قورن بالنظام السوفييتى تحت ستالين . لقد كان تورجنيف وتولستوى ودستيوفسكى يدخلون أحيانا فى صراع مع القيصرية . وحكمت القيصرية فعلا بالنفى على دستيوفسكى فى سيبريا . ولكن أعفى عنه عند ما كتب قصيدة شعر بمناسبة عيد ميلاد الامبراطورة . وكان توررجنيف يعيش خارج الأراضى الروسية فى بحبوحة ورغد فلم تمتد اليه يد القيصرية بالأذى . أما تولستوى فلم تكن القيصرية تجرأ لأن تمسه بسوء نظرا لهيبته العظيمة التى كان يتمتع بها فى ربوع العالم. ولهذا استطاعت روسيا فى القرن التاسع عشر أن تخرج أجمل فن وأروع أدب بالرغم من كل مظاهر الاضطهاد والاستبداد .

ولكن روسيا السوفيتية فى نظرة أبشع حالا . فلو أن أصواتا جديدة فيها قد تعالت فستقضى أجهزة الدولة عليها فى المهد دون أن يدرى انسان عنها شيئا مما يجعل الاستشهاد أمرا ينطوى على الضياع والعبث. وفى الأزمنة الغابرة فى عهد الاغريق مثلا كان من السهل أن يهرب انسان من دولة ــ مدينة الى دولة ــ مدينة أخرى ، ولكن الهرب من بلد شاسعة الاتساع كروسيا يكاد يكون مستحيلا ، واعتماد الفرد التام فى كسب رزقه على الدولة ينتهى باستعباده واخضاع ارادته لها . ويقول رسل فى هذا الصدد أنه يشك فى أن داروين كان سيتمكن من مواجهة هجمات رجال الدين عليه بسبب نظريته ، والتغلب عليها لوكان يعتمد اعتمادا كليا فى رزقه على أية وظيفة أكاديمية ، لقد كانت القيصرية تناصب طائفة (الداخابرة) العداء لأن هذه الطائفة كانت ترفض التجنيد العسكرى على أساس دينى . وتصدى تولستوى لاتفاقه معهم على مبادىء السلام للدفاع عن قضيتهم حتى أذنت لهم الحكومة القيصرية بالهجرة الى كندا ، ولو افترضنا ظهور مثل هذه الحركة فى ظل النظام السوفييتى فلن يألو جهدا لتصفيتها والقضاء عليها قضاء مبرما .

ويعتقد رسل أن انجلترا هي أكثر بلد تتمتع بالحرية وأنها أقل بلد تتدخل فى تصرفات الأفراد الخاصة . ويضرب مثلا على ضغط الحكومة الأمريكية على الحرية فيقول ان الخبراء فى الشئون الصينية يدركون مقدار خطأ السياسة الأمريكية تجاه الصين منذ سنة ١٩٤٥ . ولكن الرجعية الأمريكية تريد أن تخفى هذه الحقيقة عن الرأى العام الأمريكى ، ولذلك

تلجأ الى ادخال الرعب والفزع فى قلوب وزارة الخارجية الامريكية حتى يباركوا هذه السياسة الخاطئة ويؤيدوا سياسة ماكارثية أكثر ســوءا ووبالا • ولكن اضطهاد الحرية فى أمريكا لا يمكن أن يقاس باضطهادها فى روسيا تحت حكم ستالين • ففى هذا العهد بلغت سياسة القسر والجور أبشع صورة لها على مدار التاريخ الانسانى كله •

ويقول رسل أن اختفاء الحرية فى روسـيا يرجع الى خطأ نظرى يشوب أسس الفكرة الماركسى • لقد تصور كارل ماركس نظرا لخطأ فكرى صرف أن الغاء الملكية الفردية كفيل باختفاء الظلم الاقتصادى • وتورط فى هذا الخطأ لأنه لم يدرك أن الملكية لا تعدو أن تكون صورة واحدة من صور السلطان وأن الغاء الملكية الفردية مع تركيز السلطة فى أيدى أقلية لاينتهى حتما بالاضطهاد الذى لا يحتمل فحسب ، ولكنه يفضى كذلك الى أشد المظالم الاقتصادية سوءا •

وفى رأيه أن يبدأ الاصلاح من الأساس عن طريق نظم التعليم التى يريد منها أن تلقن الطلبة فضيلة التسامح مع الأفكار المعارضة ، « وأنا أحب أن أرى المدارس فى الهنـد تعلم فضائل المسـلمين والمدارس فى باكستان تلقن فضائل الهندوس • وأحب أن يتعلم الصهاينة سـجايا العرب وأن يتعلم العرب سجايا اليهود • كماأحب أن يتعلم الغـرب أن الروس أنفسهم لا يخرجون عن كونهم بشرا ، وأن يتعلم الروس أن كل الغربيين ليسوا أجراء فى خدمة الرأسمالية » •

ورسل لا يقر مبدأ الحرية القومية المطلقة غير الخاضعة لأية قيود ويقول « من الواضح أن الحرية الفوضوية التى تطالب بها الدول القومية فى الوقت الحـاضر يجب أن تلقى نفس الادانة التى يلقاها اللصـوص والقتلة • فهناك حريات — اذا سمح بمزاولتها — ستتسبب فى التقليل من حصيلة الحرية فى العالم » •

« ولكن فرض القيود على الدول القومية رهن باقامة حكومة عالمية ولست أعلم أن هناك أية طريقة للحصول علىهذه التنمية غير انشاء حكومة تحتكر أسلحة الحرب الانسانية • ولو قدر لمثل هذه الحكومة أن توجد ، فلا بد لها أنتتمتع فقط بالقوات اللازمة لمنع الحرب ، وأن للأمم المنفصلة حرية التصرف فيما عدا حرية التسلح • ولو تمت اقامة هـذه الحكومة فسيمكن ارساء قواعد مثل هذا النظام التعليمى الذى سبق لى أن تحدثت عنه منذ برهة • وسيلقن مثل هذا النظام محل القومية ، ادراك الأشياء

التى يشترك فيها الناس فى الامم المختلفة . ومايستطيعون تحقيقه عن طريق العمل المشترك بدلا من التناحر فيما بينهم • وسيقل التعصب ، وعدم التسامح بالتدريج فى ظل مثل هذا النظام التعليمى ، وسيعود هذا بالمكاسب الكبيرة على الحرية الاجتماعية والحرية السياسية على حد سواء » •

وتخفى الدول الكبرى نزعاتها القومية وراء الايدولوجيات المختلفة • وهذه الحقيقة تختفى وراء لغة الايدولوجيات • فالروس يعتقدون أنهم يمثلون الشيوعية فى حين أن الأمريكان يعتقدون أنهم يمثلون الديموقراطية • ولكن على الرغم من أن هذه اليافطات الايدلوجية تحتوى على قدر كبير من الحقيقة الا أنها فى غالب الأمر أقنعة تختفى القومية وراءها » •

ويرى رسل أن الحرية الاجتماعية تقتضى توافر بعض الفضائل الفكرية فلا يمكن لمثل هذه الحرية أن توجد فى عالم تؤمن فيه قطاعات كبيرة من الناس ايمانا يقينيا قاطعا بأشياء أبعد ماتكون عن اليقين • وفى رأيه أيضا أن الحقائق التى يمكن التدليل على صحتها لا تثير حفيظة الناس أو تلهب حماسهم ، فحماسهم لا يلتهب الا عندما لا تنهض معتقداتهم على دليل أو برهان •

« وليس هناك من يلتهب حماسة بشأن جدول الضرب ، أو بشأن وجود كيب هورن ، لأن مثل هذه الأشياء لا تقبل الشك • ولكن الناس يتجادلون فى أمور اللاهوت أو النظريات السياسية بعاطفة مشبوبة متأججة ويؤيدون رأيهم عن طريق العبودية الجسدية التى تفرضها الجيوش وعن طريق العبودية الفكرية التى تفرضها المدارس ، فى حين يجدر بالانسان العقلى أن يرى أن هناك على أحسن تقدير توازنا طفيفا فى الاحتمالات يؤيد هذا الجانب أو يؤازر ذاك » •

ويختتم رسل حديثه عن مفهوم الحرية بقوله أن العادة الحميدة التى تتلخص فى تكوين الرأى على أساس من الاحتمالات قد رسخت وتأصلت فى الغرب • ولكن يؤلمه أن يجد أن مجالها لا يزال قاصرا على العلم • وهو يريد لهذا المجال أن يمتد حتى يشمل مجالات الأخلاق والسياسة ومع أن موقف رسل معروف بحياده بين الكتلتين الشرقية والغربية فهو بوجه عام يفضل الحضارة الغربية على النظام السوفييتى « وأنا لا أحب أن يفضى حب الانسجام والتوازن الى ظهورى بمظهر المحايد من روسيا والغرب ففى الغرب قدر يفوق ما فى روسيا من كل شيء ، أعتقد أنه ذو فائدة فهناك قبل كل شيء وفوق كل شيء حرية أوفر » •

(٥)

موقف برتراند رسل

من مستقبل الحضارة الصناعية

في عام ١٩٢٣ أصدر برتراند رسل بالاشتراك مع دورا رسل كتابا رائدا خطير الدلالة فى العلوم الاجتماعية بعنوان « مستقبل الحضارة الصناعية » يعرض فيه لاثر التصنيع على سير الحضارة الانسانية. وبالرغم من أن الكتاب قد نشر منذ مايقرب من اربعين سنة فى ظروف تاريخية تختلف تفصيلا عن ظروف العالم الراهن ، الا انه لم يفقد شيئا من اهمية اتجاهاته الاساسية . بل أن التطورات الحديثة فيما يتعلق بتفاعل التصنيع القومى ، وانتشار التصنيع الاشتراكى فى الدول المتخلفة ، والاتجاهات الكامنة فى مبدأ التصنيع ذاته ... كل هذه التطورات الحديثة ــ كما تقول دورا رسل ــ تؤيد ما يتضمنه الكتاب من افكار . من أهم المشاكل التى عالجها المؤلفان والتى تجابه العالم الراهن أن التنظيم الصناعى بحكم طبيعته ، مهما اختلفت اشكال المجتمع السياسية التى يتم فى ظلها تولد الاوليغاركية (حكم الاقلية) والديكتاتورية ، وانه بذلك يعمل على هدم الديمقراطية كما هى مفهومة بالمعنى التقليدى . اضف الى ذلك ان التصنيع يفرض على الفرد الوانا من الضغط والقيود التى تجفف ينابيع الحياة التلقائية فيه ، الأمر الذى يقضى الى التهالك على الملذات الرخيصة ، والسلبية المدمرة التى تصاحبها الهيستيريا والغضب الجماعى .

ولعل أهم مايرمى هذا الكتاب الى توضيحه هو أن المشكلة التى تواجه العالم الحديث لا تتلخص فى الصراع القائم بين الرأسمالية والاشتراكية كما قد يظن عامة الناس اذ أن مشكلة العالم الراهن هى الصراع الدائر رحاه بين الحضارة الصناعية فى جانب والانسانية فى جانب آخر . ويذهب رسل الى رأى قد يدهش أغلبية الناس وهو ان هناك تشابها عظيما للغاية بين الرأسمالية الصناعية والشيوعية الصناعية ، وبين رجل الصناعات الاحتكارية فى أمريكا والقوميسار البلشفى فكلاهما يؤمن بالآلية من أجل الآلية ذاتها ، وليس من أجل اسعاد البشرية وخيرها . وينقسم الكتاب الى جزئين : احدهما تحليلى يعرض فيه المؤلفان أثر التصنيع فى خلق هذه النظرة الآلية للمجتمع ، والآخر أخلاقى يبين فيه المؤلفان الاسلوب السليم الذى ينبغى للتصنيع أن ينتهجه اذا أراد أن يتخلص من أوشاب هذه النظرة الآلية البحتة التى تحكم

بالموت على كل ماهو جميل فى الحياة الانسانية • وسنبدأ بعرض الجانب التحليلى من الكتاب •

١ ـ أسباب الفوضى الراهنة :

يقول رسل ان المجتمعات الانسانية كما يدلنا على ذلك تاريخها المعروف لدينا تتحرك حركتين فى آن واحد ، احداهما حركة « دائرية » والاخرى « تقدمية » واذا تتبعنا تاريخ الحضارات الانسانية التى قدر لها الظهور على الارض لوجدنا انها تتحرك حركة دائرية تتعاقب الواحدة تلو الأخرى ، وتمر بنفس الاطوار التى يمر بهـا أى كائن حى وهى المولد فالنماء ثم الاضمحلال الذى ينتهى الى الموت • والنظرة الى هـذه الحركة الدائرية للتاريخ تبعث على اليأس وتدعو الى القنوط . فالتاريخ الانسانى يكرر نفسه ويتحرك فى « دوائر » أو « حلقات » لا معنى لهـا • ولـكن هناك جانبا آخر من حركة المجتمعات الانسانية تبعث على الرجاء • فاذا أمعنا النظر فى الحضارات المتعاقبة ، أمكننا أن نرى تقدما ثابتا وأكيدا يربط اجزاء التاريخ الانسانى ، ويميز أية مرحلة حضارية عن سـائر مراحل الحضارة التى سبقتها ويبدو لنا اذا فكرنا فى الحركة الدائرية أن الدورة بأسرها عديمة الجدوى • ولن يتحقق لنا ادراك التقدم الذى أصابته الانسانية عصرا بعد عصر ، والحـركة الثـابتة الخطى ، التى تقبع وراء الدوامات التى تجىء وتروح على سطح الماء ، الا عن طريق تركيز اهتمامنا على ما هو تقدمى وعلى ما يميز دورة عن الدورة التى تتلوها » •

ويعتقد رسل ان الحضـارة الحديثة تدركها الشيخوخة وانهـا فى سبيلها الى التقوض والانهيار شأنها فى ذلك شأن سائر الحضـارات المتعاقبة الغابرة التى بادت واندثرت ولكن هذه النظرة اليائسة المتشائمة الى الحركة الدائرية للحضارة الراهنة لا ينبغى أن تجعلنا نغفل الحـركة التقدمية التى حققها العالم الحديث ، والتى تحمل فى طياتها بشـائر التفاؤل • فعندما نقارن أيا من هذه الحضارات بما سبقها ، سندرك تقدما أكيدا فى ناحيتين ، أولاهما زيادة المعرفة ، وثانيهما النمـو فى مـدى التنظيمات ، وعلى الاخص تنظيمـات الدولة ، وبالنظر الى ما أصـابته الانسانية فيما مضى من تقدم فى هاتين الناحيتين فانه يراودها أمل أكيد فى المستقبل له مايبرره ، وان كان هذا الامل قـد لايلوح فى القـريب العاجل » •

ومن الخطأ أن نظن ان هذه الحركة التقدمية خير كل الخير ، لأنهـا

تنطوى فى واقع الامر على أخطار تهدد الانسانية • فقدرة الانســان على التدمير تزداد بزيادة مايصل اليه من علم وما يصيبه من معرفة • كمــا ان زيادة سلطان الدولة ليست بالضرورة مصدرا من مصادر الخير • ولكن هذين الامرين (زيادة المعرفة واتساع مدى التنظيمات) شرطان لازمان للتقدم الانسانى على الرغم مما يتضمناه من شرور واضرار • فحــاجة التقدم الانسانى الى العلم والمعرفة أوضح من أن تحتــاج الى نقــاش • والدولة ـ رغم ان الحاجة الى تنظيماتها ليست بمثل هــذا الوضوح ـ تقوم بمنع الفوضى من أن تدب فى أرجاء الامة •

ولكن مفاسد الدولة وشرورها لن تؤول الى زوال الا باقامة حكومة عالمية فهى الضمان الوحيد الذى يصون الانسانية من آثام التناحر القومى والفرقة الاقليمية ، والعلاج النهائى الوحيد للحرب هو خلق دولة عالمية أو دولة عليا لها من أسباب القوة مايمكنها من حل كل المنازعات بين الامم عن طريق القانون • ولا يمكننا التفكير فى اقامة دولة عالمية الا بعد أن تصبح أجزاء العالم المختلفة مرتبطة ببعضها البعض أوثق الارتباط بحيث لايمكن لأى جزء فيه أن يقف موقف عدم الاكتراث بما يحدث فى أى جزء آخر • لقد كان من نتائج التصنيع أن تشابكت مصــالح الانســانية وترابطت ، الامر الذى يحتم ضرورة التضامن على المستوى الانسانى • « هذا التضامن ناجم عن التصنيع والمخترعات الآلية ، وكلاهما نتــاج العلم » •

وهناك مايدعونا الى التفــاؤل والامل فى أن نتخلص من محنتنــا الراهنة • ولكن يجب قبل كل شىء أن نضــع حــدا لأســباب الفوضى والاضطراب التى يزخر بها عالمنا الحديث • وعلينا أن نشخص أدواءنا بكل شجاعة • وأن نتجنب « العزاء السهل الذى توفره الآمال الكاذبة » وفى زحمة الاساطير ، وهيستريا الاحقاد المتطاحنة ، يصعب توصــيل الحقيقة الى السواد الاعظم من الناس كما يصعب اكتساب عادة تــكوين الرأى الناهض على الدليل والبرهان ، بدلا من العواطف الهوجاء » •

ويضيف رسل ان العالم الحديث أحوج الى استخدام العقل أكثر من حاجته الى أى شىء آخر • « والعالم الآن أحوج الى العقل والاســلوب العلمى فى التفكير أكثر من أى وقت مضى ، لان كل المذاهب وســائر العادات التى تعتمد على السلطات اللاعقلية قد تقوضت • والمحــرمات والمعتقدات الدينية ، والعادات الاجتماعية تشــكل مصــدر السلطة بين القبائل غير المتحضرة فى الحدود التى يمكن القول معها بوجود نظام فيها •

كما انها تستمر كمصدر للنظام خلال مراحل الثقافة المتعاقبة حتى يبين العقل المتشكك سخافتها فى آخر الأمر » ٠

ان مصدر الفوضى الضاربة أطنابها فى العالم الحديث هو الصراع بين القوى المختلفة التى تسيطر على مقدراته ٠ ومن أبرز القوى التى تسود العالم الحديث قوتان : التصنيع والقومية ولكل من هاتين القوتين شكلان يختلفان فى التسمية باختلاف القائم بأمرهما ، فالتصنيع الذى تسيطر عليه طبقة أصحاب المصانع يعرف بالرأسمالية ٠ أما التصنيع الذى تسعى فيه الطبقة العاملة الى التحرر من نير أصحاب المصانع فيعرف بالاشتراكية والحرب بين هاتين القوتين سجال ٠ وللقومية أيضا وجهان ، يعرف الوجه الذى يسعى فيه جانب الى السيطرة على جانب آخر من الدول بالاستعمار ٠ ويعرف الشكل الآخر الذى يسعى فيه شعب الى التخلص من هذه السيطرة بحق تقرير المصير ٠ والصراع بين قوتى الاستعمار وحق تقرير المصير لا هوادة فيه ولا لين ٠ وتحتضن روسيا مبدأ تقرير المصير ٠ ومن ثم ينشأ التحالف بين الاشتراكية وحق تقرير المصير من جهة ضد الرأسمالية والاستعمار من جهة أخرى ٠ وفى رأى رسل ان هذا لايعنى أن القومية تتفق مع الاشتراكية ، فالاشتراكية دولية أو فوق القومية فى نظرتها ٠

يقول رسل ان الصراع السياسى والعسكرى المحتدم فى العالم يجعلنا لا نفطن الى مدى التشابه بين طبيعة صورتى التصنيع ٠ وكذلك بين صورتى القومية التى سبق أن اشار اليهما ٠

يرى رسل ان التصنيع يتطلب توفر شروط معينة فى أى مجتمع بعقد العزم على الاقدام عليه كالاستعداد للتضحية بمتع الحاضر فى سبيل مكاسب يجنيها فى المستقبل ٠ ويعطينا رسل مثلا بسيطا يشرح به وجهة نظره : لنفرض ان دولة تزمع انشاء سكة حديد فيها ٠ فسيقتضى هذا انصراف جهد بشرى عن تأدية وظائفه الانتاجية لحين الفراغ من انشاء السكة الحديدية ، ومن البديهى ان العمال المشتغلين بهذا الانشاء سيستهلكون طوال الفترة التى يعملون فيها فائض السلع الاستهلاكية التى يقوم بقية المجتمع بانتاجها ٠ وتبعا لهذا فان كل زيادة فى وسائل الانتاج الصناعية تتضمن اقلالا موقوتا من ارضاء الحاجات ٠ والمجتمع الذى يسير فى طريق التصنيع يضحى دوما بارضاء احتياجاته فى الوقت الحاضر من أجل ارضاء أكبر لها فى المستقبل ٠

ويمكن تلخيص الشروط التي يرى رسل ضرورة توافرها فى أى مجتمع يريد الاخذ بأسباب التصنيع فيما يلى :

أولا — يجب أن تتوفر امكانية الحصول على تنظيمات عمالية ضخمة يقف جهدها على عمل مشترك ٠

ثانيا — يجب أن يتوفر لدى من بيدهم توجيه الطاقة العمالية فى المجتمع الاستعداد للتضحية ببعض المصالح الحاضرة من أجل فوائد أكبر تجنى فى المستقبل ٠

ثالثا — يجب أن يتمتع الحكم بقدر من الاستقرار واستتباب النظام يسمح بالاستفادة من أية تضحيات تبذل فى الحاضر من أجل المستقبل فانتشار الفوضى معناه تشكك العاملين فى جدوى التضحية ، وتفضيلهم الاستغراق فى المتعة الحاضرة ٠

رابعا — لابد من توافر عدد كبير من العمال المهرة نظرا للتعقيد فى العمليات الصناعية ٠

خامسا — ولكن أهم الشروط على الاطلاق لقيام الصناعة هى وجود المعرفة العلمية اللازمة لاستحداث المخترعات الآلية واستخدامها ٠

وفى رأى رسل انه ليس هناك مفر من أن يكون التنظيم الاقتصادى فى المراحل الأولى من التصنيع فى يد قلة حاكمة ، ومن أن يقاسى السواد الأعظم من السكان من الاملاق والفقر المدقع والسبب فى ذلك واضح ٠ فالدولة التى تقبل على التصنيع لا تكون فى بادىء الأمر على قدر كبير من الكفاءة الانتاجية بطبيعة الحال ، كما أنها فقيرة أصلا والا لما كان هناك ما يدعوها الى السير فى سبيل التصنيع ٠ ويستتبع ذلك أن السلع الاستهلاكية لن تتوفر ، ولن تربو على الكفاف ٠ ومثل هذه الدولة نفسها مضطرة الى التضحية بالكثير من الفوئد المباشرة ومن الجهد البشرى المنتج فى سبيل تدعيم الصناعة فيها « والحل الوحيد لتجنب هذا ينحصر اما فى التصنيع ببطء شديد ، أو فى القروض الضخمة من بلاد أكثر تقدما من الناحية الاقتصادية » ٠

هناك كما يذكر رسل اتجاهان فى مجال التصنيع الصناعى ٠ اتجاه نحو الحكم المحلى فى مجالات الصناعة ، واتجاه آخر نحو مركزة كل مايتعلق بالنشاط الصناعى فى يد سلطة عليا والاتجاه نحو الحكم المحلى يتفق مع ماينادى به المذهب الاشتراكى النقابى (السند كالى) وينال من

رسل نفسه كل عطف وتشجيع ولكنه لايرى ان السند كالية مصيبة فى مناصبة العداء للتجربة السوفيتية التى تتضمن تركيز الاقتصاد فى يد سلطة عليا ، فظروف روسيا الشيوعية تملى عليها هذه السياسة غير المستحبة لأن الاقتراض فى حالتها مستحيل ، نظرا للعداوة التى تحيط بها من جانب الدول المتقدمة صناعيا واقتصاديا » وعندما يكون الاقتراض مستحيلا كما هو الحال فى روسيا السوفيتية نظرا للعداوة التى تجابهها لايبقى أمامها الا أحد بديلين : اما الفقر المدقع واما التصنيع البطىء للغاية » « ويبدو لى من الواضح أن الحكم المحلى فى الصناعة مستحيل فى بلد متخلف مثل روسيا · ولكنه رغم ذلك ممكن تماما فى انجلترا » ·

يرى رسل ان سياسة الحكم المحلى فى المجال الصناعى لو نفذت فى الدولة المتخلفة لما كتب لهذه الدولة النجاح فى ميدان التصنيع · فالعمال يعانون من الشظف قبل التصنيل وفى بدايته · ولو تركت لهم مهمة الاشراف على الصناعة المحلية وتوجيهها لما كان هناك سبيل الى اغرائهم على تحمل المشاق الحاضرة ومكابدة الشظف الراهن من أجل مكاسب تعود بالخير عليهم فى المستقبل · ويضرب رسل مثلا بانجلترا فى بداية الثورة الصناعية حين أقدمت عصابات من العمال على تحطيم الآلات وتدمير المصانع لانها كانت تنافس العامل فى انتاجه وتهدده فى عمله · فبالآلة يمكن الاستغناء عن الكثير من العمال · « ولو كان العمال يسيطرون على وسائل الانتاج فى تلك الأيام لما تحققت الثورة الصناعية أبدا » « وليس اشتداد الفقر المؤقت السبب الذى يجعل الحكم المحلى فى الصناعة الناشئة الوليدة مستحيلا فحسب · فالسبب الاكثر أهمية هو انه حين تكون الصناعة جديدة نجد الناس لا يتصفون بعادة التعاون فى مجموعات انتاجية ضخمة » « وليس عمليا أو ممكنا أن نتوقع أن يجتمع عمال بلد لا عهد له بالصناعة على هدف انتاجى موحد طواعية واختيارا اذ انه من اللازم ارغامهم على التعاون فى بادىء الامر حتى تتكون فيهم عادة التعاون فى عمليات الانتاج الصناعى · وبعد التأكد من تكوين هذه العادة يمكن رفع الارغام عنهم · وعندما يتم تحقيق التنظيم اللازم ، وتكوين عادات العمل فى اطاره يصبح الحكم المحلى ممكنا ويمكن توفير الحرية بالتدريج · وهذا هو الحال فى الصناعة · ولا بد للصناعة الوليدة من أن تكون مستبدة — وان اختلفت درجة استبدادها — سواء كانت هذه الصناعة اسما رأسماليا أم شيوعية فالمستبد فى احدى الحالتين هو الرأسمالى ، وفى الحالة الأخرى موظف الدولة » · « ويستتبع هذه الاعتبارات أنه ليس هناك من الناحية العملية فرق كبير بين الرأسمالية والاشتراكية كما يزعم

السياسيون من كلا الجانبين » « ويستتبع هذا أيضا أن الرفاهية التى تهدف الاشتراكية الى تحقيقها لن تتحقق الا حين تكون الصناعة على درجة كبيرة من التطوير ، كما تكون قد غارت فى أعماق عادات الأمة » • وعلى هذا فالثمار التى يمكن للنظام الاشتراكى أن يطرحها فى بلد مثل أمريكا أو انجلترا أوفر غنى بفرض الا يتسبب الصراع الطبقى فى وقف دولاب العمل الصناعى • كما ان تقدم كل من هذين البلدين فى مدمار الصناعة يوفر التربة الصالحة للحكم المحلى واللامركزية، ويجنبها شرور البيروقراطية لان العمال فيهما على درجة من الخبرة والصناعة والكفاءة بحيث يمكنهم تولى ادارة شئونهم دون تدخل من موظفى الدولة لفرض سلطاتهم عليهم •

وينتقل رسل الى الحديث عن القومية فيقول كما ذكرنا ان لها وجهين أحدهما يعرف بالاستعمار والآخر يعرف بحق تقرير المصير ، وان هذين الوجهين يتشابهان فى كثير من الامور على الرغم من خلافهما الظاهر • وهاتان الصورتان تتضمنان من أوجه الشبه ــ كما هو الحال فى مبدأ التصنيع أكثر بكثير مما يظن المشتركون فى الصراع بينهما » •

والقومية فى نظر رسل لها جذور غريزية فى الانسان فهى تطور الولاء الغريزى للجماعة التى ينتمى اليها الانسان ، وهو ولاء يحدده اطار جغرافى « وانها لسمة تميز العصر الحديث ان هذه الصورة من غريزة الولاء للجماعة قد اكتسبت سيادة واضحة للغاية على كل صورة أخرى لها • ففى الماضى فى فترات عديدة كانت الجماعة التى ينتمى اليها الانسان تتكون من المشتركين معه فى نفس الدين أكثر من تكوينها من المشتركين معه فى نفس الوطن » • فدعوة ماركس كانت تتوقع من الانسان توجيه ولاءه الغريزى للجماعة الى طبقته أكثر من أمته • ولكن وطنية الطبقة العاملة التى ظهرت أثناء الحرب العالمية الاولى أثارت دهشة أتباع ماركس الذين كانوا ينظرون الى الوطنية على انها بضاعة رائجة يتاجر بها الرأسماليون لتضليل البروليتاريا •

ويقول رسل ان التنافس المصاحب للقومية شىء غريزى فى جهاز الانسان النفسى ، وان القومية مسئولة عن الشحناء بين الامم « والانسان المصاب بداء القومية يعتقد ان بلده أكثر البلاد تمدنا وانسانية فى العالم • فى حين ان أعداءه موصومون بكل ضراوة ووضاعة يمكن أن تخطر على البال • وحيث انهم على هذه الدرجة من الضراوة والوحشية والوضاعة ، فليس هناك حد للوضاعة والضراوة التى يحق لنا شرعا ان

نستخدمها ضدهم . هذا هو مذهب القومية (١) » . « ومن الواضح أن هذا المذهب يقوم بالطبيعة على الزيف ، وانه يقضي الى الشحناء والوحشية والدمار » .

وتتضح ضآلة الفرق بين الاستعمار ، والقومية المضطهدة عندما تتحرر أمة من أغلال الظلم والاضطهاد ويدلل رسل على صحة ما يذهب اليه بمسلك بولندا بعد ان نالت استقلالها من نير روسيا القيصرية فبمجرد ان توفرت لها أسباب الاستقلال استحالت هذه الدولة المظلومة المضطهدة الى دولة توسعية معتدية ، تبغي البطش بروسيا القيصرية التى أذاقتها كئوس الذل والهوان . « وليس فى هذا المسلك أى شيء » شاذ أو غريب، فهو المسلك الطبيعي لأية دولة مصابة بداء القومية الحاقدة » « وطالما أن غالبية العالم المتمدن تداب على الشعور بان واجبها الاجتماعي الاوحد يقتصر على بلدها ، وان احراز تقدمها يبرر الحاق أية درجة من الاذى والدمار بشعوب البلاد الاخرى ، فستعجز الترتيبات الديبلوماسية أو الاصلاح السياسى عن تحقيق عالم يمكن احتماله » .

ولا يعنى هذا ان رسل يقاوم حركات التحرر القومى ضد قوى الاستعمار الباغية فهو يباركها ولكنه يريد أن تتصف بالشمول وتتسم بالنظرة الانسانية . وهو يقول ان مبدأ تقرير المصير لا يكون قوميا بالضرورة الا اذا أصبح توسعيا ، أو كان يعني الرغبة فى الاستئثار بالتحرر من ربقة ظلم دولة خارجية دون بقية الدول المظلومة . فهو يريد الحرية للعالم كله ، لا لدولة قومية بالذات . ومما يثبت لنا انه يبارك حركات التحرر قوله : « ومن الواضح انه اذا استمر الشعور القومى متأججا على ما هو عليه فى الوقت الحاضر ، فسيكون مبدأ تقرير المصير ، اذا أمكن تحقيقه ووضعه موضع التنفيذ ضد الدولة القومية الباغية ، أحسن ترتيب ممكن لاقرار الحدود القومية » . كل ما هنالك أن رسل يتوجس شرا من احتدام الروح القومية فى ارجاء العالم الامر الذى سيفضى حتما الى اندلاع نيران الحروب . والحل فى نظره كما قلنا ان يكتسب العالم عادة النظر الى مصالح الانسانية ككل » والعلاج الوحيد لشرور القومية هو صرف طاقات الانسان ومشاجراته بعيدا عن التنافس القومى

---

(١) لاحظ أن هذا الكلام لا يمكن بحال من الأحوال أن ينطبق على القومية العربية لأنها لا تحبس نفسها فى دائرة مغلقة من ضيق الأفق ، بل انها تفتح بابها للتجارب الانسانية تتأثر بها وتؤثر فيها . (المؤلف)

الجدب • » وأنا لا أشك ان هذا فى الوقت الراهن أهم واجب على الانسانية أن تضطلع به ، بل أكثر أهمية من اقامة نظام اقتصادى أفضل » •

ويقول رسل ان قوتى التصنيع والقومية اللتين تسيطران على العالم الحديث متشابكتان ومتفاعلتان « فالتصنيع قد أضاف بطرق مختلفة الى نمو القومية ، فى حين انه قد أنتج لاول مرة فى التاريخ الامكانية الفنية لاقامة حكومة فوق القومية تحكم العالم بأسره » •

٢ ـ الاتجاهات الكامنة فى مبدأ التصنيع

يقول برتراند رسل أن نتائج القومية وآثارها واضحة لا تحتاج الى بحث • ولكن نتائج التصنيع ليست بمثل هذا الوضوح رغم ان مشاكل العالم الحديث تقتضى منا الوقوف على هذه النتائج •

يرى رسل أن التصنيع ليس مجرد مشروعات ضخمة تتطلب عددا كبيرا من العمال • فقد كان بناء الاهرامات مشروعا ضخما ، ولكنه لايندرج تحت باب التصنيع • فجوهر التصنيع هو استخدام آلات معقدة ، وبعض الوسائل الاخرى (مثل السكة الحديد) التى من شأنها تقليل مجمـــوع الجهود المبذولة فى الانتاج • وتتمثل خصائص التصنيع فى استخدام الكوبرى واحلاله محل (المعدية) • فمن السهل نقل الاعداد القليلة من الناس عن طريق (المعدية) • اما الكوبرى فيتضمن انشاؤه تكبد المشاق ، وبذل الطاقة الكبيرة التى يتضاءل معها الجهد المبذول فى الانتقال عن طريق المركب • ولكن اذا أرادت أعداد ضخمة من الناس أن تنتقل عبر نهر فسنجد ان انشاء كوبرى بالرغم من المشقة المبذولة فى اقامته ينطوى على توفير كبير للجهد الانسانى • وعليه فانشاء الكبارى ـ بالرغم من انه سابق لعصور التصنيع ـ يحمل فى طياته سمات التصنيع وخصائصه • وجوهر التصنيع هو انفاق كثير من الجهد المشترك لانتاج اشياء ليست فى حد ذاتها سلعا استهلاكية ، ولكنها مجرد وسائل الى انتاج اشياء اخرى يمكن استهلاكها » •

ويستتبع هذه الحقيقة أن التصنيع يجعل المجتمع اكثر عضوية بنفس المعنى الذى نقول فيه ان جسم الانسان الذى يتكون من مجموعة الخـلايا اكثر عضوية من حشد من البرتوزوات تتكون كل بروتوزوا منها من خلية واحدة • وكل بروتوزوا قادرة على انجـــاز الوظائف المطلوبة لاستمرار

حياتها • فهى لا تحتاج الى مساعدة من البروتوزوات الاخرى ، كما ان حياتها لاتنتهى بموت هذه البروتوزوات • اما الخلايا المكونة لجسم الانسان فلا تتمتع بهذا الاستقلال اذ ان لها وظائف مختلفة ، وكلها ضرورية او على الاقل نافعة فى حياة الكل او المجموع • وعندما يصيب التدمير ايا من الاعضاء التى تؤدى وظائف حيوية تهلك البقية وتندثر • فالعين تستطيع أن ترى فقط ، والأذن تستطيع أن تسمع فقط ، وهكذا دواليك • اما اذا انفصلت عين أو اذن عن بقية الجسم فانها لن تستطيع ان تؤدى ما هو ضرورى لاستمرار حياتها ، كما تستطيع البروتوزوات ان تفعل ، وتتضمن هذه التضحية بالاستقلال من اجل التعاون خسارة وربحا • هناك خسارة تتمثل فى ان مجموع الخلايا كله يمكن القضاء عليه عن طريق ضربة قاضية ولذلك فان حياة الجسم البشرى تتعرض للخطر الجسيم اكثر مما يتعرض له حشد من البروتوزات • ولكن هناك مكسبا يتمثل فى ان الاعضاء المختلفة تصبح قادرة بسبب التخصص فى وظائفها ، على اداء عملها بشكل لا يتوفر لدى اى عدد من البروتوزوات • وبهذا تكتسب حياة جسم الانسان غنى وخصوبة وتزيد استجابتها لبيئتها بصورة هائلة • ونفس هذه الفروق المتوازية التى لا تلتقى موجودة بين مجتمع صناعى وآخر غير صناعى •

وليس هناك مخلوق فى المجتمع الصناعى – بعكس المجتمع البدائى الراعى – يمكنه الاكتفاء بذاته فكل انسان فيه يشترك اما فى جانب من عملية انتاج السلع وتوفيرها او فى انتاج الآلات نفسها التى هى وسائل للانتاج • ومن ثم كانت ضرورة التجارة فى المجتمع الصناعى ، او على الأقل ضرورة تبادل بعض المنتجات • « وهكذا نجد أن المجتمع بأسره قد تجمعت خيوطه وتلاحمت بحيث تصبح حياة الجزء معتمدة على حياة الكل » ويتصف المجتمع الصناعى بعضوية الجسم البشرى اذ ان لهذا المجتمع اعضاء حساسة اذا اصيبت بالدمار اصيبت سائر اعضاء هذا المجتمع بالشلل ويضرب رسل مثلا بسيطا للغاية على مدى ارتباط الاجزاء المختلفة فى المجتمع الصناعى ببعضها البعض فيقول ان تدمير محطة القوى الكهربائية فى منطقة قد يعنى توقف المصانع والمواصلات واضاءة المنازل عن العمل • وهذا مجرد مثل على القانون العام الذى ينص على زيادة الحساسية كلما ازداد التنظيم » •

وكلما ازداد المجتمع فى تشابكه وعضويته ، كلما ازدادت اهمية الحكومة ، واقتضى هذا التشابك الاجتماعى الاقلال من حريات الافراد

للحفاظ على مصلحة المجتمع • « وهناك مقابل الخسارة التى ينطوى عليها نقصان الحرية بالنظر الى زيادة سلطة الحـــكومة فالتنظيم مكسب للحرية نتيجة امكان انتاج ضرورات الحياة بمجهود اقل من المجهود المبدول فى مجتمع ما قبل الصناعة • وتخضع رغبات الفرد لنوعين من الضغط واعنى بهما الضغط الذى يفرضه المجتمع والضغط الذى تمارسه الظروف المادية وفى حين ان التصنيع يميل الى زيادة النوع الاول من الضغط الا انه يعمل على تقليل النوع الآخر بصورة كبيرة » •

وفى مجتمع ما قبل التصنيع نجد ان السواد الاعظم من الســـكان يكدح ويكد فى سبيل لقمة العيش التى يقيم بها اوده مما يعوق تحقيق رغباته فى المعرفة والجمال واستكمال الحياة ، فى حين تتمتع بها الأقلية الغنية المحظوظة • « ولكن انتاج الضرورات فى ظل التصنيع يتطلب فقط جانبا صغيرا من نشاط المجتمع ، بحيث تنطلق طاقاته ويتحرر من اجل توفير الفراغ او الكماليات — بما فى هذه الكماليات من تعليم وعلم وادب وفن وصناعة حرب • وهكذا يصبح الانسان اكثر حرية بفضل التصنيع لان عبوديته للطبيعة تقل وتتضاءل • ولكن قد لا تتوفر لدى كل انسان بذاته حرية اكبر بسبب زيادة الضـــغط الذى يمارســـه المجتمع على الفرد » •

وهذا الوضع يشبه تماما الفرق بين خلايا جسم الانسان ، ومجموعة من البروتوزوات كما سبق لرسل ان ذكر • فخلايا الانسان لاتتمتع بأية حرية مستقلة عن حرية الكل ، على عكس الخلية البروتوزوية • وتتعاون جميع خلايا جسم الانسان فيما بينها حتى توفر للانسان قسطا اوفر من الحرية ، حرية الكل دون حرية الاجزاء • والتصنيع يحرر الانســـان من ربقة الطبيعة والظروف المادية ، ويوفر له فرص الاستمتاع بثمـــار الثقافة واطاييب الحضارة التى كانت فيما مضى حكرا على فئة قليلة من الناس • وبكل تأكيد ، ليس ارضاء الحاجات البيولوجية الهدف الأسمى من حياة الانسان •• « ويمكن تعريف ما اصطلح على تسميته بالحضارة بأنه السعى لتحقيق أشياء ليست ضرورية للبقاء من الناحية البيولوجية » •

وقد بدأت الحضارة أول ما بدأت فى مصر وبابل وساعدت خصوبة الارض على توفير فائض من الانتاج على حاجات الانســـان مما أفضى الى توفير الفراغ لقلة من الناس ازداد عددها بمضى الوقت ، ووقفت هذه القلة المحظوظة وقتها وجهدها على استحداث اسباب الحضارة والى هذه القلة التى توفر لديها الرغد والفراغ يرجع الفضل فى استحداث الكتابة والعمارة

والرياضة والفلك والفنون الاخرى اللازمة لبناء الكيان الحضارى واذا شاء الجنس البشرى ان يستمتع بمقومات الحضارة واطايبيها بدلا من قصرها على قلة محظوظة كما كان الحال فى الماضى فيجب ان يكون التصنيع اشتراكيا فى اهدافه ٠

ويصاحب التصنيع زيادة انتشار التعليم فمن ناحية أصبح من غير الممكن ان يتفرغ المعلمون والتلاميذ للدرس والتحصـــيل لو انهم كانوا مشغولين بانتاج احتياجاتهم المباشرة عن شئون التعليم ٠ ومن ناحية اخرى اثبتت التجربة ان العامل الذى ينال قسطـا من التعليم اكثر فى كفاءته الانتاجية من زميله الجاهل ٠ وهذا ما دعا الدولة الى تعميم التعليم الالزامى ولهذا يمكن القول بان التعليم اتجاه كامن فى مبدأ التصنيع ٠

ويرى رسل أن التصنيع يؤدى الى القضاء على العواطف الفردية التى تنتج الفنون الرومانسية فى حين انه يشجع العواطف الجماعية التى تنتج الحرب والتدابير الخاصة بالوقاية الصحية والتعليم الاولى كما انه يشـجع التطابق فى السلوك بحيث تختفى الملامح الفردية التى تميز انسانا عن آخر ٠ فحياة الناس فى المجتمع الذى يصيب قدرا عظيما من التصنيع تتشابه الى الحد الذى تصبح معه نسخا متكررة لصورة واحدة لاتتغير ٠ ولا شك ان هذا التطابق فى السلوك يدعو الى الملل لما فيه من رتابة وآسن وهذه الرتابة فى الحياة تدفع الناس الى الاقبال على قصص العاطفة المتأججة والميلودراما وقضايا القتل المثيرة التى تبدد الملل من حيــاتهم المتشابهة ، الرتيبة المحتومة ٠ وهى ترضى نزعات الانسان العاطفية والفردية التى تكتبها ظروف الحياة الصناعية المتمدينة ٠

ومن أخطر الآثار التى تنجم عن التصنيع تفكك الروابط العائلية٠ والسبب فى هذا يرجع الى ما تنعم به المرأة من استقلال اقتصادى يكفل لها عدم الخضوع لزوجهـا والتحرر من سيطرته ٠ وهناك سبب آخر يتلخص فى صعوبة قيام المرأة العاملة بتربية أطفالها ورعايتهم ٠ وفى المستقبل ستضطر المرأة العاملة الى تسليم أطفالها لرعاية الدولة صونا لاستقلالها الاقتصادى الذى لن تضحى به ٠ وسيزيد هذا التشابه بين الأفراد الى الدرجة التى تختفى معها فردية السلوك والمشارب ٠ « لقد كانت العائلة حتى يومنا الراهن ملجأ للحياة الخاصة بحيث يمكن الهروب من سيطرة الدولة — بل الى حد ما — من الرأى العام فقد كان فى امكان الانسان الذى ينفرد بأذواق غير مألوفة أو يعتنق آراء شاذة أن يربى أبناءه بطريقة تهدف الى مشاركته فى خصاله الشاذة غير العادية ٠ ولكن

لابد أن يبطل هذا عندما تتولى الدولة أمر تربية الاطفال · وتتكفل بكافة أعبائهم الاقتصادية (وهى حتما فاعلة هذا فى نهاية الأمر) وهكذا نجد أن انهيار العائلة لابد وأن يزيد من الاتجاه نحو التشابه والتطابق بين كل السكان ، كما أنه يضعف سائر السمات الفردية التى لا يمكن لها أن تنمو أو تزدهر فى عيشة ترسخ جذورها تماما فى الحياة العامة » ·

ويرى رسل أن الجمع بين التصنيع وبين أشـــكال الدين التقليدى أمر عسير ولكنه يعترف بصعوبة شرح الاسباب التى تدعوه الى الأخذ بهذا الرأى · كما أنه يرى ان الرأسماليين سيحتفظون بالدين فى ظل التصنيع ولكنه يعتقد أن الطبقة العاملة ستنبذ الدين فى نهاية الامر · « وبطبيعة الحال ، سيظل الرأسماليون الناجحون متدينين والسبب فى هذا ان هناك ما يدعوهم حتما الى شكر الله على نعمه عليهم من ناحية ولان الدين قوة محافظة تميل الى القضاء على تمرد الطبقة الكادحة وثوراتها من ناحيــة أخرى » ·

أما الطبقة العاملة فى كل مكان فستجنح الى الالحاد والمادية · وهناك أسباب عدة تفسر ذلك منها ــ وان لم يكن هذا السبب قويا ــ ان رجال الدين عملاء فى خدمة الاغنياء ، يؤيدون مصالحهم بصورة تتعـــارض مع مصالح الطبقات الكادحة · ولكن هذا وحده ليس سببا يدعو الى اعتناق الالحاد اذ أنه يمكن للطبقة العـــاملة أن تطور الدين بطريقة تتمشى مع مصالحها · فالسبب الحقيقى فى نظره يكمن فى أن العلم يحتضن مبدأ رد الظواهر الاجتماعية من تعاسة أو سعادة الى أسباب دنيوية تخضع لفحص الانسان واختباره » · « والســبب الحقيقى فيما اعتقد ان رفاهية الطبقة العاملة الصناعية تعتمد على عوامل بشرية أكثر من اعتمادها على أسباب طبيعية كما هو الحال مع الناس الذين ينتهجون اسلوبا بدائيا فى حياتهم· فالذين يعتمدون على الجو يميلون الى التدين ، لان الجو متغير وطائش وغير انســانى · ولهــذا ينظرون اليه على أنه من لدن الله » · « والحيــاة التى تتعرض دائما لاخطار انسانية هى خير تربة لنمو الدين التقليدى · «حقا انه يمكن اعتبار الدين التقليدى باسره على انه محاولة لتخفيف الرعب الــذى توحى به قوى الطبيعة المدمرة » · ولعــل الادراك بأن مرد العلل الاجتماعية الى أسباب انسانية محضة وليست غيبية هو المســئول عن انتشار المادية والالحاد فى صفوف الرجل الحديث · « وستظهر الايام اذا كان العلم على درجة من القوة تكفى لمنع نمو دين جديد بأسره مثل الماركسية يتلاءم مع عادات وآمال المجتمعات الصناعية » ·

ان التصنيع القائم فى ظل نظام رأسمالى يتسم كما يقول رسل بالنظرة النفعية الى الأشياء ولكنه يرجح اختفاء هذه النظرة حين يتطور التصنيع بحيث يصبح اشتراكيا • ويعزو رسل هذه النظرة النفعية الى الاشياء فى الوقت الحاضر الى ان معظم العمال لاينتجون سلعا استهلاكية، بل يصنعون آلات من شأنها ان تنتج سلعا استهلاكية ولهذا لايحس العمال الآن بأن جهدهم ينطوى على هدف واضح ، وقيمة انسانية مباشرة مما يجعلهم يهتمون بالوسيلة اكثر من اهتمامهم بالغاية • وبالكم اكثر من الكيف • وهذه النظرة النفعية التى يخلقها التصنيع وبال على احساسات الانسان الفنية ، وعواطفه الفنية التى تعنى بالكيف أكثر من عنايتها بالكم وبالغاية اكثر من الوسيلة •

ويرى رسل ان اهتمام الاشتراكية الحاضر بالجانب الاقتصادى من الحياة يجب الا يكون شغلهم الشاغل ، والا يكون هدفا فى حد ذاته • فالكفاية الاقتصادية لاتعدو ان تكون وسيلة توفر للجميع اسباب الفراغ التى تمكن الانسان من الاستمتاع بثمرات الفن والأدب والعلم الطبيعيات • والنظرة النفعية الصرفة الى الاشياء التى تهتم بالانتاج اكثر من اهتمامها بأى شىء آخر ، قد جاءت نتيجة النظام الرأسمالى الذى تسوده النزعة التجارية والتنافس • ولكن اشتراكية التصنيع تستطيع ان تخلص العالم من هذه الادران بشرط ان يضع الاشتراكيون هذا نصب اعينهم • واحب فقط ان احذر المدافعين عن الاصلاح الاقتصادى من خطر التورط فى نفس شرور مناهضيهم ، وذلك بالنظر الى الانسان على أنه آلة لانتاج السلع لا على ان السلع ضرورة ثانوية من أجل تحرير الجانب غير المادى من الحياة الانسانية • فحياة الانسان الحقة لا تتلخص فى عملية ملء بطنه بالطعام ، وتغطية جسده بالكساء ، ولكن فى الفن والفكر والحب وفى خلق الجمال وتأمله والفهم العلمى للعالم » •

٣ ــ التصنيع والملكية الفردية

يقول رسل فى معرض الحديث عن التصنيع والملكية الفردية :

« هناك تنظيمان قد أثرا بوجه خاص على التصنيع اثرا عميقا وهما الملكية الفردية والقومية • وكلاهما قد تغير بدوره تغيرا كبيرا بسبب التصنيع وقد أصبح هذان التنظيمان مجتمعين خطرا يتهدد استمرار حضارتنا » •

والملكية الفردية شأنها شأن الدين ظهرت بظهور الزراعة . ويرجع تاريخ الملكية الخاصة الى أيام حامورابى فى بابل فى صـــورة لاتقل عن الصورة القائمة فى الوقت الحاضر وفى المجتمع الراعى الذى ينتقل من مكان لآخر طلبا للكلأ ، كانت الملكية الخاصة قاصرة على قطعان الأغنام والماشية وتعتمد على الغزو والسلب . ولكن استقرار المجتمع الزراعى مهد لظهور الملكية الفردية التى تبيح الامتلاك الشرعى للارض فى اطار الدولة ومن الواضح ان استتباب النظام والاحترام للقانون هما الضامن للملكية الفردية . فليس من المعقول أن تقوم للملكية الفردية قائمـــة فى دولة تستبد بها الفوضى .

وتنهض قوة الدولة دائما وفى كل مكان على قواتهـــا المسلحة . والملكية الفردية فى حالة الافراد داخل الدولة تعتمد على القـــانون فى شرعيتها . ولكن الدولة الضامنة للملكية الخاصة تعتمد على قوتها الضاربة المسلحة فى صيانة ممتلكاتها ضد هجمات العالم الخارجى .

وتدل احداث التاريخ على ان قيام الدول سواء قديما أم حديثا قد جاء نتيجة غزو مسلح شنته قوة محاربة صغيرة على اعداد كبيرة من الســكان الاصليين المسالمين والاستيلاء على ممتلكاتهم واراضـــيهم ثم تحويلهم الى طبقة من عبيد الارض يخرجون للسادة المنتصرين اطيب الثمار ويكاد ان يكون هذا هو الاصل فى نشأة سائر دول أوروبا والامريكتين والدول السامية فى العصور القديمة والوسطى وممالك الهند المختلفة . ولكن مع فارق واحد فى حالتى استراليا وامريكا الشمالية . فقد عمد الغزاة الى ابادة الســكان الأصليين واســتيراد الجهد البشرى من الخارج عن طريق الاغراء والترغيب فى حالة الرجـــل الابيض ، والقسر والجور فى حالة الزنوج . ومصدر الملكية الفردية فى البـــلاد الحديثة والامبراطوريات القديمة على حد سواء هو امتلاك قلة محاربة للأرض يمكنها تحديد الشروط التى على أساسها يسمحون للآخرين بفلاحتها » .

وقد حدث تطور بطيء للغاية عقب هذا التطور من الغزو الى الافكار الليبرالية التى تنادى بالمنافسة الحرة . وقد وجد الغزاة الظافرون ان الامتناع عن سياسة القسر والارغام أضمن لمصالحهم واسهل من ناحيـــة التنفيذ مما دعاهم الى نبذ سياسة القوة ، والى البدء فى تأجير الاراضى للفلاحين بدلا من الوقوف على رءوس العبيد بالسياط . وبدأت فـــكرة الامتلاك عن طريق المجهود الشخصى تحل محل القسر القديم . وهـــكذا

بدأت الملكية الفردية تعتبر ثوابا ومكافأة على الجهد ، وليست (كما كان الحال من قبل) توزيع الغنائم والاسلاب بين عصابة من قطاع الطرق » ·

ثم تبلور النزاع بين نظرة الارستقراطية الى الملكية التى تؤمن بحق الغزاة الظافرين وسلالتهم فى تملك ما يستولون عليه ، والنظرة الليبرالية لها التى تعتمد على حق الانسان فى الاستمتاع بثمرة مجهوده · ولكن الليبرالية لم تتمشى مع منطق تفكيرها الى آخر الشوط فقد كان طبيعيا ان تنادى الليبرالية بالغاء الملكية الفردية · ولكن الذى منعها من ذلك عدة اسباب : (أولا) لان الليبرالية فردية بالضرورة تنظر الى الفرد على أنه منتج لبعض السلع ويحق له الاستمتاع بثمرة جهده ، وهذه نظرة لاترحب بتدخل الدولة ، كما انها لاتقبل بطبيعة الحال ان تستولى الدولة على الملكيات · (ثانيا) لان الليبرالية تقدس الملكية مما يجعل من العسير ان تطالب بمصادرة الملكية فى الاراضى · (ثالثا) لان الفرق بين الاقطاع والرأسمالية (المقرونة بالليبرالية) ، لم يعد واضحا · فمصالحهما قد اصبحت متشابكة ضد مصالح الطبقات العاملة سواء فى ميدان الزراعة أو الصناعة ·

ولكن هذه الاسباب جميعها ليست الحائل الحقيقى دون تطبيق المبادىء الليبرالية فى المجتمع الصناعى · فهناك اتجاه كامن فى التصنيع يجعل من المستحيل تطبيق الليبرالية المؤمنة باستقلال الفرد · فالليبرالية تصلح للتطبيق فى مجتمع ما قبل التصنيع حيث يسهل تكوين طبقة من صغار الملاك يمكنها الاحتفاظ باستقلالها عن السادة الاقطاعيين ، فمن العسير على الصانع اليدوى أو مالك الارض الصغير ان يحقق نوعا من الاستقلال الاقتصادى · ولكن احتمالات هذا الاستقلال الاقتصادى تنتفى فى مجتمع كامل التصنيع لان الرأسماليين يملكون فى ايديهم ما يجعلهم يصدرون حكم الموت أو الحياة على العمال فلا يستطيع العامل أن يكسب قوته الا اذا سمح له الرأسمالى بذلك · والحل الوحيد لهذه الأوضاع الظالمة المستبدة هو اشتراكية التصنيع لأن التصنيع الرأسمالى يفضى بطبيعة الحال الى تركيز السلطة فى أيدى حفنة صغيرة من أصحاب رءوس الأموال وهذا بالذات مايجعل الليبرالية بأصرارها على حرية الفرد عاجزة عن معالجة شرور الرأسمالية ·

ومن الاسباب التى تدعو الى اشتراكية التصنيع بدلا من رأسماليته هو ما نراه من جنوح الرأسمالية نحو التكتل على شكل احتكارات تفاديا للتنافس الذى يفت فى عضدها · وهذه الاحتكارات تقضى على كل امل

ليبرالى يحلم بحرية الافراد واستقلالهم • وفى ظل الرأسمالية تجد الحكومة نفسها موظفة بل أجيرة فى ايدى هذه الاحتكارات القوية مهما كان النظام السياسى ديمقراطيا وتتضح سيطرة الاحتكارات على الدولة وضـوح الشمس فى وقت الحرب عندما تكون هذه الاحتكارات منتجة للصـناعات اللازمة للحرب (كصناعة الصلب والحديد) التى لا تسـتطيع الدولة الاستغناء عنها • وفى الاوقات العادية عندما ينشب نزاع بين العمـال وأصحاب العمل ينتهى الى اعتصام العمال واضرابهم ، نجد أن الدولة تقف فى صف اصحاب العمل ضد العمال ، وتتدخل بقواتها المسلحة لانهاء الاضراب بزعم صيانة النظام والاستقرار •

ويقول رسل ان المثل الليبرالية رغم ما أدته الى العالم الحديث من خدمات لم تعد تصلح لمقتضياته الراهنة : « كانت المثل العليا الليبرالية تفترض ان كل انسان حر فى تتبع مصلحته الاقتصادية الخاصة • والمذهب الليبرالى ، كثورة من جانب التجار والمنتجين الصناعيين ضـد الدولة القديمة التى يسيطر عليها الاقطاع الارستقراطى ، قد قام بعمل له قيمته فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولكن هذه المثل اصبحت عديمـة الجدوى ، كما أنها استنفدت اغراضها بسبب الزيادة فى التنظيم الناجمة عن التصنيع • لقد جـاهد المدافعون عن التنافس الحر دون طائل ضد تكتلات الاحتكارات ونقـابات العمال التى نمت معهـا فى قوتها وبأسها ، ومازالت تنمو وتزدهر وبعد أن حرر المدافعون عن المذهب الفردى أعمال الصناعة من سـيطرة الدولة ، تبين لهم أنهم أخضعوا الدولة لسيطرة الاعمال الصناعية وأصبح جهد الطبقة العـاملة بسبب انتشار الروح العسكرية والحرب ، أساسا ، خاضعا للدولة أكثر وأكثر فى نفس الوقت الذى سـارت فيه الدولة على طريق العبودية لمصالح الرأسـمالية الكبيرة » •

ولهذا السبب يرى رسل ان حرب الطبقـات ضرورة ما لم تعمل الرأسمالية على تقريب شقة الخلاف بينها وبين الطبقة العاملة ويحدد رسل الظروف التى تدعو الى ضرورة الصراع الطبقى فيما يلى :

١ ــ ان التصنيع يزيد من عضـوية الدولة مما يزيد بالتـالى من سيطرة الدولة وسلطانها •

٢ ــ ان التصنيع يمنح الرأسمالية سلطانا كبيرا وجديدا للغـاية يجعلها تتحكم فى مقدرات حياة الطبقة العاملة وتهبها الحياة أو تفرض عليها الموت •

٣ ــ ان التنظيم المعروف بالملكية الفردية الذى انحدر من عهود ماقبل التصنيع قد سمح بتركيز رأس المال فى أيدى قلة من كبار الرأسماليين.

٤ ــ ان الرأسماليين قد تمكنوا عن طريق القوة الهائلة التى يمنحها التصنيع اياهم من السيطرة على الدولة واجهزتها .

٥ ــ ان التصنيع بما يجر فى ازياله من عادات وأساليب جديدة فى الحياة قد قضى على المعتقدات التقليدية بين طبقات العمال فى حين ان التعليم منحها ذكاء جديدا يمكنها من نقد النظام الاجتماعى .

٦ ــ ان التعليم قد مكن العمال من اكتساب الديمقراطية السياسية ولكن هذه الديمقراطية السياسية عديمة الجدوى بسبب سيطرة القلة الاحتكارية الغنية (البلوقراطية) على الدولة .

٧ ــ بالنظر الى حتمية التنظيمات الاقتصادية الضخمة ، والى قوة الذين يسيطرون على رأس المال لم يعد للحرية الفردية بمفهومها الليبرالى أى وجود .

٨ ــ ولذلك فالطريق الأوحد الذى يجنب المجتمع خضوعه لاستعباد الرأسمالية يتلخص فى الملكية الجماعية لرأس المال كما تنادى بها الاشتراكية .

٩ ــ بما ان الرأسماليين يجنون ثمار النظام القائم فلا سبيل لارغامهم على التخلى عن مصالحهم الا عن طريق الحرب الطبقية اللهم الا اذا اضطرهم ضغط الطبقة العاملة الى التخلى عن هذه المصالح طواعية واختيارا .

« والمشكلة الكبرى تتلخص فيما اذا كانت الطبقة العاملة ستكون على قدر من القوة يكفل لها اقامة الاشتراكية على انقاض الرأسمالية ، أو اذا كانت الرأسمالية ستتمكن من تدمير كل حضارتنا الصناعية خلال الصراع » .

٤ ــ تفاعل التصنيع مع القومية

كان المظنون فيما مضى فى أول عهد التصنيع انه سيخلق عالما موحدا تشترك اجزاؤه المختلفة فى انتاج ما تحتاج اليه من سلع ، كل جزء فيه حسب موارده وظروفه . وينال كل جزء احتياجاته الأخرى عن طريق

التبادل التجارى . هذا ما كان كوبدن ومدرسة مانشستر يعتقدونه وكانوا يعتقدون كذلك ان التصنيع سيحقق اقرار السلام العالمى .

ولكن الاحداث أثبتت خطأ هذه النظرية التى تنزع الى الدولية أو « العالمية » فقد وجد ان التصنيع يتضمن دون وعى منه اتجاها شديد القوة نحو القومية ، وهو اتجاه من شأنه ان يجعل من كل دولة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها .

يقول رسل ان القومية التى تتخذ صورة التناحر بين مجموعات من الناس أو بين الدول متأصلة فى غريزة الانسان المعروفة بالولاء للجماعة ، وأن الحيوان يشترك مع الانسان فى هذه الغريزة . ويرى رسل ان هذه الغريزة كانت تخدم فى المراحل الأولى من تاريخ الانسان أغراضا بيولوجية نافعة . ورغم أنها إستنفدت أغراضها الا أنها لاتزال مستمرة » . وهذه الغريزة كمعظم الغرائز الأخرى كانت بوجه عام مفيدة من الناحية البيولوجية ولكنها تستمر فى البقاء بعض النظر عن نفعها البيولوجى . وتعمل مستقلة عن أى شعور بنفعها . وقد جعل التصنيع هذه الغريزة غير ذات فائدة كما أنه فى نفس الوقت قام بتنشيطها وتنبيهها بصورة هائلة » .

وغريزة الولاء للجماعة متأصلة فى الانسان أكثر من أى حيوان آخر وفى المراحل الاولى تكون هذه الغريزة على جانب عظيم من النفع البيولوجى فهى تؤدى الى هجوم قبيلة أقوى على قبيلة أضعف وابادتها والاستيلاء على الاراضى التى تمدها بالطعام . وهكذا تتمكن القبيلة الاولى الاقوى من زيادة عدد سلالتها وزيادة قوتها البيولوجية بصورة أكبر » .

ويعترف رسل بالغموض الذى يكتنف أصل القومية . ولكنه يقول أنه من الخطأ أن نفترض ان البواعث الاقتصادية تولد المشاعر القومية . ففى أغلب الاحيان تتعارض هذه البواعث القومية مع المصلحة الاقتصادية. ويضرب رسل مثلا ب (تريستا) التى وهبها المحتلون النمسويون غنى وازدهارا لم يتوفر لها عندما كانت تابعة لايطاليا ومع ذلك فقد كانت تريستا قبل الحرب الاولى ترنو الى يوم الخلاص من قيد السيطرة النمسوية وتتطلع الى العودة للاندماج مع ايطاليا . ويضيف رسل ان الباعث القومى

غريزى فى اصله ، وليس اقتصاديا فى نشأته ولكن من الممكن استغلاله لخدمة اهداف اقتصادية .

ولا يعنى كون الباعث القومى غريزيا أنه لا يمكن توليده صناعيا ، وبأساليب مفتعلة فتجربة القومية الامريكية تدل بما يقطع الشـــك ان القومية يمكن توليدها بأساليب مصطنعة لقد ظهرت القومية الأمريكية فى حرب الاستقلال . ومع ذلك لم تكن قوية تماما والا لامتنعت عن اشعال أتون الحرب الاهلية وبعد الحرب الاهلية هاجرت جماهير الرجل الأبيض من اوروبا الى أمريكا ، ورغم اختلاف قوميات النازحين الى العــالم الجديد فقد بدأت أمريكا تكتسب شعورا بقوميتها لم يكن له نظير فهو يضارع فى اصالته ورسوخ قدمه اعرق القوميات فى العالم القديم او اوروبا . وهذا الشعور القومى مسئول عن اتجاه امريكا لاقامة امبراطورية عالمية جديدة . ويحق لنا ان نتساءل كيف استطاعت أمريكا ان تكتسب شعورا قوميا ، لم يكن له وجود من قبل لايقل تأججه عن أعرق القوميات . أن ظروف نشأة امريكا الخاصة بها قد ساعدتها على ذلك فقد كان الوافدون اليها فى أوروبا مضطهدين فى بلادهم مما اشعرهم بأن العالم الجديد رمز الحرية . وعمل هذا الاضطهاد على التأليف بين قلوبهم .

ولكن هناك عوامل اخرى قوية كانت السبب فى توليد الشـــعور القومى الامريكى . ويستبعد رسل ان القومية الامريكية كانت ستستشرى بين الكثيرين من سكان العالم الجديد لولا تأثير التعليم عليهم . فقد كانت المدارس الامريكية تلقن اطفال المهاجرين أن يكونوا امريكان صـالحين وان يتوجهوا بالشكر والعرفان بالجميل لامريكا التى منحتهم الخير الوفير ، وان ينظروا الى اوروبا وتقاليدها البالية نظرة ملؤها الاحتقار . وهكذا استطاع التعليم الامريكى ان ينتج باسلوب مفتعل اجيالا تعقبها أجيال من الوطنيين الامريكان .

ويعرض رسل لأثر التصنيع على القوميــة فيقول ان الولاء الغريزى للجماعة تزيده حدة عوامل ثلاثة :

١ ــ شدة التعاون وقرب الصلة داخل الجماعة .

٢ ــ الاحساس بالجماعة ككل والاحساس بوجود أجانب وغرباء .

٣ ــ التخوف من الاخطار الخارجية وهذه عوامل يزيد التصنيع من حدتها وبمعنى آخر ان التصنيع يلهب المشاعر القومية ويزيدها تأججا . فمن ناحية العامل الاول نجد انه من الواضح ان التصنيع يفرض التعاون

الوثيق داخل التنظيمات الصناعية الضخمة · ومن ناحية الاحساس بالجماعة التى ينتمى اليها الانسان وبالغرباء والاجانب فالتعليم والصحافة مسئولان عن رسوخ هذا الاحساس فى أعماق الناس · وهما كذلك مسئولان عن تخويفهم من الاخطار الخارجية وبعض هذه الاخطار وهم يخلقه العسكريون لبث الرعب فى النفوس وفرض ارادتهم وبعضه الآخر حقيقى ويتمثل فى ادراك قوة أسلحة الحرب التدميرية التى تتزايد يوما بعد يوم ·

ويدمغ رسل الاتجاه القومى فى التعليم بقوله : « ويكاد المسئولون عن توجيه التعليم فى البلاد المتمدنة الا يكونوا قد سألوا انفسهم على الاطلاق اذا كان تعليم النشء الكثير من اللغو المضحك عن قوة بلادهم وفضائلها وضعف اعدائها ومثالبهم ، يخدم غرضا نافعا » ·

وبعد ان تناول رسل الجانب الغريزى من الشعور القومى بالتحليل، ينتقل الى جانب يعتبره أقل لاعقلية من هذا الجانب الغريزى · وهو اثر التصنيع على العلاقات الاقتصادية بين الدول وعلى البواعث الاقتصادية التى تؤدى الى التناحر القومى ·

ويقول رسل أن فى أول عهد انجلترا بالتصنيع (فى مطلع القرن التاسع عشر) لم يكن المنتجون الصناعيون يتعرضون لاية منافسة اجنبية ولذلك لم يطالبوا الدولة بأكثر من ازالة كافة القيود على الانتاج وبحرية التجارة وبحرية التنافس مع بقية المنتجين المحليين · وفى هذه المرحلة الأولى كان من المعتقد أن التصنيع يمهد للأفكار الدولية والاتجاهات العالمية عن طريق ازالة العوائق الاقليمية التى تعترض سبيل التمدد التجارى · وقبل الحرب الاولى كان الانتاج الآلى يفيض على الحاجة بحيث انخفضت اسعاره بشكل يهدد مصلحة المنتجين ومن ثم كانت ضرورة البحث عن أسواق خارجية » · « ولقد ولدت الحاجة الى الأسواق شكلا جديدا من القومية منشؤه ارتباط التجارة بالأساليب الصناعية فى الانتاج » · وهكذا بدأ التطاحن بين الدول المتقدمة صناعيا على غزو اسواق الدول المتخلفة فى آسيا وافريقيا · وانتهت قمة هذا المد الاستعمارى بنشوب الحرب العالمية الاولى ·

كانت الصناعة فى هذه المرحلة الاولى تعتمد على التجارة فى منتجاتها مع العالم الخارجى ثم جاءت الحرب الاولى وبينت هذه الحرب للدول الصناعية الكبرى أهمية الاكتفاء الذاتى فى الانتاج من ناحية ضروريات الحياة ولوازم

الحرب حتى تتفادى خطر الحصار الذى قد يضربه اعداؤها من حولها .
وهذا ما يجعل رسل يعتقد ان الدول الصناعية الراقية ستهتم بتنظيم نفسها بحيث تكون وحدات منتجة ومستهلكة قائمة بذاتها وستدفعها دواعى الدفاع عن النفس فى الحروب الى الانتقال من النظرة التجارية الصرفة الى النظرة الصناعية السليمة التى تعنى بالاكتفاء الذاتى اكثر من عنايتها بالتجارب الخارجية . وسيكون هدف الدول الكبرى « خفض التجارة الخارجية الى الحد الادنى ، وقصرها على السلع التى ليست ضرورية فى وقت السلم أو الحرب » .

ويقول رسل ان الصناعة فى أول عهدها كانت مستهترة فى استهلاكها المواد الخام دون ضابط او حساب نظرا لطمع اصحاب الاعمال فى الثراء العاجل بغض النظر عن مصالح الاجيال القادمة ولكن العالم سيدرك مدى خطورة هذا الاستخفاف فى المستقبل القريب ، وسيضطر الى العمل على تنظيم استهلاك المواد الخام الآيلة الى النضوب ان عاجلا أم آجلا . وستتجه الدول الى تأميم مواردها الخام صونا لها من النفاد الناجم عن اساءة الاستعمال واقامة نوع من الاشتراكية الوطنية .

ويتساءل رسل : اذا امكن تحقيق الاشتراكية الوطنية ــ وهى تحويل الدول الصناعية الى وحدات اقتصادية قائمة بذاتها ــ فهل يخفف هذا من حدة الشعور القومى ؟ يعتقد رسل ان تحقيق الاكتفاء الذاتى سيقلل من حدة القومية من ناحية. ولكنه سيزيدها تأججا من ناحية أخرى. فهو سيخفف من حدة القومية لأن الاشتراكيه الوطنية ستقلل من الدوافع الاستعمارية الباحثة عن اسواق لتوزيع المنتجات وسيزيدها تأججا لان التهافت بين الدول الصناعية الكبرى على موارد المواد الخام سيظل عنيفا مستمرا » . واذا اصبحت بريطانيا العظمى شيوعية ، سيستمر نفس الدافع الموجود حاليا الى محاربة روسيا فى ايران والقوقاز ، اعنى بهذا الدافع البترول » .

ويرى رسل ان الاشتراكية دولية بطبيعة الحال من الناحية النظرية. ولكن هذه النظرية الدولية التى تميز الاشتراكية فى الوقت الحاضر سمة موقوتة للاشتراكية فى صراعها مع الرأسمالية . ومن الجائز انها ستتخلى عن هذه الصفة الدولية عندما تستتب كنظام راسخ وهناك دلائل فى روسيا على ان مظاهر القومية قد بدأت تلوح فى الافق ، ولا يستبعد أن تصبح الشيوعية الروسية على درجة من القومية لاتقل فى حدتها عن قومية الحكومات الرأسمالية .

٥ ـ الانتقال الى الحكومات العالمية

يقول رسل ان التصنيع يقتضي تحقيق مبدأى الاشتراكية والدولية (الحكومة العالمية) اذا شاء ان يؤتى ثماره التى نعقد الامل عليهـا ، واذا شاء العالم ان يتخلص من محنته وفوضاه الراهنة • فما هو مدى الامل فى تحقيق مبدأ الحكومة العالمية من الظروف الراهنة ؟

يستبعد رسل احتمال تحقيق مبدأ الدولية فى المسـتقبل القريب فأقصى ما حققته الانسانية على يدى الرئيس ويلسون بعد الحرب الاولى هو انشاء عصبة الامم التى رفضت عضوية المانيا وروسيا والتى رفضت الولايات المتحدة بدورها الاعتراف بهـا كهيئة • ويعيب رسل على هذه المنظمة حرصها الشديد على صون سيادة الدول المشتركة فيها بطريقـة من شأنها ان تطلق ايدى الدول الاعضاء فيما يعن لها من أمور دون ضابط او رابط ، ويشترط رسل أن تتمتع أية سلطة دولية بهيبة تنصاع لهـا سائر الدول اذا شاءت ان تحقق ما تصبو اليه من اهداف ويدين عصبة الامم بقوله : « وفي الحال يتضح لكل انسان بطبيعة الحال الا فائدة ترجى من وجهة النظر الدولية ـ من هيئة لاتحد فى بعض النواحى سيادة الامم المنفصلة ، لأن هذه السيادة المطلقة هى السبب فى الفوضى الراهنة » •

ويشرح رسل رأيه في اقامةحكومة عالمية قائلا : « والعـالمية التى نعنى باقامتها هى أساسا مسألة انشاء حكومة عالمية أى خلق أو تنمية تنظيم قوى بدرجة تضمن تنفيذ قراراته على الانسانية جمعاء ،ويكون بذلك قادرا على تنظيم العلاقات بين الامم بمقتضى احكام القانون ، لا بمقتضى ما تملكه الامم من قوة فى ميدان القتال • وعلى مثل هذه الهيئة الا تتناول المسائل الاقليمية وحدها بل مسائل الهجرة على أى نطاق واسع كذلك مع تقنين المواد الخام ، وربما ينتهى بها الامر الى معالجة توزيع القوة من محطـات للقوى الدولية » • ويقول رسل ان المواد الخـام فى الوقت الحـاضر لا تنهض على مبدأ الانصاف او العدالة • لنفرض ان احدى الدول شاءت لها ظروفها الطبيعية ان تملك موارد خام تشعر الدول الاخرى انها فى مسيس الحاجة اليها • فماذا يحدث ؟ سنرى الدول المحتـاجة ستشن الحرب علىهذه الدولة المالكة للواد الخام حتىتضمن الحصول على ما تحتاجاليه بأرخص الأثمان • وليس هذا من العدل أو الانصاف فى شيء • وقد نجد أن الدول المحظوظة بالمواد الخام تلعب دور المستغل بالنسـبة للدول المحتاجة • وليس هذا أيضا من العدل أو الانصاف فى شيء والحل العادل

يتلخص فى اقامة حكومة عالمية تضمن توزيع المواد الخام على أجزاء العالم المتفرقة بحسب احتياجاتها وبذلك تمنع تفاقم المشـــاكل الى الحد الذى يهدد السلام بين الامم ٠

« والسببان اللذان يدعوان الى اقامة حكومة عالمية هما : (أولا) منع الحرب (ثانيا) تحقيق العدالة الاقتصادية بين الامم المختلفة والسكان المختلفين » ولكن رسل يرى أن الأولوية فى الاهتمام يجب أن تنصرف الى تحقيق اقامة الهدف الاول لأن الحروب أشد خطرا على الانسان من أية مظالم أخرى ٠

والآن لنفرض أنَّ الدول الصناعية الكبرى قد أقامت فى ربوعها نظاما اشتراكيا وطنيا ، فهل يكفى هذا لاقامة حكومة عالمية ؟ يقول رسل ان أحداث التاريخ لا تشير الى هذا الاتجاه بحال من الأحوال ٠ فليس هنـاك ما يمنع الدولة الاشـــتراكية من أن تراودها أطماع توســـعية واستعمارية ٠ ويستشهد على ذلك بسيطرة الانجليز على قناة السويس كما يستشهد بما قاله تروتسكى فى عام ١٩٢٢ دفاعا عن موقف روسيا من جورجيا وارغامها على الانضـــواء تحت لواء الدولة السوفيتية سواء كرهت هذا أم رغبت أنه يقال بأن الشيوعية ترحب بمبدأ تقرير المصير ومن دفاع تروتسكى يستخلص المرء حقيقة موقف روسيا من مبدأ تقرير المصير فهى تعضده فيما اذا كان موجها الى الاقطاع ورأس المال والاستعمار ولكنها ترفضه اذا كان موجها الى سلامة الدولة السوفيتيـة ولهذا يعتقد رسل ان تحول الدول الصناعية الكبرى الى الاشتراكية لن يمنع الشحناء والرغبة فى السيطرة ما لم تتوفر حكومة عالمية تنظم عـــلاقات الدول بعضها ببعض ٠ فالبترول مثلا الذى لاتستقيم الحياة الصناعية فى الدول الكبرى بدونه لاينبغى ان يكون حكرا على دولة بل يجب ان تستولى عليه الحكومات العالمية وتوزعه على جهات العـــالم المختلفة وفق حاجات كل جهة ٠

٦ ـ الاشتراكية فى الدول النامية

يرى رسل ان الانتقال بالمجتمع الى النظـــام الاشتراكى محفوف بالمخاطر التى تربو على المخاطر التى تكتنف الانتقـــال من القومية الى الدولية ٠ ويعترف رسل بغموض معنى الاشتراكية ولكنه رغم ذلك يضع تعريفا لمدلولها فيقول انها تشتمل على جانبين احدهما اقتصادى والآخر

سياسى ويرتبط الجانب الاقتصـــادى بالانتــاج والتوزيع ٠ اما الجانب السياسى فيتعلق بالمشاركة فى السلطة ٠

وبخصوص الانتاج يرى رسل ان الاشتراكية تقتضى ايلولة كل الاراضى ووسائل الانتاج الى أيدى الدولة ٠ ولكن هذه الايلولة العـــامة لا تمنع الدولة من تخويل الملكية أحيانا لبعض الهيئات الكبيرة من المنتجين مثل نقابات العمال أو من المستهلكين مثل الجمعيات التعاونية ومن ناحية التوزيع يجب أن تحدد الدولة أجرا يشـــكل الحد الأدنى اللازم لتغطية ضرورات الحياة ، كما تضع حدا اعلى يكفل تشجيع الكفاءات ، والمبادأة الفردية ويضمن الانتاج المثمر الى أقصى الحدود ، ولا يشترط ان تتساوى الدخول حتى يكون النظام اشتراكيا ٠ ولا يكفى القول بأن الدخول فى روسيا غير متساوية للاستدلال بذلك على أنها لاتزال بورجوازية ، اذ أن المهم الا ينتزع انسان الربح الطائل عن طريق تملكه لوسائل الانتاج ٠ وتستهدف الاشتراكية فى نهاية المطاف تساوى الدخول ٠

ولا تتمشى الاشتراكية من النـــاحية السياســـية مع الاتوقراطية (الديكتاتورية) أو الاليغاركية (حـــكم الاقلية) فهى تستهدف كمثلها الاعلى توزيع السلطة السياسية بين الكبار والعقلاء من النـــاس بعدل وقسطاس واشكال الاشتراكية المتباينة كاشتراكية الدولة ، والاشتراكية الحرفية ٠٠ الخ لا تختلف حول هذه النقطة ولكن اختلافها قاصر على مدى السلطة التى يخولها النظام الاشتراكى للدولة او الهيئات المختلفة داخل الدولة ٠

يقول رسل ان الاحداث فى روسيا الشيوعية قد اثبتت خطأ بعض ما ذهب اليه ماركس ٠ فقد كان ماركس يعتقد ان الانتقال الى الاشتراكية لابد ان يمر بمرحلة الرأسمالية ولكن الثورة الشيوعية الروسية قامت فى بلد تكاد تكون الصلة بينها وبين التصنيع معدومة ٠ وهذا الوضع يدفعنا الى التساؤل : هل يمكن لدولة غير نامية من الناحية الصناعية ان تنتقل الى النظام الاشتراكى ؟ وفى نظر رسل ان الاجابة عن هذا السؤال خطيرة اذ أنها تحدد مصير الاشتراكية فى بقاع من الارض لم يقدر لها ان تعرف الى النماء الصناعى سبيلا مثل روسيا وآسيا ٠

ولنلق نظرة الى ما حدث داخل روسيا الشيوعية عندما اســـتولى الشيوعيون فى روسيا على مقاليد الامور تبين لهم ان الطريق نحو الهدف الاشتراكى محفوف بالاخطار الداخلية ومهدد بالصعاب الخارجية على حد

سواء ، وقد ادى بهم الادراك للاخطار الداخلية الى اجراء بعض التعديلات ونبذ الشيوعية فعلا لأجل موقوت ويمكن استخلاص الاسباب التى دعت الى هذا من مقال صريح للغاية نشره لينين باللغة الانجليزية بعنوان «معنى الضريبة الزراعية » فى أول عدد من مجلة الطبقة العاملة الشـــهرية (يوليو ١٩٢١) وفيها تحدث لينين عن وجود خمس مراحل تطور اقتصادى مختلفة تعيش جنبا الى جنب فى روسيا حينذاك ، وهى :

١ ـ مرحلة انتاج الأسرة وهو انتـــاج الفلاحين الذى يتصـــف بالبدائية الى أبعد الحدود ٠

٢ ـ انتاج السلع الصغيرة (ويشمل السواد الاعظم من الفـلاحين الذين يبيعون القمح) ٠

٣ ـ الرأسمالية الخاصة ٠

٤ ـ رأسمالية الدولة ٠

٥ ـ الاشتراكية ٠

ومعنى رأسمالية الدولة كما يفهمها رسل ان تقوم الدولة بممارسة نفس المشروعات الاستغلالية التى كان الرأسماليون يقومون بها والفرق فى نظره بين المرحلتين الاخيرتين (رأسمالية الدولة والاشتراكية) يتلخص فى قوله ٠٠٠ « يبدو ان جوهر الموضوع هو ان الدولة الرأسمالية تبيع السلع والخدمات بدلا من توفيرها بالمجان لاولئك الذين يحق لهم المطالبة بها » ٠

ويقول رسل ان لينين يرى ان الانتقال بروسيا من نظام ما قبـل التصنيع الى الاشتراكية يستوجب المرور فى كل هذه المراحل التى سبق ذكرها بحسب ترتيبها بحيث لايمكن للمجتمع ان يتخطى اية مرحلة منها٠ وعلى هذا الاساس نجده يشجع انتاج السلع الصغيرة باعتباره تقدما على نظام الاسرة البدائى فى الانتاج ، وهو يقول فى هذا الصـــــدد : « من الضرورى الى حد ما مساعدة اعادة انشاء الصناعات الصغيرة التى لاتتطلب الآلات الميكانيكية » ٠ ويضـــيف لينـين أنه يجب على الاشتــراكيين الا يناصبوا رأسمالية الدولة العداء فهى مرحلة متقـــدمة على الرأسمالية

الخاصة • وهو يعترض صراحة بأن اقامة رأسمالية الدولة هى خطوة مرحلية لابد ان تسبق تحقيق النظام الاشتراكى وقد استعان لينين فى كتابه بمقاله العظيم الدلالة بفقرة قد كتبها عام ١٩١٨ قال فيها : «ستكون رأسمالية الدولة خطوة فى سبيل التقدم فى الاحوال الراهنة لجمهوريتنا السوفيتية • واذا استطاعت اشتراكية الدولة مثلا ان ترسخ اقدامها هنا فى خلال الستة اشهر القادمة فسيكون هذا شيئا بديعا ، وضامنا اكيدا يحقق رسوخ قدم الاشتراكية فى مدى عام حتى تصبح شيئا لا يقهر » • ويعترف لينين بوجود جيوب بورجوازية صغيرة ورأسمالية ولكنه يرى ان محاولة اغفالها ضرب من العبث المضحك ـ وفى اعتقاد رسل أن لينين ينظر الى الرأسمالية الخاصة باعتبارها خطوة تسمو على انتاج السلع الصغيرة • وانه من الممكن عن طريق حماسة الشيوعيين واستخدام أساليب الدعاية وادخال وسائل التقدم الصناعى تحويل هذه الرأسمالية الخاصة على نطاق واسع الى رأسمالية الدولة التى تشكل بدورها خطوة نحو الاشتراكية ولكن لينين يعترف بخطئه فى تقدير مدى الفترة التى تستغرقها رأسمالية الدولة فى تمهيد الطريق نحو الاشتراكية فقد كان متفائلا أكثر مما ينبغى عندما حدد هذه الفترة بعام واحد •

ويتساءل لينين : هل يمكن الانتقال بمجتمع ما قبل التصنيع السائد فى روسيا قبل الثورة الى الاشتراكية ؟ » واجابته الخطيرة على ذلك هى : « نعم ، انه من الممكن تحقيق هذا الى حد ما ولكن بشرط واحد •• هذا الشرط هو كهربة البلاد •• » •

والذى انتهى اليه رسل من دراسة الصعاب الداخلية التى جابهت لينين يتمثل فى قوله « وتتلخص الأهمية العظمى للمشكلة فى انه حين تكون الظروف الفنية والاقتصادية أكثر ملاءمة لاقامة الاشتراكية فى البلاد المتقدمة ، الا أن الظروف السياسية تكون أكثر ملائمة لقيامها فى البلاد المتخلفة » •

ولكن رسل لا يوافق على هذا الرأى وخاصة لان الشيوعية الروسية الوليدة تجابه مشاكل لم يتنبه اليها لينين ، مشاكل لاتقل فى خطورتها عن الاخطار التى سبق للينين ان أشار اليها ويدفع ادراك رسل هذه المشاكل لأن يقول : « ويبدو ان النتيجة هى انه على الرغم من الصعاب السياسية ، الا أن هناك أملا أكبر فى اقامة نظام اشتراكى ناجح فى البلاد المتقدمة عن تلك البلاد التى قدر لها حتى الآن الا تصيب تقدما كبيرا فى مجال التصنيع الرأسمالى » •

ويتلخص الحـــل فى نظر رسل فى الاســـتعانة برؤوس الاموال الاجنبية . صحيح ان انجلترا قد قامت بتصنيع نفسها دون التجاء الى معونة من رؤوس الاموال الخارجية . ولـكن الذى ينطبق على انجلترا لا ينطبق على بقية بلاد العالم . فلانجلترا ظروفها الخاصة التى لن تتكرر فى التاريخ فقد ساعدت انجلترا على التصـنيع عوامل مختلفة مجتمعة . مثل توافر موارد الحديد والفحم على مقربة من بعضه البعض وكثرة المخترعات الآلية الانجليزية التى عجلت بتطوير الصـناعة ، ومكنتها من الانتـاج الهائل الرخيص . وفوق هذا وذاك ان انجلترا لم تتعرض لمنافسة اية دولة أجنبية اذ انها كانت الدولة الصناعية الوحيدة فى العـالم . ومن ثم يرى رسل ضرورة استعانة الدولة النامية صناعيا برأس المال الاجنبى تجنبا للاملاق الذى لا بد ان يصيبها اذا هى شرعت فى تصنيع نفسها دون الاعتماد على القروض الاجنبية .

ولكن هناك مشكلة كبرى علينا ان نجد حلا لها . هل يمكن تحويل دولة من نظام الرأسمالية الخاصة الواسعة النطاق الى رأسمالية الدولة ؟ وبمعنى آخر هل يمكن للدولة ان تقوم بانشاء المشروعات الكبيرة مثل السكة الحديد وبناء أحواض السفن .. الخ وامتلاكها مستعينة على ذلك بالقروض الاجنبية دون أن تسمح لاصحاب هذه القروض بالتدخل فى شئونهـــا الداخلية ؟ يجيب رسل عن هذا بقوله انه من النادر ان تعقد حكومة ما قرضا اجنبيا لتطوير موارد صناعية جديدة فيها ، دون ان تبيع جانبا من استقلالها القومى . وهذه الامتيازات الاجنبية ستجعل من المستحيل على الحكومة ان تحول رأس المال الخاص الكبير فيها الى رأسمالية الدولة .

يقول رسل ان روسيا الشيوعية تأمل فى تقييد رأس المال الاجنبى فى بلادها الى أبعد الحدود حتى تستطيع تحقيق خطتها الممثلة فى اقامة رأسمالية الدولة كما يقول ان الكثير يتوقف على نتيجة هذه التجربة فاذا نجحت روســيا فى التغلب على صعابهـــا ، و استطاعت ان تقـلم أظافر الامتيازات الاجنبية حتى لاتعوق الانتقـال الى مرحلة رأســمالية الدولة ، سيشجع هذا النجاح بقية الدول غير النامية على الانتقال مباشرة الى مرحلة رأسمالية الدولة دون المرور بمرحلة الرأسمالية الخاصة الواسعة النطاق .

ورسل لايشك فى أن رواد الشيوعية الروسية على قدر من الاخلاص والعزم والقوة قل أن يوجد مثيله فى التاريخ الانســانى . ولكن فشـــل روسيـــا أو نجاحهـــا يتوقف على ثلاثة عوامل ، العــامل العســكرى ، والاقتصادى والاخلاقى . فمن الناحية العسكرية ، يجب ان تتوفر لروسيا

قوة ضاربة تمنع أعداءها من الاعتداء عليها ، والا تقاطر الطامعون فيها •
ومن الناحية الاقتصادية ، نجد روسيا نفسها مضطرة الى الاستعانة برأس مال اجنبى ، واستيراد الآلات الضرورية للتصنيع بحيث لا ينتهز أصحاب رؤوس الاموال الاجنبية هذه الفرصة المواتية للتدخل فى الاوضاع الداخلية فى البلاد وهناك صعوبة ثالثة يراها رسل جلية وان كان الشيوعيون يغفلونها لانها صعوبة تتصل بالنفس البشرية ، ولا تتصل بالاقتصاد الذى يؤمن الماركسيون بأنه يقبع وراء كل نشاط انسانى يقول رسل أن تجربة روسيا للانتقال الى رأسمالية الدولة ستطول كما تشهد الاحداث بذلك ، وان النجاح فى هذه التجربة يتطلب الحماس الثورى من القائمين بأمرها • وهو لا يشك على الاطلاق فى توفير هذا الحماس فيهم فى الوقت الحاضر وفى ان هذا الحماس سيفعل هذه المعجزات • ولكن النفس البشرية ضعيفة تتعرض بطبعها الى الاغراء والحور والتغير وخاصة عندما يستتب الامان الداخلى ضد اعداء روسيا الخارجيين • فقد تفتر جذوة الحماس الثورى مما يجعل القائمين بالثورة يخلدون الى الراحة والاستقرار والاستمتاع بالحياة • ولا شك ان أصحاب رأس المال الاجنبى داخل البلاد سيستغلون هذا الضعف الى أقصى الحدود فيفسدون الامم ويغرونها بالرشوة مما قد يجعل الثورة تنحرف عن هدفها وهو تصفية الرأسمالية الخاصة والانتقال الى رأسمالية الدولة • ويضيف رسل ان رواد الشيوعية قد يجدون مخرجا غير سليم من هذا المأزق النفسى يتلخص فى تفاقم حدة الشعور القومى فيهم وذلك عن طريق تحول روسيا الشيوعية الى قوة استعمارية • ولكن رسل لايبدى يأسه من التغلب على هذه الصعاب جميعا •

(٧) الاشتراكية فى البلاد المتقدمة

ما مدى الامل فى تحقيق الاشتراكية فى الدول المتقدمة صناعيا مثل انجلترا والمانيا والولايات المتحدة ؟ يقول رسل ان التربة فى هذه البلاد صالحة لازدهار الاشتراكية فيها من الناحية الفنية • ولكن ظروف هذه البلاد السياسية تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق الاشتراكية « ويتوفر فى هذه الدول كافة الشروط المطلوبة لنجاح الاشتراكية باستثناء الشروط السياسية » •

ويرجع هذا الى حملات الدعاية الواسعة النطاق والمضللة التى تشنها الرأسمالية المغرضة لتغيير الرأى العام من الفكر الاشتراكى وتخويفه منه

وذلك باظهار الاشتراكية فى شكل مقزز للنفس علىأنها سلب ونهب يقوم به الفقراء واراقة دماء وتأميم النســاء ولكن لن يكتسب لهذا التضليل السافر طول العمر ، سيختفى ان عاجلا أم آجلا أمام اتساع رقعة الوعى والذكاء الانسانى وهناك عامل آخر لا يشجع الناس على التحمس لمبادىء الاشتراكية (وخاصة فى أمريكا) وهو تحسن الاحوال المعيشية بين طبقة العمال الذى يساعد على اخماد الجذوة الثورية • ولــــكن فى حين ان نجاح الرأسمالية ذاته قد وفر فى هذه البلاد الظروف الفنية المواتية لقيام الاشتراكية ، تجد أنه أضعف كذلك من الرغبة الفعالة فيها » •

ويعالج رسل مسألة ضرورة الصراع الطبقى لتحقيق الاشتراكية فى هذه البلاد المتقدمة صناعيا فيقول ان الجذور النفســية للايمان بالصراع الطبقى هى نفاد الصبر ، وان نفاد الصبر لن يخدم غرضا مفيدا فلو ان السنة الصراع الطبقى قد اندلعت فى هذه البلاد لأفضت حتما الى الخراب الشامل ، والدمار الاكيد الذى من شأنه ان يطيــح بالكيــان الحضارى بأسره ، وان تسوده البربرية •

والحل الامثل فى رأيه هو الصــبر والانتظار حتى تكتمل عناصر الوعى الاشتراكى بحيث ترغم الاقلية المســتغلة على التخلى عن وســائل استغلالها دون الحاجة الى دفع ثمن باهظ من التضحية والدماء • ويعيب رسل على الاشتراكيين بث الفكر الاشتراكى بين الطبقات الكادحة دون سواها من الطبقات • ويرى ان فى هذا خطرا يتهدد الاشتراكية نفسها فواجب الاشتراكيين هو توعية الناس على اختلاف طبقاتهــم حتى يؤمنوا بأن الاشتراكية فى مصلحة الجميع • ومحاولة الاشتراكية اجتذاب الطبقات الفقيرة ينفر الطبقات الاخرى منها مثل الفنيين واصحاب المهن الذين قد يقفون حجر عثرة فى ســبيل تحقيق الاشتراكية بالالتجاء الى اعمــال التخريب • ان وجهة النظر الطبقية ستولد الصراع والظلم والمرارة فى النفوس ويرى رسل ان الاشتراكية لابد أن تنهض على الفعل والاقناع ، وان العقل والاقناع يستطيعان بالجهد المبذول ومضى الوقت أن يكتسبا الى جانبهما الســواد الاعظم من المجتمع بحيث يتم القضــاء على فلول الرأسمالية مهما حاولت المقاومة فى يسر ردون كبير تضحيات •

فى الجزء الاول من كتاب « مستقبل الحضـــارة الصناعية » تحدث رسل عن آثار التصنيع العمليــة ، أما الجزء الثــانى من هذا الكتاب فيرسم صورة للمجتمع الصناعى الطيب • ولهذا يمكن القول بأن هذا الجزء الاخير عبارة عن تقييم اخلاقى للمجتمع الصناعى الصالح •

(١) صفات النظام الاجتماعي الحسن والفاسد

يقول رسل انه يرغب فى اجراء تغيير شامل وجوهرى فى النظم الاجتماعية القائمة ويتساءل عن الاسباب التى تدعو بعض الناس أمثاله الى هذه الرغبة فى التغيير الاجتماعى الشامل • يعتقد رسل ان نسبة هائلة من الآراء السياسية لا يمكن ردها الى اسباب جلية واضحة مهما زعم اصحابها غير هذا ، فالرغبة فى اقامة نظام اجتماعى معين دون سائر النظم الأخرى ، ترجع الى بواعث سيكولوجية خبيئة ، ورغبات مستقرة فى اللاشعور ، كما انها تستند قبل كل شىء وفوق كل شىء الى مزاج الانسان الفردى • وقد يقوم صاحب الرأى بتقديم المجادلات تلو المجادلات للاستدلال على صحة ما يذهب اليه من تفكير ، وعلى ميزة نظامه الاجتماعى على بقية الانظمة ، ولكن هذا لايعدو فى حقيقة الامر ان يكون قناعا يغطى به البواعث النفسية الدفينة التى قد يغيب ادراكها عن صاحب الرأى نفسه •

وفى رأى رسل ان الكثير من نظرات الناس الاجتماعية يقوم على الخطأ • فمن اكثر النظرات الاجتماعية الخاطئة شيوعا فى كل مكان وزمان تقريبا عادة النظر من خلال منظار التحيزات المتوارثة ولكل مجتمع مجموعة من القيم والمعتقدات الراسخة توارثتها الاجيال جيلا بعد آخر • ومن بين هذه التحيزات المتوارثة يحتل الدين والاسرة والملكية الفردية مكانا بارزا ويعتقد رسل ان التقدم الصناعى يدفع الناس الى التخلى عن بعض هذه التحيزات ، فالناس فى المجتمع الحديث لم يعودوا يخضعون لسيطرة الدين والعائلة مثلما كانوا يخضعون لها فى الماضى • ولكن الكثير من هذه التحيزات المتوارثة لايزال مسيطرا على أذهان الناس ويقول رسل فى هذا الصدد : ــ

« ترجع الفضيلة التى تميز بها الاغريق عن سواهم ، الى حد كبير الى اتصالهم بحكم كونهم شعبا تجاريا يجوب البحار بعادات ومعتقدات أمم لا حصر لها ، ومتباينة اعظم التباين مما دعاهم الى الفحص المتشكك الاساسى لكل هذه العلاقات بما فيها عاداتهم • واذا كانت الذاكرة لا تخوننى ، فهناك فى هيردوت قصة محادثة دارت بين بعض الاغريق واحدى القبائل المتبربرة عبر فيها الاغريق عن رعبهم من البرابرة لعادتهم فى أكل موتاهم • ولكن البرابرة عبروا عن رعب مماثل تماما لعادة دفن الموتى عند الاغريق التى لم تكن تقل فى بشاعتها بالنسبة لهم عن البشاعة التى تسببها العادة الأخرى بالنسبة للاغريق • ومثل هذه التجارب

الخاصة بالامم الأخرى تقلل من وطأة سيطرة المعتقدات المتوارثة لا غير ، على الانسان الذى يعيش فى بيئة ثابتة لا تتغير · وفى عصرنا لاتنجم هذه النتيجة عن الاسفار والتجارة فحسب ، بل تنجم ايضا عن التغيرات فى العادات الاجتماعية التى لامفر من اجرائها بسبب نمو التصنيع · ونحن نجد فى كل مكان يصيب تقدما صناعيا كبيرا ، بحيث لا تكون الصناعة جديدة تماما عليه ، أن الدين والاسرة وهما العمودان اللذان يرتكز عليهما كل كيان اجتماعى لا يخرج عن كونه تقليديا يفقدان سيطرتهما على عقول الناس · ولهذا فان قوة التقاليد أقل فى العصر الحاضر منها فى اى وقت مضى » ·[1]

ويضيف رسل قائلا ان الافكار التقليدية الخاصة بالدين والاسرة لم تعد تستبد بتفكير الرجل الحديث مثلما كانت فى الماضى ، الا انها لازالت على قدر كبير من القوة والبأس · وتتجلى قوة الافكار التقليدية فى النظرة الى الملكية الفردية بهيبة وقداسة واجلال · هذه النظرة تستمد جذورها من النظام البدائى المعروف بنظام رب الأسرة وتعتمد على حق كل فرد فى الاستمتاع بثمرة جهده وانتاجه · وأصبح تطبيق هذه النظرة القائمة على الملكية الفردية فى الوقت الراهن ضربا من المستحيل · فالعامل الصناعى لا ينتج شيئا بمفرده بل ينتج جزءا على ألف من مليون شيء · والاعتقاد اذن بأنه من حق العامل المطالبة بثمرة جهده وبانتاجه ينطوى على عبث ظاهر » والاشتراكيون الاوائل قبل ماركس كانوا يميلون الى اقتراح هذا كعلاج لمظالم الرأسمالية واجحافها ، ولكن مقترحاتهم كانت خيالية وتتضمن الرجوع الى الوراء لأنها لاتتمشى مع الصناعة القائمة على نطاق واسع » ·

وهناك عامل آخر يرى رسل انه يؤثر فى احكام الناس الغريزية على النظام الاجتماعى القائم فعلا أو الذى يحملون باقامته · ويتلخص هذا العامل فيما اذا كان النظام الاجتماعى سيوفر لهم مستقبلا يتفق مع ما يرونه فى أنفسهم من استعداد وقدرات بحيث يستطيعون ان يلعبوا دورا ايجابيا فيه · فالرجل الذى يميل الى أن تكون له الكلمة العليا بين الذين يحيطون به لا يحب ان تقوم للمذهب الفوضوى قائمة — لأن الفوضوية تخول لكل انسان الحق فى أن يفعل ما يحلو له · واذا رأى مثل هذا الرجل انه محروم من السلطان فسيتمرد على النظام الاجتماعى القائم لأنه يهدف الى اقامة مجتمع يفعل فيه كل انسان ما يحلو له ، بل اقامة مجتمع يتمكن فيه هو نفسه من اطلاق العنان لطبيعته الآمرة الناهية ·

والى جانب هذا ، هنـاك من الثوار على الاوضـاع الاجتمـاعية من تحركهم الكراهية للظالمين اكثر مما يحركهم الحب للمظلومين • مثل هؤلاء الناس يسعون للانتقام والتشفى من اعدائهم اكثر من سعيهم لرفع المظالم عن اصدقائهم • هذه الطبـائع تجد متنفسـا لهـا فى الوطنية والروح العسكرية •

وهناك خطأ شائع بين اصحاب النظريات السياسية والاجتماعية • فهم يطمعون فى اقامة مجتمع يشكل نمطا يلذ لهم تأمله ولكنهم يتجاهلون سعادة الافراد ومصائرهم والحياة اليومية التى يحيونها • ويقوم هؤلاء الناس برسم صورة للمجتمع الذى يبتغونه من عل ، مجتمع لا يتصـل بواقع الافراد فى شىء ، ومن ثم يتغاضى فن مصـالح الافراد باعتبار ان للدولة مصلحتها الخاصة بها والمستقلة عن مصالح المواطنين الذين ينتمون اليها • هؤلاء الناس من أصحاب نظريات السياسة والاجتماع — فى نظر رسل — » يعتقدون أن الدولة شىء له مصلحته الخاصة التى تتميز تماما عن مصالح المواطنين • وما يسمونه مصلحة الدولة ليس فى العادة — دون شعور منهم — سوى ما يبعث فيهم نوعا من الرضا من الناحية الاخلاقية • نحن نعلم انه حين خلق الله العالم رأى انه شىء حسن ، ومن الواضح انه لم ينظر الى خلقه من وجهة نظر البائسـين الذين يتحتم عليهم الحيـاة فيه • ولـكن من جهـة نظر أعلى من المفروض أنهـا التـأمل الجمالى » •

وان أى انسان يرغب فى أن يكون صاحب نظرية اجتماعية ينبغى ان يذكر نفسه يوميا بالحكمة البسيطة للغاية وان كانت هامة تلك التى تتمثل فى كون الدولة شـيئا يتعين على الناس ان يعيشـوا فى ظله ، وليست مجرد شىء يطالع فى الكتب أو يبعث على التأمل كما نتأمل منظرا من قمة جبل » •

وبعد ان يعرض رسل للنظريات الاجتماعية الخاطئة ينتقل الى ما يراه مصلحة المجتمع فيقول ان هذه المصلحة تتكون من عنصرين :

أولا — توفير السعادة لأفراد هذا المجتمع فى الوقت الحاضر •

ثانيا — القدرة على تطوير هذا المجتمع الى شىء أفضـل • ويعتقد رسل ان العنصرين لا يتمشـيان معا • « ففى بعض الاحيان نجـد ان المجتمع الذى يحتوى على قدر ضئيل من السعادة الراهنة قد يشمل فى طياته بذور شىء أفضل من أى نظام سابق • ومن الناحية الاخرى نرى ان المجتمع الذى ينتشر فيه كثير من السعادة الموزعة لا يكون تقدميا ، ويصير

استاتيكيا لفترة من الزمن ، ثم يصيبه الانحلال فى آخر الأمر » • ويقول رسل انه لو كان يطمئن الى التنبؤات السياسية فى المستقبل ، لما تردد فى تفضيل التقدم الاجتماعى على السعادة الموجودة فى المجتمع فعلا • ولكنه يرى نفسه مضطرا لأن يعلق كبير الاهمية على السعادة الراهنة باعتبار أن عصفورا فى اليد خير من عشرة على الشجرة • ومن يدرى ؟ فقد لا تكون فوق الشجرة أية عصافير على الاطلاق •

وفى نظر رسل ان هناك زيفين يجب على المفكر الاجتماعى ان يتجنب الوقوع فيهما وقد عرضنا للزيف الاول الذى يتلخص فى نظرة المفكر الاجتماعى الى النظام الاجتماعى من عل نظرة المراقب الذى يفصل نفسه عن الموقف الذى يقوم بمراقبته ، دون ادخال السعادة الفردية فى الاعتبار ، أما الزيف الثانى فيسميه رسل « الاكذوبة الارستقراطية » التى تحكم على المجتمع بمقدار ما تحققه الاقلية من رفاهية وسؤدد ونجاح بغض النظر عن فاقة السواد الاعظم من الناس • وهذا الزيف الارستقراطى يسود المجتمع الرأسمالى الذى تحقق فيه الاقلية النجاح على حساب تعاسة الاغلبية وبؤسها ونفس هذا الزيف الارستقراطى يختفى وراء اشكال اجتماعية أخرى • فهو يسود تفكير بعض الاشتراكيين الذين يؤمنون باقامة مجتمع اشتراكى يكونون فيه طبقة مديرى المصانع والانتاج وموظفى الحكومة ، وبذلك يحلون محل الاقلية المحظوظة فى المجتمع الرأسمالى • ان مثل هذا المجتمع لن يوفر للكادحين فرصا افضل من النظام الرأسمالى المستغل • وهناك خطر من خلق مجتمع يسير فى دقة الآلة ، ويتمتع بحسن نظامها ، فمثل هذا النظام الدقيق رغم ما فيه من مزايا سينتهى الى خنق النوازع الخلاقة فى الانسان • ولا شك ان اخطر محنة يواجهها الغرب بعد ان خاض غمار الحرب الاولى هو نبذ الايمان بكل شىء ولا يقتصر التشكك على الدين التقليدى فحسب بل يتعداه الى أسس النظام الاجتماعى نفسه الذى بات الناس ينظرون اليه بعين الريبة والشك فيما عدا حفنة من الرأسماليين واشياعهم الذين ترتبط مصالحهم بالنظام الاجتماعى القديم • لم يعد الناس فى الغرب يؤمنون بشىء • وهذا هو السر فى يأسهم وشقوتهم حتى الأغنياء أنفسهم يدافعون عن نظام لا يؤمنون بصلاحيته عن اخلاص ، ولذلك نجدهم يتهالكون على المتعة الرخيصة لعلهم يبرأون من يأسهم • ولكن المتعة العابرة لا تجدى لأن الجسد يرتوى والروح عطشى • لابد اذن ان يؤمن الغرب بشىء يملأ حياته ، ويضع حدا لهذا اليأس الرهيب الذى اصابه • ولا بد ان يؤمن بشىء تعود سماعه وهو الواجب : « وهناك نوع واحد

فقط من الواجب يمكن للانسان الحديث أن يعترف به دون الالتجاء الى الخرافات والخزعبلات ، وهو الواجب نحو المجتمع • لقد كانت هناك فى الماضى مثل عليا كالله والوطن والاسرة تثير عواطف الناس • ولكن هذا الوقت ولى وانقضى • » والاشتراكية هى المظهر الجديد للاحساس بالواجب نحو الآخرين وهى الكفيلة بأن تملأ روح الانسان الحاوية بالامل والحماسة • واذا لم تكن هناك نقطة جدل أخرى للدفاع بها عن الاشتراكية فيكفى أنها ايمان خلاق يمكن للانسان الحديث ان يعتقد فيه كى تصبح الامل الذى يرنوا العالم اليه • هذا فيما يتعلق بسعادة الانسان •

اما فيما يختص بضرورة تقدم المجتمع فيجب ان يتطور المجتمع باطراد الى شىء أفضل • ولن يتحقق هذا الا على ايدى اصحاب الطاقات الخلاقة مثل العلماء والفنانين والمفكرين • وعندما يتم انشاء النظام الاشتراكى يجب توفير الحرية حتى تتمكن طاقات الانسان الخلاقة من التبلور • ان الاهتمام بالتقدم التكنولوجى ضرورى لقدرته على توفير الرخاء المادى ولكن الرخاء المادى وحده ليس كل شىء • « ولذلك فالتقدم المهم الآن لا ينحصر فى الانتاج الصناعى ، بل فى الافكار • وقد يرجو المرء أن الطاقة المتحررة من انتاج الكماليات والاسلحة ستستخدم فى ظل الاشتراكية من أجل النهل من موارد المعرفة وفى تجميل الحياة واعادة ذلك الامتياز والتفوق فى الفنون الذى كان حكرا تستأثر به الاقلية فى عصور ماقبل التصنيع الى الكثيرين » • « ولكن هذا لن يتحقق الا بتوفير الحرية حتى تنطلق الطاقات الخالقة فى المجتمع وسيتحقق هذا تلقائيا اذا جاءت الاشتراكية كقوة محررة من أجل الجميع ، وليست كعقاب ينزل بالاقلية ، واذا كنا نستلهم حب الخير الذى نصنعه ، لامجرد الكراهية للشر الذى نحطمه » •

٢ ـ المقاييس الأخلاقية والسعادة الاجتماعية

يقول رسل ان التصنيع يتطلب ممارسة بعض الفضائل التى لم تكن لها وجود فى عصور ما قبل التصنيع • ويرى ان سعادة المجتمع الصناعى تنهض على عوامل يعتبر توافرها ضرورة لا غنى عنها • فهو يقول « ومن ناحيتى فانى أحكم على حالة مجتمع بأنها حسنة اذا توفر فيه قدر كبير من السعادة الغريزية ، وانتشار مشاعر الصداقة والمحبة بدلا من الكراهية والحسد ، واذا توافرت فيه القدرة على خلق الجمال والاستمتاع به وحب الاستطلاع الفكرى الذى يفضى الى تقدم المعرفة وذيوعها » •

ويعترض رسل على قواعد السلوك التقليدية التى يتضمنها الدين ، والتى تقسم أنماط السلوك الى أفعال فاضلة أو شريرة بغض النظر عن نتائج هذا السلوك • ويرى أن هذه النظرة خاطئة وتنهض على الخزعبلات • فمقياس الحكم على السلوك الانسانى فى نظره هو نتيجته وفى هذا نجده متفقا مع أئمة الفلسفة النفعية بنثام وجيمس ستيوارت ميل وجون ستيوارت ميل •

وبعد أن يعرض رسل لأنانية الانسان الكامنة فى طبيعته ، يتحدث عن أثر رأى المجتمع فى السلوك الانسانى وقدرته على وضع اللجام على رغباته ونوازعه عن طريق توزيع المدح على بعض الأنماط السلوكية ، والقدح فى بعضها الآخر • ويسمى رسل هذه القوة الاجتماعية الهائلة الضغط الاخلاق الايجابية « وهكذا نجد أن الاخلاق الايجابية التى يتمسك بها الجيران تجبر الناس – رغم الانانية التى تتصف بها الطبيعة البشرية – على التصرف بطريقة تغاير تماما ما كانوا سيفعلونه لو كانت الاخلاق الايجابية مختلفة لدرجة أنهم غالبا مايضحون بحياتهم خوفا من اللوم • » ويعتقد رسل أنه من المفيد أن نعتمد على هذه القوة الجبارة الضاغطة للتأثير فى سلوك الناس ، ولكن بشرط أن نغير مفاهيم هذه الاخلاق الايجابية لانها فى الوقت الحاضر « لا تتلاءم مع التصنيع على الاطلاق ، ويجب اجراء تغيير شامل فيها اذا شاء التصنيع أن يبقى على قيد الحياة ••• »

والآن ما هى المقاييس الاخلاقية التى يرى رسل ضرورة توفرها اذا أردنا أن يصيب الافراد سعادة اجتماعية ؟ أو ما هى الشروط التى تكون العناصر الاساسية لسعادة الانسان الحديث والتى ينبغى أن تحكم مقاييسنا على السلوك الانسانى ؟ •

يرى رسل أنه لابد من توافر العناصر الآتية اذا أراد الانسان أن يحقق سعادته : الفرحة الغريزية بالحياة ، والصداقة ، والاستمتاع بالجمال ، وحب المعرفة •

السعادة الغريزية : –

يعتبر رسل أن توفر الفرحة الغريزية بالحياة هى أهم الشروط جميعا ، فبدونها لا تقوم لسعادة الانسان قائمة • وهذه الفرحة التلقائية بالحياة تتطلب بعض الشروط ومنها توافر الصحة والقوة والعافية • ولكن هذا وحده لا يكفى فمن الضرورى أن تجد رغبات الانسان الغريزية

متنفسا لها ، ومجالات تحقق فيها ذاتها · ولابد من توفير فرص التقدم والارتقاء أمام الطامحين ، كما أنه لا مفر من فرض قدر معين من العمل على الفرد حتى لا يصبح فريسة الملل ويحس برتابة الحيـــاة بشرط ألا يتجاوز عمله أربع ســاعات يوميـــا حتى لا يستنفد العمل كل طاقاته ، ويحرمه من الاستمتاع بالحياة ·

ان احدى مشاكل الحضارة الصناعية هى أنها تجهز على التلقائية التى تجد لها مرتعا خصبا فى الحياة الطبيعية الريفية البسيطة · « فمع التقدم الذى نطلق عليه اسم الحضارة ، نجد أن بيئتنا الاجتماعية والمادية قد تغيرت بسرعة تفوق تغير غرائزنا الى الحد الذى ازدادت معه الهوة بين الأفعال التى تدفعنا اليها الغريزة ، والأفعال التى تثنينا عنها الحصافة والاتزان » ·

والعمل الآلى يدمر تلقـــائية الانســـان · وهو شىء كريه لا يدفع الانسان لأدائه شىء غير ما يحصل منه على أجر · لقد كان الصانع الحرفى فيما مضى يشعر بشىء من لذة الخلق ونشوته التى يحس بها الفنان ، مما كان يشيع فى نفسه الرضا والارتياح ولكن بمجىء الآلة والتصنيع اندثر هذا الاحساس الصحى السليم : « ولاشك أن الوســـائل الصناعية قد زادت من الهـــوة التى تفصل العمل عن الغـــريزة ، وقضت على الفرحة المتمثلة فى الصناعة الحرفية الماهرة التى كانت تعطى الصـــانع اليدوى شيئا من الرضا الذى يشعر به الفنان » ·

كان العمل اليدوى فيما مضى باعثا على الرضـــا والارتياح ، ولكن العمل الآلى فى عصرنا الصناعى يبعث على الملل والقلق وعدم الارتياح ، والرجوع الى وسائل الانتاج القديمة ضرب من المستحيل · فما العمل اذن ؟ لقد نادى جان جاك روسو وأتباعه بالعودة الى الطبيعة · ولكن هذه الدعوة لم يعد لها مجال فى عالم الصناعة الحديثة لأن معناها انهيار صرح حضارتنا من أساسه · ولذلك يرى رسل أن التنظيم الصناعى شر لا يمكن للكيان الحضارى الراهن الاستغناء عنه ، وان العلاج هو الاحتفاظ بأقل قدر ممكن من العمل والتنظيم ، وليس بالعودة الى الطبيعة ·

ان الكثير من مظاهر الشر فى العـــالم الصناعى الحديث يرجع الى سببين هما التنافس والاهتمام المفرط بالكم فى الانتـــــاج · والحل هو اشتراكية التصنيع والاهتمام بالكم حسب ماتقتضيه الضرورة · ويرى رسل ان الانســـان الصناعى لن تتوافر لديه السعادة الغريزية الا اذا توافرت لديه أوجه النشـــــاط التلقائى المختلفة ، والحاجة الى الهدوء

والسكينة من وقت لآخر ، والاتصال بالاراضى أى بالاستمتاع بجو الريف الطبيعى حيث الزرع والشمس والهواء ٠

الشعور الودى : —

يعتقد رسل أنه من الممكن خلق الشـــــعور الودى بين الناس عن طريقين : أحدهما فسيولوجى ، وذلك بتنظيم عمل الغدد والكبد ٠ فكل انسان يعـــلم أن الانتظام فى تأدية وظائفهـــا يجعل المرء يحسن الظن بالآخرين ٠ والسبيل الآخر اقتصادى وسياسى عن طريق خلق مجتمع تنسجم فيه مصـــالح الناس المختلفة كلما كان الى هذا سـبيل ، وبكل وضوح ممكن » ٠ أما الاعتمـاد على التماســك الاجتماعى الغريزى فلم يعد كافيا ويشير رسل الى كتاب ريفرز بعنوان « الغريزة واللاشعور » الذى يصف فيه كيف يقوم سكان جزر ميلانيزيا فى المحيط الهادى بتنفيذ مشاريع جماعية دون حاجة الى تدبير سابق تدفعهم الى ذلك غريزة الولاء للجماعة ٠ ولكن رسل يعترض على الارتكان التام على غريزة الولاء فى شـــئون التنظيمات الصناعية المعقـــدة ٠ وفى نظره أن الحل الكفيل بخلق شعور الود هو تثبيت الأوضاع الاقتصادية فى قالب اشتراكى ٠ « لقد أصبح مجتمعنا الراهن ، تحت تأثير المثل الليبرالية ، يحتفظ بالمظالم الاجتماعية المجحفة ، فى حين أنه يترك البـــاب مفتوحا لأى انسان كى يرتفع أو ينخفض فى السلم الاجتماعى ٠ وقد نجم عن هذا الجمع بين الرأسمالية وبين قدر من تساوى الفرص ٠ لقد كانت المظالم فى مجتمع العصور الوسطى على ما هى عليه الآن من اجحاف وخسف ، ولكن هذه المظالم كانت مثبتة مجمدة ، يكاد كل انسان أن يقبلها باعتبارها مشيئة الله ٠ ولذلك لم تخلق هذه المظالم كثيرا من الحسد ، أو كثيرا من الصراع بين الطبقات المختلفة ٠ ومن المجتمع الذى يهدف الاشتراكيون الى اقامته سيختفى الظلم الخـــاص بالمصـــالح المادية ٠ ولهذا سيختفى التنافس الاقتصادى والحسد الاقتصادى ولكننا نعانى فى الوقت الحاضر من شرور نظام القرون الوسطى دون أن نتمتع بمزاياه ٠ لقد احتفظنا بالمظالم فى حين أننا دمرنا مفهوم الحياة الذى جعل الناس يرتضونها ٠ ومن الواضح أنه اذا شئنا أن نتغلب على انتشار المنافسة والحسد فان اقامة مجتمع تجمد فيه الأوضاع الاقتصادية شىء ضرورى » ٠

الاستمتاع بالجمال : ــ

يقول رسل ان عيوب التصنيع من الناحية الجمالية معروفة للجميع فالتصنيع كما هو الحال الآن « يحطم الجمـــال ويخلق القبح ويميل الى تدمير القـــدرات الفنية وليست هذه الصـــفات بالضرورة من مستلزمات التصنيع . فهى تنشأ من مصدرين أولهما أن التصنيع جديد وثورى . وثانيهما أنه قائم على التنافس والتجارة » . ويعتقـــد رسـل أنه بعد تثبيت الأوضاع الاقتصادية فى قالب اشتراكى ستختفى العوامل التى تسبب اضمحلال الفنون ، اذ أن التصنيع بعد رســـوخ قدمه فى التربة الاشتراكية لن يعود ثوريا أو جديدا ، كما ان التجارة والربح سيزولان عنه .

وفى نظر رسل أن التجارة وحدها لا تلحق الأذى بالفنون . ويضرب على ذلك أمثلة أثينا والبندقية وفلورنسا التى اشتهرت باحتضانها للفن وتشجيعها له . وفى اعتقاده أن الفن يتطلب وجود عنصرين هامين هما التقاليد الفنية وابداع الفنان الفرد . وتسعة أعشار الخلق الفنى تعتمد على التقاليد والجزء العاشر يعتمد على طاقة الفنان المبدعة الخلاقة . واذا كان التصنيع لحداثته لا يســـتند الى تقاليد صـــناعية معينة فى الوقت الحاضر ، الا أنه بمضى الوقت كفيل بخلق التقاليد الخاصة به . ولكن هذا وحده لن يتكفل بحـــل المشكلة . « وانى أخشى أن العنصر الآخر المتمثل فى امتياز الفرد الفنى الذى لا يمكن خلق تقاليد صالحة بدونه يكاد لا يستطيع أن يعيش فى جو تسوده الروح التجـــارية القائمة على التصنيع » .

المعرفة : ــ

يحمل رسل حملة شعواء على الروح العلمية فى ظل المجتمع الصناعى الرأسمالى . صحيح أن النظام الرأسمالى الراهن مسئول عن الكثير من مظاهر التقدم الذى حققه العالم فى الأزمنة الحديثة . ولكن الرأسمالية كما يقول رسل لا تحفل الا بالجانب النفعى والتجـــارى من العلم ، أى بالجانب التطبيقى منه ، فى حين أنها تغفل أشرف وجه للعلم بل أقدسه وهو الوجه النظرى الصرف . ورسل يفضل حب العلم من أجل العلم بغض النظر عن نفعه من الناحية العملية ، ويرى أن العلم لم يكن ليحقق انتصاراته الهائلة حتى فى ظل النظام الرأسمالى التجارى لو لم يقيض له الدهر علماء بررة مخلصين وقفوا كل جهودهم الوفية النبيلة على محاولة

فهم أسرار هذا الكون دون أن تدخل النفعية فى اعتبارهم ، فمندل الراهب المتبتل فى صومعته لم يكن ليتوصل الى اكتشاف نظرياته فى الوراثة لو أنه كان مشغولا بأوشاب العلم ألا وهى الجوانب النفعية أو التطبيقية منه . وليس منديل الا واحدا من هؤلاء العلماء الاطهار الذين تبتلوا فى حب العلم لذاته ، وأخلصوا له ، وربطهم به صلة العشق القدسى . وكذلك الحال مع فاراداى وماكسويل وهرتز الذين اكتشفوا الاساس النظرى للاسلكى . فهم لم يكونوا مدفوعين بالآثار النفعية التى قد تترتب على اكتشافهم بل كانوا مدفوعين بالرغبة الخالصة الأكيدة فى تفهم العمليات الطبيعية فى هذا الكون . ويقول رسل ان وصاية الرأسمالية على العلم قد تتمخض عن أخطار وبيلة تهدد كيانه . فقد تخنق الرأسمالية حب العلم لذاته فى نفوس الكثير من الناس بحرصها على كل ما هو مفيد . لقد شب التصنيع وترعرع فى أحضان البيوريتانية المنحدرة من البروستانتية . والبيوريتانية التى لا تهتم بأى شيء فى الحياة قدر اهتمامها بالعمل . والنفعية ، قد ألحقت الضرر الجسيم بالفنون . وأخشى مايخشاه رسل أن يمتد أذاها حتى يشمل العلوم . والذى يدل على اقتناعه الراسخ بالعلاقة بين البروتستانية ونشأة التصنيع قوله : « وليست محض صدفة أن أعظم البلاد الصناعية على الاطلاق تدين بالبروتسنانتية » .

٣ ـ مصادر السلطة

يقول رسل أنه لابد للسلطة أيا كان نوعها أن تستند الى أساسين . ويتمثل الاساس الاول فى الرأى العام ، كما يتمثل الاساس الثانى فيما نتوارثه من عادات ، وتقاليد ويشهد الوقت الحديث اضمحلالا فى سلطان التقاليد الامر الذى يزيد من أثر الرأى العام ويجعله العامل الحاسم فى تقرير شكل السلطة فى المستقبل . ويتحدث رسل عن طريقتين للحصول على السلطة لا يفصل بينهما خط واضح فهما يختلطان فى بعض الاحيان : القوة والاقناع . وسلطة الجلاد على ضحيته تمثل القوة اما أثر العالم فى أفكار الناس فيمثل الاقناع . والفرق بين القوة والاقناع هو أن « القوة تعنى التأثير فى أعمال الآخرين دون تغيير رغباتهم ومعتقداتهم والاقناع يعنى التأثير فى أفعال الآخرين عن طريق تغيير رغباتهم أو معتقداتهم » .

ويميز رسل ثلاثة مصادر للسلطة وان كانت متشابكة فى بعض الحالات هى السلطة العسكرية والاقتصادية والفكرية . وتتمثل السلطة

العسكرية فى الجيوش والاساطيل والشرطة . ونجد في المجال الدولى ان السلطة العسكرية مرتبطة بالســـلطة الاقتصـــادية . اما الحصار الاقتصادى الذى تضربه دولة حول دولة أخرى فى واقع الامر فيستند الى السلطة العسكرية . ولكن الفصل بين هاتين السلطتين يكاد يكون تاما فى الاحوال الداخلية للدولة . وتتمثل السلطة الاقتصادية فى قدرة رجال الاعمال تشريد الذين يلتحقون بخدمتهم . أما السلطة الفكرية فتتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية مثلا . وفى رأى رسل أن السلطة الفكرية هى أساس المصدرين الآخرين للسلطة .

السلطة العسكرية :

يرى رسل ان السلطة العسكرية تعتمد على عدة عوامل من أهمها وان كان الناس لا يلتفتون الى هذا — حجم الامة . والامة تنهض على وحدة المشاعر . وفى أغلب الأحيان نجد أن زيادة السلطة العسكرية فى أمة مرتبطة بزيادة عدد سكانها . ولكن هذه القاعدة ليست بالثابتة . ويضرب رسل مثلا على العلاقة بين زيادة حجم الأمة وبين زيادة قوتها العسكرية بألمانيا الموحدة على يدى « بسمارك » .

ولكن حجم الامة وحده لا يكفى ان لم تتوافر شروط أخرى كتقدم الصناعة والثروة المعدنية . ويلعب الذكاء دورا هاما فى الاستفادة من الثروة المعدنية فقد تملك أمة ثروة معدنية عاطلة تكون سببا فى طمع الطامعين فيها وفى استيلاء الامم الاخرى عليها فالذكاء عامل أساسى فى دعم السلطة العسكرية . والامة الذكية تســتطيع ان تســتغل تفوقها العسكرى — دون اشعال نيران الحرب — وفى املاء شروطها على الدول الأخرى ، والاستيلاء على ماتطمع فيه من مغانم . ويعتمد دخل الامة فى الوقت الحاضر على قدرتها على ابتزاز الاموال من الدول الأخرى .

« والامم الحديثة كقطاع الطرق يهدد بعضهم البعض قائلا : « هات مالك ، أو آخذ حياتك ، فى العادة تأخذ هذه الامم كلا المال والحياة » .

وتتطلب القوة العسكرية خلق التنظيم العام . ورغم حاجة التنظيم العام الى عوامل مادية مثل سهولة المواصلات الا انه ينهض أساسا على العوامل النفسية أى على التآلف فى المشاعر . فانقسام الدولة على ذاتها فى ولائها النفسى يفت فى عضد قوتها العسكرية . وعلى هذا فان وجود مشاعر منسجمة فى التنظيم العام ضرورة لدعم القوة العسكرية . ويرى

رسل ان القوة العسكرية لا تستطيع ان ترغم الناس على تصرف معين اذا كان هذا التصرف يثير في نفوسهم العداوة الحقة . فالهند لا تستطيع ان ترغم هندوكي على أكل لحم البقر . ولكن المشكلة في نظره ان الاهداف التافهة التي لاتتصل برفاهية الناس هي التي تستأثر فعلا بتفكيرهم وتسيطر على عقولهم . « ولكن حتى الآن نجد ان الشعوب لا تهتم اهتماما عميقا بالشئون التي تؤثر على رفاهيتها كما تولى الموضوعات التافهة التي تقوم على الخزعبلات اهتماما » .

السلطة الاقتصادية :

تتمثل هذه السلطة الاقتصادية في القدرة على التأثير في مقدرات الناس وأرزاقهم ويرى رسل ان العلاقات الاقتصادية في المجتمع الصناعي الرأسمالي متشابكة بحيث يؤثر عمل كل انسان في دخل كل انسان . ولكن السلطة الاقتصادية الحقيقية في أيدي حفنة من كبار الاحتكاريين الذين يمارسون سلطانهم لا على الأفراد وحدهم بل على الدول والحكومات كذلك . وهذه السلطة الهائلة التي يملكونها تستند الى حقهم القانوني في الملكية الخاصة . ويمكن للناس أن يقضوا عليها اذا اتحدت كلمتهم ، وتضافرت جهودهم وأصروا كل الاصرار على القضاء عليها . والقضاء على الاحتكارات والغاء الملكية الخاصة في وسائل الانتاج رهن بتغير في معتقدات الناس وعقائدهم . وهذا ما يدعو رسل الى الايمان بأن السلطة الفكرية هي أساس السلطتين العسكرية والاقتصادية معا .

مصادر التأثير في الرأى :

يرى رسل ان التقاليد تشكل أكبر مصدر للسيطرة على اراء الناس وان الدين يحتضن التقاليد ويباركها . ويهاجم رسل الدين باعتباره قوة رجعية تحارب الاصلاح والتجديد ، وكل محاولة لتخفيف ويلات الانسانية . ويستشهد على ذلك بموقف رجال الدين في انجلترا من المشاكل العمالية فقد كانت الكنيسة تقف في وجه كل مطالبة بتحسين أجور العمال والعمل في المصانع مما يدل على ان الدين يشجع الاحتفاظ بالأوضاع القائمة ولايسمح بالتطور وفي أمريكا كان رجال الدين يقفون بالمرصاد لحركة تحرير العبيد كما كانت الكنيسة في بلجيكا تبارك الاعمال الوحشية التي يرتكبها المستعمرون البلجيكيون في الكونغو ، وتعترض على محاولة الاشتراكيين والاحرار لوقف هذه الفظاعات « وليس هناك

شك فى ان العالم المسيحى كان سيربح من الناحية الاخلاقية والادبيـــة باندثار الكنيسة ، لو أن هذا قد تحقق فى أية فترة من الستمائة عام الماضية » .

ومن الامور التى تؤثر فى الرأى العام احترام الرجل العادى للزعماء السياسيين احتراما من شأنه ان يشـــــل قدرته على التفكير والحـــكم المستقلين . ويشرح رسل الاوضاع السياسية فى البلاد التى يحكمها أصحب الاعمال الاثرياء ، فيقول ان الاحزاب السياسية فيها تعتمد فى نجاحها على عاملين : المال ، والاصوات الانتخابية . وفى العادة يحصل الحزب على مايلزمه من مال فى حملاته الانتخابية من أحد بيوتات الاعمال مما يجعله فى واقع الأمر خاضعا له فى أفعاله . أما خطبه فتستهدف ارضاء عواطف الرجل العادى ، والهابها وكما ان السياسيين يخلقون عن طريق الدعاية آثارا سيئة فى الرأى العام فان الرأى العام بدوره يترك آثاره السيئة فى سياسة الحزب الذى يضطر لمجاراته فى عواطفه الهيستيرية حتى يكسب أصواته الانتخابية . ولا يغفل رسل بطبيعة الحال خطورة التعليم فى تشكيل الرأى العام ويدعو المعلمين لأن يبذلوا الجهد الجهيد للاحتفاظ باستقلالهم الفكرى عن الدولة . وهو يرى أن تشجيع التفكير العقلى خير ضمان لخلق رأى عام مستنير لا يقع فريسة لتضليل المضللين .

٤ ــ توزيع السلطة

الحل الامثل لمشكلة توزيع السلطة فى اعتقاده يتلخص فى اشتراك المواطنين جميعا فى تســـيير دفة الحكم . ولن يتحقق هذا الا بتأييد الاشتراكية الحرفية التى تنادى بالحكم المحلى واللامركزية واستقلال الصناعات داخل اطار الدولة .

ويوافق رسل على ما ذهب اليه كول من ان المنتجين الصـــناعيين لا ينبغى ان يتمتعوا وحدهم بالحق فى جمع شـــملهم داخل تنظيمات مســتقلة تدافع عن مصالحهم دون أن يتخذ المستهلكون اجراء مماثلا يحمى مصالحهم كذلك فان للمنتجين والمستهلكين على حد سواء الحق فى الانضواء تحت تنظيمات مستقلة تدافع عن مصالحهم دون ان تتدخل الدولة فى شـــئونها الخاصــة مادامت لا تقوم بعمل من شأنه الاضرار بالمصلحة العامة .

ويرد رسل على الرأى الذى يعرضـــــه جراهام ولاس فى كتابه « ميراثنا الاجتماعى » الذى يعتقد فيه الاشتراكية الحرفية ويبنى دالاس هجومه على الاشتراكية الحرفية على ثلاثة أسباب هى :

١ ـ ان التنظيمات المهنية تميل الى المحافظة الفنية .

٢ ـ ان هذه التنظيمات تميل الى خنق أصحاب المواهب الجديدة وأنها تناصب التجديد العداء .

٣ ـ ان هذه التنظيمات تعمل على امتصاص أكبر قدر من ايراداتها مما يفوت على الدولة أموالا كان من الممكن آن تئول الى حيازة الدولة .

ولا يفكر رسل ان الاشتراكية الحرفية ستفضى الى هذه النتائج . ويقول ان الاتهام الثانى الخاص بالميل الى التطابق والتشابه والى خنق التجديد صحيح ، ويصعب الرد عليه رغم مافيه من مبالغة ، اما الاتهامان الاول والثالث فسببان يدعوان الى مؤازرة الاشـــتراكية الحرفية لا الهجوم عليها . يتهم دالاس الاشتراكية الحرفية بالمحافظة الفنية التى تعرقل التقدم الصناعى التكنولوجى . ولايجد رسل ضيرا فى هذا حتى ولو كان صحيحا لأن محنة العالم الحديث لاترجع الى تخلفه التكنولوجى والعالم الراهن يحتاج الى وقت فراغ ينفقه فى الاستمتاع بالحياة وأطاييب الثقافة والفنون والمعارف . وبالتقدم التكنولوجى الحالى يمكن تحقيق الرفاهية والرخاء اذا انتفى الاستغلال وضياع الجهد والتمهيد للحرب .

ولا يرى رسل غضاضة فى ان تستولى التنظيمات المستقلة على مايصل الى يدها من موارد « فاغراض الدولة أساسا اغراض شريرة وأى شىء يقف فى ســـبيل حصـول الدولة على المال مدعاة للسعادة » . والدولة لاشغل لها الا اثارة حفيظة مواطنيها على الاجانب والسعى وراء الغزو . « ولو كنا قد وجدنا صعوبات أكبر فى جباية الضرائب لكان من الممكن ان نتخلى عن ضرب الهنود واضطهادهم والقاء القنابل على سكان العراق من الطائرات ، واثارة الحروب الاهلية فى روسيا ... الخ ... » ولهذا يريد رسل أن يقصر تدخل الدولة فى الشئون الداخلية للتنظيمات الاقتصادية المستقلة عندما يبدر منها ما يؤذى مصالح بقيـــة المجتمع . ويعتقد انه من الافضل لو امكن لهذه التنظيمات المســتقلة ان تمثل فى المحافل الدولية لان هذا مدعاة لتدعيم روح التعاون الدولى .

وينتقل رسل بعد ذلك الى الحديث عن البيروقراطية او موظفى الدولة وعن السلطان الذى يتمتعون به بحكم مراكزهم . وفى هذا يقول :

« اننى اقابل أحيانا شبانا لهم ميول فوضوية يتصورون انه من الممكن الاستغناء عن الموظفين كلية . وهؤلاء لم يخطر لهم ان يسألوا انفسهم مثلا كيف يمكن ادارة السكة الحديد بدون جدول للقطارات ، وكيف يمكن الاتفاق على جدول القطارات من غير موظفين » ومن هذا يتضح ان رسل يرفض الفوضوية ، ولا يتفق معها فى الغاء البيروقراطية فهو يهدف الى تحديد شرورها لا القضاء عليها تماما . ويقترح رسل ان يتولى الرأى العام مراقبة البيروقراطية لسطوتها وشرورها . ويرى ان الضمان لهذا هو ان يتم تشكيل التنظيمات على أساس مهنى صحيح . ان التصنيع يزيد من سطوة تنظيمات الطبقة العاملة المنتجة مما يهدد مصلحة المستهلكين . ولهذا يجب أن يقوم المستهلكون بتشكيل تنظيمات تحمى مصالحهم . واذا حدث خلاف بين مصالح التنظيمات المنتجة والتنظيمات المستهلكة فعليها ان تتفاوض فى جو من الحياد توفره الدولة . ويجب ان يتمتع تنظيم المنتجين بالحق فى الاضراب ، وتنظيم المستهلكين بالحق فى المقاطعة حماية لمصالحه وليس للدولة ان تتدخل لحسم النزاع فى مصلحة تنظيم دون الآخر الا اذا اثبت الخبراء المعنيون مقدار الاذى الذى يلحقه التنظيم المتعسف .

٥ ــ التعليم

يرى رسل انه لا يمكن اصلاح النظام التعليمى اصلاحا حقا بدون اجراء تغيير شامل فى الاوضاع الاقتصادية القائمة . ولكن حتى يتم التغير الاقتصادى الشامل ، لا ينبغى علينا أن نقف مكتوفى الايدى بل علينا أن نسعى الى الاصلاح من شأنه ما استطعنا الى هذا سبيلا . ويعقد رسل أمله على المعلم أكثر من أى انسان آخر فى النهوض بأعباء هذه المسئولية الجديدة .

والمشكلة الكبرى التى يجابهها التعليم فى عصر التصنيع هى : الى أى حد يمكن الجمع بين التطابق فى الفكر والسلوك والتنظيم الواسع النطاق اللذين يفرضهما التصنيع على الجانب المادى من الحياة ، وبين الفردية والتلقائية اللتين يسعى الانسان لتحقيقهما فى الجانب غير المادى من حياته ؟

لا بد أن يكون التعليم الالزامى على نفقة الدولة تديره وتوجهه بما تراه صالحا ، فهذه ضرورة تمليها ظروف الحياة الحديثة . وفى بعض الاحيان نجد أن كلا التعليمين تشوبهما العيوب ، فتعليم الدولة تشوبه

العيوب المميزة للعالم الحديث وهى « القومية » ، وتمجيد التنافس والنجاح وعبادة الآلية ، وحب التطابق والتشابه ، واحتقار الفردية » والتعليم كما تمارسه الهيئات الدينية ليس أفضل حالا ٠ فهو يهـدف الى خلق « الخضوع للسلطة وغرس الايمـان بالهـــراء عن طريق التكرار وأثره المغناطيسى فى مطلع حياة الانسان » ٠

ويرى رسل انه لا يمكن اصلاح شأن نظام التعليم الا اذا تمتـع المعلم بالحرية التامة فى ابداء ما يعتنق من آراء دون أن يتعرض للطرد أو التشريد بسببها ، اللهم الا اذا أثبت عدم كفاءته وصلاحيته للعمل ٠ ولابد من التحقق من عدم صلاحيته بالفعل حتى لا يكون هذا الاتهام تعلة يقصد بها التخلص منه بسبب آرائه التى لا ترضى السلطات عنها ٠ وقد يخلق عرض الآراء المتباينة المتصارعة التى يعتنقها المعلمون المختلفون فى عقول التلاميذ حالة من البلبلة الفكرية أو التشكك الذهنى بتعبير أصح ٠ ولكن رسل لا يرى غضاضة فى هذا التشكك الذهنى ، ففى رأيه أنه الضامن الوحيد لمناعة عقول النشء ضد سائر أنواع الدعايات المغرضة المضللة التى تحاول السيطرة عليها ٠

ويقول رسل : « هناك هدفان قد يسعى النظام التعليمى لتحقيقهما، وهما خلق المواطنين الصالحين ، أو الآدميين الصالحين ٠٠ والانسان الذى تشبع بالنظرة الآلية سيحاول خلق المواطنين الصـــالحين ، لا الآدميين الصالحين ، وسيفكر فى شروط المواطن الصالح بطريقة تكاد تســتبعد الانسانية الصالحة من اعتبارها » ٠

ويعترض رسل على التعليم الذى توفره الدولة لأنه ينهض على القومية، وليس على الدولية كما انه يتغافل الفرد بكل طاقاته وامكانياته كما لو كانت للدولة مصلحة مستقلة عن مصالح الافراد ٠ والفرد عند رسل هو غاية كل وضع اجتماعى لا وسيلته ٠

ويعتقد رسل ان دراسة التاريخ بحاجة الى تغير شامل ، فهو يدرس فى الوقت الحاضر من وجهـــة النظر القومية المحـددة المتعصبة المليئة بالتحيزات ٠ ويقترح حلا مفاده توحيد كتب التاريخ التى تدرس فى جميع أنحاء العالم ، وأن تقوم سلطة دولية بتأليف هذه الكتب وبذلك تختفى النظرة القومية الضارة التى تهتم بمصلحة دولة ولو كان على حساب بقية العالم ٠ وينصح رسل بتدريس كتاب مثل « مجمل التاريخ » لويلز فى المدارس والمعاهد التعليمية ، لأن هذا الكتاب ينظر الى الانسانية باعتبارها عائلة واحدة مبتدئا فى عرض تاريخها منذ الاحقاب الجيولوجية والبيولوجية

السحيقة كما انه يعالج الكيان الحضارى ككل اشترك فى دفعه الى الامام كثير من الامم .

ويرى رسل أن هناك خطأ فى مفهـــوم الدولة انحدر من فلسفة هيجل ، واحتفظت به الماركسية وهو الاعتقاد بأن للدولة مصلحة مستقلة عن مصالح أفرادها ولها أولوية الاهمية والاعتبار . وهذا الزعم يلبس قناع الفكرة المنادية بأن المجتمع كائن عضوى ليس لأعضائه هدف غير السهر على خدمة الكل . ويزعم المدافعون عن هذه النظرة العضوية أنها تتعارض مع النظرة الآلية للمجتمع ، ولكن رسل مقتنع انها نظـرة آلية مهما حاول المشايعون لها اخفاء هذا وهى نظرة آلية لسببين : (١) لأن الآلة نفسها كائن عضوى بهذا المعنى ، فهى تتـكون من أجزاء مختلفة ليست لها وظيفة مستقلة عن وظيفة الكل . بل لو أن هـــذه الاجزاء انفصلت لما استطاعت أن تنتج شيئا على الاطـلاق (٢) ولأن التصـــنيع مسئول عن خلق هذه النظرية الآلية فعلا ، والعضوية اسما . فالتصنيع قد أوجد تنظيمات ضخمة لا بد لأجزائها المختلفة من التعاون حتى تؤتى ثمارها . ويؤمن رسل بأن هذه النظرة التى تزعم انها عضوية ليست الا ستار فكرى يخفى وراءه الذين يرسمون صورة المجتمع العضـــوى فى مخيلتهم مصالحهم سواء أكانت هذه المصالح شعورية أم لاشعورية .

ويحمل رسل العداوة لنظام التعليم الراهن لأنه يخرج مواطنـين صالحين لا أفراد صالحين ، وبمعنى آخر لأنه ينتج أدوات طيعة فى يد الدولة والسادة الحاكمين ، هذه البيروقراطية ستفضى حتما الى قتل الفكر والفن والتلقائية والفرحة بالحياة . لقد بلغت سيطرة الدولة فى الوقت الحاضر مدى لم تصل اليه دولة من قبل . وقد أسهم التصنيع بنصيب وافر فى تركيز سلطان الدولة وتدعيم البيروقراطية لأن التصنيع لا ينجح الا فى ظل التنظيمات الضخمة ، التى توجه وتدار من فوق . كما ساعد على تركيز سلطة الدولة ما أحرزه العلم من تقدم هائل فى مجال التدمير .

ويعتقد رسل أنه يجب على النظام التعليمى فى أية بقعة من بقاع العالم أن يحتضن مبدأين :

١ ــ مبدأ الولاء للاسرة قبل الولاء للمحيط القومى .

٢ ــ مبدأ تشجيع المبادأة والحرية فى الافراد ما دامت هذه الحرية لاتجور على حريات الآخرين .

وقد بلغ سخط رسل على الاتجاهات القومية التى تقبع وراء الحروب

والاعتداء الى الحد الذى جعله يقول : « ان الوطنية فى صــورتها المألوفة أسوأ رذيلة يمكن أن تلصق بالانسان العصرى » • ويرى رسل ان التقدم الآلى يمكننا من تخفيض ساعات العمل الى أربع ســاعات من غير اضرار بالانتاج الضرورى ومن توفير وقت فراغ يبلغ عشرين ساعة فى اليــوم • والمهمة المنوطة بالنظام التعليمى هى تدريب الناس ذهنيا على الاستفادة من وقت فراغهم الكبير بذكاء وبطريقة بناءة ، فالرفاهية الاقتصــــادية عديمة الجدوى اذا لم يتحرر الانسان من عبوديته الذهنية التى يفرضها عليه الحكام والبيروقراطيون •

٦ ــ التنظيم الاقتصادى والحرية الفكرية

يوضح رسل الفرق بين النظرة الميكانيكية أو الآلية للتصنيع التى يناصبها العداء ، والنظرة الانسانية التى تنال منه كل تقدير فيقول : « يعتبر المفهوم الآلى ان الخير شىء مستقل عن الفرد ، شىء يتحقق خلال المجتمع ككل ، سواء تعاون فيما بينه طواعية أو قسرا • أما المفهــــوم الانسانى فيعتبر أن الخير شىء موجود فى حياة الافراد كما ينظر الى التعاون الاجتماعى على انه ذو قيمة فقط فى الحدود الذى يسهم فيها فى توفــير سعادة مختلف المواطنين • والمفهوم الآلى لا يهتم بالفرد بهذا المعنى ولكنه يهتم بالجزء الذى يمكنه أن يلعبه كترس فى آلة كما أنه يسعى الى ترويض طبيعته ويغيرها حتى يتمكن من اخضاعه عندما تتعارض رغباته الفردية مع الخطة الكلية العامة • ويجب عليه أن يتعلم أن يقول للدولة : « لتكن مشيئتك » ومن الناحية الاخرى نجد أن المفهوم الانسانى ينظر الى الطفل كما ينظر البستانى الى شجرة صغيرة أى الى شىء له طبيعته الكامنة فيه التى ستتطور الى صورة بديعة اذا توافرت لها التربة الصالحة والهواء والنور اللازم » •

ويرى رسل أن النظرة الميكانيــكية فى أعلى صورها تتجــلى فى الكالفينية كما تتجلى النظرة الانسانية فى أرفع مراحلها فى الطاوية • « وأتباع كالفين لا ينظرون الى الانسان على انه كائن يعيش من أجل تحقيق ذاته ، ولكن من أجل تمجيد اسم الله ، والذين تخلص نفوسهم يمجدون اسمه فخلاصهم يظهر رحمة الله • والذين يهلكون يمجـــدون اسم الله كالذين يخلصون تماما ، فمن خلال هلاكهم تظهر عدالة الله ••• » والناس يخلصون لأن الله كتب لهم أن يخلصوا قبل أن يولدوا ، وليس لأنهم يستحقون الخلاص ، وخلاصهم أو هلاكهم مستقل عما اذا كانت حياتهم فاضلة أم خاطئة » •

ويعتقد رسل ان الناس فى العصر الحديث يصـــور لهم الوهم ان أفكار كالفين قد اندثرت « ويخيل الى أن النظرة الآلية الراهنة ، وخاصة كما هى موجودة بين كبار الرأسماليين تكاد لا تتميز عن الكالفينية • ضع الآلة مكان الله • وكفاءة الآلة مكان مجد الله ، والاغنياء والفقراء مكان الخالصين والهالكين والميراث مكان القضاء والقدر ، وستجد عندئذ ان لكل عقيدة فى الكالفينية ، ما يقابلها فى دين التصنيع الحديث » • وكلا الديانتين ـ الكالفينية والتصنيع ـ تتفقان فى اقصاء الغرض من الحياة الانسانية خارج الحياة الانسانية نفسها • ومن ثم تنبع القسوة التى تشترك الديانتان فيها • ويقول رسل : اننا نميل الى عبادة كل ما هو مفيد لنا ، واننا بعبادتنا له انمـــا نجـــرده من فائدته • فالآلة التى خلقها الانسان من أجل فائدته قد أصبحت سيدة له • ورسل لا يعترض على استخدام الآلة أو التصنيع ولكنه يعترض على مبدأ عبادة الآلة •

والطاوية هى المقابل فى الطرف الآخر للكالفينية ، فهذا المذهب الذى نشأ فى الصين فى القرن السادس قبل الميلاد يعتبر أن لكل كائن حى أيا كان طبيعته الكامنة وأنه لا يحق التدخل فى وظيفته مهما كانت صورة هذا التدخل • وعلى هذا الاساس يرفض تشوانج تزفيلسوف الطـاوية الرائد فكرة انشاء حكومة يخضع لها الافراد لأنها تتدخل فى شئونهـــم ومجرى حياتهم • أكثر من هذا ان الرغبة فى الاحتفاظ بحرية الاشـــياء جعلته يعترض على انشاء الطرق والمراكب وترويض الخيل بل على صـــنع الآنية الفخارية والنجارة لأن هذه الاعمال جميعا تشـــكل تدخلا فى مجرى الاشياء الطبيعى • والنشاط الوحيد الذى يوافق عليه تشوانج تز هو أن يقوم الانسان بالغزل حتى يوفر لنفسه الكساء وبفلاحة الارض ليمد نفسه بالطعام •

ويتفق رسل مع الطاوية فى المناداة بضرورة حدوث التطور الطبيعى من الداخل ، ويرى ان هذه الغاية سليمة « وفى رأيى ان أكبر قدر ممكن من التطور الحر للفرد هو الهدف الذى ينبغى للنظام الاجتماعى أن يسعى لتحقيقه » ولكنه يعترض على وسيلة الطاوية التى تنادى بالغاء الحكومة والغاء الحكومة لن يفضى الى تحقيق مثل الطاوية الاعلى ولا الى التطور الحر الطبيعى للافراد ، لأن التطور الطبيعى عند بعض الافراد معناه القضاء على التطور الطبيعى عند الآخرين • واختفاء الحكومة معناه سيطرة الاقوياء على الضعفاء واستبدادهم بهم • وستصبح الحرية حكرا عليهم يستأثرون بها على حساب الاغلبية من الضعفاء والعاجزين •

ويرى رسل أنه يمكن توافر فرص النمو الطبيعى للافراد اذا توافر عاملا العدالة والحرية ، واذا أمكننا التوفيق بينهما · العدالة تضمن للفرد ضرورات الحياة ، والحرية توفر له تحقيق ذاته وسعادته بشرط أنهـا لا تتجاوز وتنتقص من حريات الآخرين ·

ويعترض رسل على تركيز الثروة الحيوانية فى يد حفنة من أصحاب رءوس الاموال لا لأن هذا التركيز يفضى الى الحاجة والعوز ، فالبرغم من أن الفاقة أليمة على النفس الا أن هناك خطرا أكبر يتهـدد حياة الناس ويتلخص هذا الخطر فى الاستبداد الفكرى الذى يفرضه أصحاب المال على من لا مال لديهم · والتصنيع الاشتراكى يستطيع القضاء على الفاقة وتوفير قدر هائل من وقت الفراغ للافراد يمكنهم انفاقه فيما يعود عليهم بالخير والمتعة · ولكن التصنيع الاشتراكى لن يؤتى ثماره الا بتحديد النسل ، فالزيادة الهائلة فى النسل تفضى حتمـا الى الفقر المدقع ، ومن ثم الى الحروب « والمأمول فيه أن تندثر التحيزات الدينية التى تقف حتى الآن عائقا يعترض طريق تحديد النسل » ·

ولنفرض أن اشتراكية التصنيع قد تمكنت من توفير أسباب الحياة المادية لجميع الناس ، فهل يستتبع هذا أن يتمتع الناس بحرية البحث العلمى والخلق الفنى والانطلاق الفكرى ؟ يجيب رسل عن هذا بتأكيده بأن البيروقراطية ستقف بالمرصاد لكل ما لا يروق لها من فكر ، ولـكل محاولة للخلق والابداع والتجديد · « واذا ترك لسلطانهم الحبل على الغارب فانى لا أشك انهم سيقتلون الفن والعلم وكل نوع من التفكير الحر فيما يتعلق بالحياة والعلم » ·

ويقول رسل انه ترامى الى سمعه أن البلاشـفة حرموا تدريس نظريات اينشتين على أساس أنها تدمر ايمان الناس بحقيقة المادة · وهو لا يستطيع أن يجزم بصحة هذا الخبر · ولكن هناك بعض الحوادث التى وقعت له ، والتى تؤكد أن اشتراكية الدولة ستلجأ ولا شك الى مثـل هذه الاساليب لاضطهاد الفكر الحر الجديد · فبعد عودته من الصين الى بلده بحث رسل عن شقة لاستئجارها · وراقت له احدى الشقق فتقدم بعرض الى صاحبها يطلب منه تأجيرها له ورفض المالك أن يؤجرها لأن أفـكار رسل السياسية لا تروق له · وأخيرا بعد تراسل واتصالات قبل المالك أن يؤجرها بايجار باهظ وبشرط أن يتعهد رسل أمام اثنين من السـكان بأن يكف عن مزاولة دعايته السياسية طالما أنه يقطن شقته · ويعلق رسل قائلا أنه لولا وجود أصحاب بيوت آخرين غير متزمتين لكان مصيره

التشريد . ويتخيل رسل حالته لو كانت كل البيوت مؤممة فى يد دولة اشتراكية ، وان السلطات تناصب آراءه السياسية العداء فيقول : ان الامر فى هذه الحالة كان سينتهى به الى مغادرة البلاد .

ولكى نضمن أن الدولة لن تستخدم سيطرتها الاقتصادية لتضطهد من وما لا يروق لها يقترح رسل أن تثبت هيئة قضائية جرم المتهم من الناحية القانونية قبل أن تقدم الدولة على اتخاذ أية عقوبات اقتصادية ضده ، كما يقترح أن ينتبه الرأى العام الى شرور بيروقراطية الدولة حتى يحمى نفسه من أخطارها . وعلى النقابات التنظيمات داخل الدولة أن تنظر الى موظفي الدولة بعين الشك والريبة تماما كما كانت تفعل مع أعدائها أصحاب رءوس الاموال قبل انشاء النظام الاشتراكى . واللامركزية فى الحكم ضمان ضد طغيان البيروقراطية واستبدادها . نعم اللامركزية كلما كان الى اللامركزية سبيل .

(٦)

العلاقة بين الفرد والمجتمع

عند برتراند رسل

السلطة والفرد

في كتاب له بعنوان « السلطة والفرد » يتضمن محاضرات أذاعها برتراند رسل على أمواج الاثير في عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ بدعوة من هيئة الاذاعة البريطانية لافتتاح سلسلة من المحاضرات يقوم بالقائها علماء متخصصون في ميادين شتى ، يعنى رسل بتحـديد العلاقة بين الفرد والمجتمع • وأهم ما يشتمل عليه بحثه استقصاء جوانب المشكلة التالية : « كيف يمكن الجمع بين القدر الكافي من المبادأة الفردية اللازم للتقـدم والدرجة المطلوبة من التماسك الاجتماعي اللازمة للبناء » •

وقبل أن يتصدى رسل للكلام في هذه المشـكلة يتعرض لبحث الاسس التي يقوم عليها التماسك الاجتمـاعي في الطبيعة البشرية ، وبواعث هذا التماسك الاجتماعي اللازمة للبقاء •

١ ـ التماسك الاجتماعي والطبيعة البشرية

يتعرض برتراند رسل لبحث الاسس التي يقوم عليها التماسك الاجتماعي في الطبيعة البشرية وبواعث هذا التماسك في محاضرته الاولى فيقول : ان للتعاون والتماسك الاجتمـاعي أسـاسا في غريزة سائر الحيوانات الاجتماعية بما فيها الانسان • ولنأخذ النمل والنحل مثلا • المعروف عن النمل والنحل أنه على درجة عظيمة من التنظيم الاجتماعي وهو يعطينا صورة كاملة لفكرة التماسك الاجتماعي بتفانيه التام في سبيل المصلحة العامة وبولائه الشديد لواجباته الاجتماعية • ولا شك أن هذا التفاني وذلك الولاء يثيران فينا الاعجاب ولكنه ليس الاعجاب الخالص فالنحل على حد قول رسل لايخرج الى العـالم بروائع الفنون ولا يقوم بالمكتشفات العلمية كما أنه لا يؤسس أديانا يدعـو فيها الى أن النمل والنحل أخوة • وبمعنى آخر أن هذا التمـاسـك الاجتمـاعي من جانب النمل تماسك قاصر تشوبه العيوب اذ ان حياة النمل الاجتماعية لا تخرج عن كونها حياة ميكانيكية ، محدودة واستاتيكية • ولكن الانسان يختلف

عن ذلك فهو لا يقف عند هذا الركود التطورى بل يتعداه الى حياة الخلق والابداع ٠

ويتقصى رسل البواعث الكامنة فى الطبيعة البشرية التى تجعـــل التعاون الانسانى ممكنا فيقول ان النوع الانسانى البدائى كان صعيفا ونادر الوجود ، كما كان بقاؤه فى بادىء الامر تتهدده الاخطار دائما ٠ وفى هذه الظروف كان التعاون ضرورة بيولوجية لحماية النوع البشرى من الاندثار . ويتفق برتراند رسل فى نظرته مع العالم الانثربولوجى السير آرثر كيث فى أن المجتمعات الانسانية الاولى كانت محدودة العدد لا يربو عدد افراد كل منها على عدد افراد الاسرة الواحدة بكثير جدا . ومن المرجح ان عدد أفراد المجموعة الواحدة كان يتردد بين الخمسين والمائة ٠ وكانت وشائج التعاون والتماسك تربط افراد المجموعة الواحـــدة . واسهمت قله عدد المجموعة الواحدة بنصيب فى توفيـــق أواصر الالفة والصداقة بين افرادها ٠ ولكن شعور التآخى والزمالة بين المجموعة الواحدة كان يقابله شعور العداوة والبغضاء الذى كانت كل مجموعة قائمة بذاتها تحمله لغيرها من المجموعات المجاورة اذا قدر لها الالتقـــاء والاصطدام . وفى مبدأ الامر لم تكن هناك صلة بين المجموعات المتفرقة المتناثرة تقريبا غير ان زيادة النسل داخل القبيلة الواحدة كان يدفعها الى التمدد ، كما كان السعى وراء الطعام يضطرها الى ارتياد أرض جديدة كما يؤدى بطبيعة الحال الى اصطدام القبيلة الممتدة النامية بقبيلة مجاورة . وكان النصر فى هذا الصدام حليف المجموعة التى تمتاز على غريمتها بشىء من التفوق او التميز البيولوجى . ولم يكن الانسان البدائى يرسم سياسة بعيدة المدى أو يخطط من أجل المستقبل بل كان يدفعه الى السلوك تركيب ميكانيكى غريزى محض يتلخص فى ثنـــائية الموقف « فهو يقف موقف الصداقة والتعاون داخل قبيلته ويناصب العداوة ما عداها من قبائل ٠ »

كانت الاسرة ولا تزال اكثر المجموعات الاجتماعية ارتباطا وتوثقا فى العلاقات . وقد اوحت غريزة الانسان وظروف حياته بهذا التماسك داخل الاسرة ٠ فالاسرة كنظام اجتماعى لم تكن سوى ضرورة املتها الظروف فهو نظام تحتمه طول فترة الطفولة التى يقضيها الانسان فى حاجة الى رعاية وفى هذه الفترة كانت توليه رعايتها وكان انشغال الام بأمر هذه الرعاية عائقا يمنعها من مهمة جمع الطعام وقد ادى هذا الوضع فى نهاية الامر الى تقسيم العمل بحيث يتفرغ الرجل للقنص والصيد

وتعكف المرأة على شئون بيتها ورعاية اطفالها . وهذا التماسك الاجتماعى فى الاسرة وهو ضرورة بيولوجية كما ذكرنا ــ ليس قاصرا على الانسان فهو النظام الذى تتبعه معظم الطيور فى تسيير حياتها • ورأى الانسان الاول ان الصيد يكون اكثر اتقانا وغنما اذا تضافرت فى سبيله الجهود مما افضى الى زيادة حجم الاسرة وانتقالها الى طور القبيلة الصغيرة ومن المفروض ان هذا الانتقال من الاسرة الى القبيلة الصغيرة مرتبط من الناحية البيولوجية بالقيام بعملية الصيد على خير وجه عن طريق زيادة التعاون بين الرجال ؛ ومن ناحية اخرى كان الخوف من خطر القبائل الاخرى عاملا فى تدعيم التعاون وتثبيت أركان التماسك الاجتماعى •

ويقول رسل ان التركيب النفسى والجهاز الفكرى لدى الانسان الحديث لا يختلف فى شىء من الناحية البيولوجية عن الجهاز النفسى والفكرى لدى الانسان البدائى الذى كان يعيش فى العصر الحجرى القديم • وهذه حقيقة بيولوجية لها دلالتها لمن يظن مخطئا ان الانسان الحديث يتفوق فى جهازه الفكرى عن الرجل المتوحش البدائى • ومغزى هذه الحقيقة لا يجب ان يفوت على احد فهى تعنى ان الانسان يحمل فى طياته ذات التركيب النفسى عند انسان الغابة الهمجى وان الفرق بينهما ينحصر فى اكتساب المهارة والخبرة والمعرفة وسائر الصفات التى تدخل فى تكوين الانسان المتحضر • وهذه الحقيقة البيولوجية الهامة تلقى كثيرا من الضوء على سلوك الانسان الحديث فلو اننا نظرنا الى هذا السلوك الحديث لوجدنا أنه مردود الى تركة الهمجية التى ورثناها عن الانسان الاول وما العدوات الحالية اساسا الا استمرار لا شعورى لثنائية نفسية الرجل البدائى القديمة التى كانت تدفعه الى التآخى والتعاون مع أفراد قبيلته وتدعوه الى كراهية القبائل الاخرى والحقد عليها . أضف الى ذلك أن الاحساس الذى يكاد لايكون شعوريا بوحدة المنفعة والمصلحة الجماعية يبذر الحقد والبغض فى المجتمعات الحديثة فى بعض الاحيان .

ولكن هناك حقيقة اخرى لا تقل أهمية عن الحقيقة البيولوجية الابمة . حقيقة تدعو الى الامل وتبعث على الرجاء ؛ وهى ان الانسانية ليس محكوما عليها بالضرورة ان تعيش سجينة التركة البيولوجية التى ورثناها عن الانســان الهمجى . فالجانب المتوارث الداخل فى تركيب الانسان المتحضر جانب ضئيل فهناك صفات كثيرة غير متوارثة تدخل فى تكوين ما اصطلحنا على تسميته بالسلوك المتمدين •

لقد بدأ التماسك الاجتماعى فى المجتمعات الانسانية الاولى بالولاء لمجموعة يحدوها الى التآزر والتضافر الخوف من الاعداء الذين ترى انهم يتربصون بها لالحاق الاذى بها . وازداد هذا التماسك بدافع الشعور الغريزى المتوارث الذى لم يخل من التدبير الذهنى ، وظل يتطور حتى وصلت هذه المجموعات الى مانسميه بالامم .

كانت الحروب فى الماضى السحيق حروب ابادة يقوم الظافر فيها بالقضاء المبرم على المغلوب على امره ولكن تطورا حدث فى التاريخ الانسانى فبدلا من فتك الظافر بالمغلوب على أمره تحولت حروب الابادة الى غزوات وعمد المنتصرون الى تسخير واستعباد من تهيأت لهم اسباب الانتصار عليهم . وكان التماسك الاجتماعى سائدا بين صفوف العبيد ولكنه لم يكن تماسكا قائما على الولاء لسادتهم بل تماسكا مصدره الجزع والخوف من بطش القوة القاهرة بهم . هذا هو ما حدث عندما استولت نينوه وبابل فى الحضارات الغابرة على البلاد المحيطة بها وبثتا الرعب والهلع فى قلوب سكانها مما جعلهم لا يفكرون فى الثورة أو التمرد خشية البطش ومخافة الاذى . وهكذا اصبحت الحرب عاملا قويا فى زيادة حجم المجتمعات الانسانية من جهة ، كما حل الخوف كأساس للتماسك الاجتماعى محل التعاون القبلى والتضامن العشائرى من جهة اخرى .

ولكن الانسانية لم تقف عند هذا الحد فقد تطورت بحيث أصبح الولاء لعقيدة ما يتجاوز حدود الدولة القومية وحواجز الاجناس المتباينة فقد بشرت بعض العقائد بان البشر اخوة داعية الى امتداد الشعور بالتعاون القبلى وهو شعور بيولوجى فى أصله بحيث يشمل الاسرة الانسانية عن بكرة أبيها فنحن جميعا كما بشرت هذه العقائد أبناء الله .

ولكن هذا التسامى كان تساميا نظريا اكثر منه تساميا عمليا . فقد دأب التابعون لهذه الديانات على اعتبار المؤمنين بها وحدهم ابناء الله واستبعاد سائر التابعين للديانات الاخرى من حظيرة الاخوة الانسانية كما دأبوا على الاعتقاد بان الخارجين عن دينهم أبناء للشيطان . وهكذا عادت ثنائية الهمجى من جديد بتعاطفها على الداخلين فى زمرة القبيلة وبكراهيتها المشوبة لكل الخارجين عنها .

ولعل الخوف هو أكبر دعامة للتماسك الاجتماعى ، الخوف الدائم من الاعداء الخارجين . ولعل أكبر عقبة تعترض طريق انشاء حكومة أو دولة عالمية هى أن التماسك الاجتماعى الذى لايتوافر الا بالخوف من الاعداء

الخارجين سيؤول الى الانهيار باختفاء عامل الخوف من المجتمع الانسانى ٠ ان كل شيء فى العالم يقتضى كما يقول رسل التعاون الدولى ويدعو له : قواعد الدين والاخلاق ، والمصلحة الاقتصادية ، حتى مجرد الرغبة فى البقاء البيولوجى ، ولكننا بدلا من ذلك نريد مزيدا من التطاحن والشحناء ولا تفسير لهذا سوى حاجة الانسان الى عدو يكرهه ، هذا الدافع الذى ورثناه عن الغابة ومن أصعب الامور التى ستواجه توحيد العالم رغبة الانسان الغريزية فى المنافسة والتشاحن ولا بد لنا من التغلب على الطبيعة المفترسة اللا شعورية الكامنة فينا ٠ وليس هذا بالمستحيل ولكن التغلب عليها يقتضى منا ارساء مبدأ سيادة القانون من جانب وايجاد مخارج بريئة للتنفيس عن رغباتنا فى التنافس والشحناء من جانب آخر ٠ ويعتقد رسل ان الانسان العادى لن يكون سعيدا اذا اختفى عنصر التنافس من حياته فالتنافس فى نظره هو الحافز لشتى الاعمال الجادة ٠ ولكن الحل فى نظره هو ايجاد ميادين لتنافس الانسان تكون محدودة الاخطار ٠ ولكن هذا الحل لن يكون بالامر اليسير نظرا لما تشغله عاطفة التنافس من جانب عظيم فى حياة الانسان ٠

(٢)التماسك الاجتماعى والحكومة

يقول برتراند رسل فى المحاضرة الثانية ان الولاء النفسى للجماعة من جانب الفرد فى المجتمعات البدائية كان يوفر أسباب التماسك الاجتماعى ويغنى عما نسميه الآن بالحكومة ٠ وفى العصر الحجرى القديم لم تقم الحاجة الى انشاء جهاز للبوليس أو القضاء لتوطيد سلطة الجماعة ٠ ولاشك ان الفرد البدائى حينذاك كان عليه أن يتبع مجموعة العادات والتقاليد السائدة فى قبيلته ولكن علينا أن نفترض انه لم يكن يشعر بان هناك ما يدعوه الى التمرد على هذه العادات أو الخروج عليها ٠ ويمكن القول بان الانسان البدائى فى العصر الحجرى القديم كان خاضعا لحاسته وبواعثه الاجتماعية التى كانت تسيطر على أفعاله بالدرجة الكافية لضمان سلامة التماسك الاجتماعى واستمراره ٠

ولكن هناك فارقا بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث فقد شاهد العصر الحجرى الحديث تطورا له أهميته فقد استحدثت المجتمعات الانسانية سلطة أو أداة للضرب على أيدى الخارجين عليها وارغامهم على الولاء لها والتعاون معها ٠ ويتضح هذا من الآثار التى خلقها لنا هذا العصر فمن الصعب أن نتصور بناء الاهرامات مثلا دون وجود سلطة حاكمة تبسط نفوذها على الناس ٠ ولا شك ان الحرب كانت سببا

رئيسيا في توسيع رقعة الوحدة الاجتماعية فعندما كان النصر يكتب لوحدة اجتماعية على وحدة أخرى غريمتها كانت الوحدة الظافرة تستولى على رقعة جديدة من الارض مما يمكنها من التزايد وكثرة النسل . ومن ناحية أخرى كان الخطر الخارجي الداهم يدفع القبيلة الواحدة الى التحالف مع قبيلة أخرى أو أكثر لما بدأت تراه فى ذلك من نفع أكيد فى ضمان الانتصار والفوز في القتال . وأحيانا كان تهديد الخطر الخارجى لا ينتهى الى زوال بل يستمر فى البقاء لاجل طويل فكان من الطبيعى تحت هذه الظروف أن ينتهى الامر بهذه القبائل المتحالفة الى الاندماج التام . وبزيادة عدد الوحدة الاجتماعية كان من الضرورى ايجاد جهاز للوصول الى قرارات جماعية . ولا شك ان هذا الجهاز رغم بساطته كان الخميرة التى نمت وتطورت حتى أصبحت حكومة بالمعنى المعروف .

وخلاصة القول « كان التماسك الاجتماعي فى المجتمعات الانسانية البدائية يعتمد على الولاء النفسى للافراد من ناحية ، وعلى اقامة أداة حكومية تتولى اخضاع كل من تسول له نفسه التمرد . وحينذاك لم يكن التماسك الاجتماعى رهنا بالشعب لان ولاء الشعب كان مضمونا وأكيدا بل كان هذا التماسك رهنا بتماسك الاغلبية الحاكمة من ارستقراطية وكهنة يرأسها شخص الملك المقدس . لقد كان الملك مطلق السلطان ، وكان الشعب رهن اشارة الملك يتصرف فى مقدراته كيفما يشاء وكان الولاء للنظام القائم مستندا على تغلغل نفوذ الدين والاعتقاد فى قداسة شخص الملك مما حمل الناس على الاعتقاد بان التمرد على النظام القائم يثير سخط الآلهة وغضبها .

وانه لمن أغرب الامور في التاريخ الانسانى أن نرى فى كثير جدا من الاحيان الجانب المهزوم يدين بالولاء للسادة المنتصرين طواعية واختيارا لا عنوة واكراها . ان الشعوب تناضل ضد الامم الطامعة فى اغتصابها . ولعلها تقاوم أشد المقاومة فى بادىء الامر ولكنها تندمج فى الدولة القاهرة بالتدريج اذا قدر لهذه الدولة أن تبقى فى مركز السيادة لآجال طويلة . وهذا ماحدث مع معظم الشعوب التى دانت لحكم الرومان فقد ظل شعب الغال على ولائه للدولة الرومانية رغم الضعف البادى الذى اعتراها فى القرن الخامس والذى لم يكن فى امكانها معه أن ترغم أى جزء من الامبراطورية على الولاء لها .

وفيما مضى كانت جميع الدول الكبرى باستثناء مصر القديمة تعانى من الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار ولا غرو فى ذلك ، فقد كانت

الحكومات المركزية لا تملك من الوسائل مايمكنها من اخضاع الاطراف النائية لسلطانها ،الامر الذى أغرى كثيرا من الحكام المحليين بالاستقلال عن الدولة التى ينتمون اليها ٠ وليس أدل على ذلك من ان امبراطوريات الاسكندر الاكبر ، واتيلا ، وجنكيز خان قد آل مصيرها الى التفكك عند وفاتهم فلم تكن هناك وحدة نفسية تربط أجزاء الدولة بعضها الى بعض سوى الوحدة التى تفرضها القوة الغاشمة ٠ ولكن روما بالمقارنة كانت أحسن حالا فى هذا الشأن لان الحضارة الاغريقية والرومانية كانت شيئا يكن له المثقفون آنذاك التقدير والاجلال للفرق الشاسع الذى يميزه عن بربرية القبائل القاطنة فيما وراء الحدود ٠ وهكذا كان للاساس النفسى فى الولاء الاجتماعى أهمية ، ولكن هذا الولاء النفسى كان ضروريا بين الاقلية الحاكمة لاغير ٠

وفى الماضى كانت صعوبة الانتقال عائقا يحول دون تماسك الدولة المترامية الاطراف واستمر هذا الوضع حتى فى العصور الحديثة ٠ فقد فقدت انجلترا واسبانيا مستعمراتهما فى أمريكا بسبب صعوبة المواصلات٠ ولكن الاساليب العلمية الحديثة (كالبرق والآلات البخارية الخ ٠٠) قد يسرت سبل ربط البقاع النائية ببعض ، كما ان التعليم الاجبارى قد مكن الدولة من غرس نوع من الولاء النفسى المصطنع فى اعداد كبيرة من السكان ٠ وفى الحضارات الغابرة فى مصر وبابل ونينوة كان الكهنة والملوك يتمتعون بقسط وافر من المبادأة وفى حين كان العبيد الذين تم ضمهم عن طريق الغزو محرومين من هذه المبادأة ٠ وساعدت فكرة قداسة الملك وهيبة الكهنة على رسوخ المجتمع واستقراره ٠ وبلغ هذا الاستقرار قمته فى مصر القديمة التى دفعت ثمنا باهظا هو « التحجر » مقابل الحصول على هذا الاستقرار الاجتماعى ٠ وبمضى الوقت اختفت المبادأة من الحياة المصرية وتحجرت الامبراطورية الفرعونية بدرجة لم تستطع معها أن تقاوم الفرس الذين اندحروا بدورهم أمام الاغريق ٠

وأبدع الاغريق فى استكمالهم لنوع معين من الحضارات نقلوه عن الفينقيين يقوم على أساس دولة ــ المدينة ٠ وتمتعت معظم المدن الاغريقية بقدر كبير من المبادأة ، وذلك باستثناء اسبرطا التى كادت المبادرة الفردية أن تنعدم فيها ٠ كانت الحياة الاغريقية مسرحا لكثير من مظاهر الفوضى والاضطراب ، كما كانت تتعرض للثورات المتكررة ٠ ومهما يكن من أمر هذه الثورات فقد كان القائمون بأمرها يكنون لمدينتهم حبا عميقا جارفا ٠ ويرى رسل ان عدم كفاءة الاغريق من الناحية السياسية مسئول عن تحقيقهم لجليل الاعمال الفردية لان العاطفة المشبوبة هى السر القابع وراء

هذه الاعمال · ولكن هذه العاطفة المشبوبة كانت فى نفس الوقت سببا فى عدم تمكن الاغريق من تحقيق الوحدة السياسية فيما بينهم ·

وبعد الاغريق جاءت الامبراطورية الرومانية · وكانت هذه الامبراطورية وهى فى طور التوسع تمنح مواطنيها قدرا كبيرا للغاية من الاستقلال الفردى والمحلى ، انتهى امره بالاختفاء · فقد تركزت السلطة بعد أوغسطوس فى روما التى منيت بالفشل فى محاولاتها المبذولة لتوحيد العالم المتمدين · ويعزو رسل فشلها الى عزلة الحكومة المركزية الرومانية عن سائر البقاع البعيدة منها · ولعل هذا البعد بين روما وبقية اجزاء الامبراطورية هو المسئول عن اخفاق الدولة الرومانية فى ادخال اى قدر من السعادة الغريزية فى نفوس مواطنيها حتى الموسرين منهم · ولهذا ساد الحياة الرومانية تشاؤم عام فى القرون الاخيرة من عمر الامبراطورية التى ضمرت فيها بذور القوة والعنفوان والنشاط · ويقول رسل ان المسيحية وجدت فى جو التشاؤم العام السائد تربة خصبة ساعدت على انتشارها كما ساعدت على تركيز انظار الناس اليائسين من هذا العالم على العالم الآخر ·

وبعد اختفاء الدولة الرومانية طرأ على الغرب تغيير شامل · فقد اختفت التجارة تقريبا ، وبات الناس يعيشون على ما يقومون بانتاجه محليا ·واختفت من الحياة الغربية النزعة التشاؤمية التى سادت الامبراطورية الرومانية فى اخريات عمرها · وبدا النشاط والعنفوان يدبان فى أوصال الغرب · وكان هذا النشاط مقترنا بانتشار الفوضى وعدم احترام القانون وظلت الفوضى متفشية طوال العصور المظلمة والقرون الوسطى الامر الذى جعل الحكماء من الناس يتطلعون الى ضرورة سيادة القانون ·

ومنذ القرن الخامس عشر الى يومنا هذا وسلطان الدولة فى تزايد ، وحرية الفرد فى انكماش · وقد ساعد اختراع البارود على زيادة سلطان الدولة · والعالم الراهن الممتحن فى تقلص الحرية الفردية يميل الى تبجيل الحرية وعبادتها تماما كما كان العقلاء فى القرون المظلمة والوسطى يعزفون عون الفوضى الضاربة اطنابها ، ويميلون الى عبادة القانون والتشوق الى الاستقرار · وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تحل زيادة سلطان الدولة دون تمتع الافراد الذين لا ينتمون الى أحط الطبقات الاجتماعية بقسط وافر من الحرية والمبادأة الفردية · ولكن الرغبة فى تحقيق الحرية تكاد أن تتبخر بين المصلحين فى الوقت الحاضر ، فقد حلت محلها الرغبة

في تحقيق المساواة وترجع الرغبة في تحقيق المساواة الى أن العصـور الحديثة قد شاهدت ثراء رجالات الصناعة الطائل دون استناد من جانبهم الى حقوق تقليدية تبرر تفوقهم على غيرهم من فئات المجتمع الاخـرى ٠ أضف الى ذلك أن اعتبارات الحرية الشاملة والمخاوف منها قد جعلت معظم الناس يأبهون باقامة نظام اجتمـاعى أشد تماسـكا أكثر من اهتمـامهم بتحقيق الحرية كمثل أعلى ٠

ويخشى رسل أن يتسبب انكماش الحرية والمبادأة فى العالم الحديث الى انتشار التشاؤم والعزوف عن الحياة ، تلك الروح اليائسة القاتلة لأسباب القوة والنشاط التى سادت الامبراطورية الرومانية في أخريات أيامها ٠

ويخشى رسل كذلك أن يحيى انكماش الحرية والمبادأة فى العـالم الراهن نظام عبادة الدولة الذى عرفته مصر الفرعونية ٠ « ويسود جزء كبير من العالم شيء أشبه مايكون بالعودة الى نظام الملكية المقدسة تهيمن عليه طبقة جديدة من الكهنة كما كان الحال فى مصر القديمة ٠ ورغم أن هذا الاتجاه لم تتعمق أغواره في الغرب كما تعمقت في الشرق فانه قد وصل الى مدى يدهش القرنين الثامن والتاسع عشر فى كل من انجلترا وأمريكا ٠ فالدول والتنظيمات القوية تقضى على المبادأة الفردية٠ وهناك خطر عظيم داهم فى أن ينتج هذا الوضع ، كما كان الحال فى روما القديمة نوعا من الاعراض عن الحياة وفقدان اللذة فيها مقترنا بقدرة تدمر ينابيع الحياة الفتية » ٠

والجهاز النفسى الغريزى الذى يبعث على الولاء البدائى لقبيلة صغيرة يعـرف أفرادها بعضهم البعض ، يختلف تمـاما عن نوع الولاء للدولة الكبيرة فى العالم الحـديث ٠ ومن المحتمل أن تختفى البقية البـاقية من الولاء البدائى الغريزى تحت تأثير التنظيم الجديد الذى تدعو اليه الاخطار التى تجابه العالم الآن ٠ فولاء اسكتلندا لبريطانيا مثلا يحمل فى طياته شيئا من الولاء الغريزى للحدود الاقليمية الواضحة ، فى حين أن تكوين اتحاد غربى يتطلب احساسا بالحضارة الغـربية كشيء مترابط يتخطى الحدود القومية ٠ وليس هناك دافع آخر يدعو الغربيين فى الوقت الراهن الى التماسك الاجتماعى غير الهجوم الذى يتوقعون أن يشنه عليهم أعداؤهم الخارجيون ٠ ولكن هذا الدافع الى التماسك الاجتماعى عن طريق الخوف سلبى ويبطل عمله فى أوقات الامان فهو لا يظهر الا فى وقت الخطر ٠

ولاية حكومة وظيفتان احداهما سلبية والأخرى ايجابية تقوم بادائهما منذ قديم الزمان وتتلخص الوظيفة السلبية للحكومة فى حماية الارواح والممتلكات وتطبيق قانون العقوبات · أما وظيفتها الايجابية فكانت فى الماضى تتلخص أساسا فى شن الحرب والاستفادة من أسلوب العدو · ولكن الدول الحديثة تقوم باداء وظائف ايجابية أخرى مثل التعليم وغرس الولاء لها ، وتفريغ بعض المعتقدات التى ترى انها مرغوب فيها · وسلطة الدولة فى تزايد مستمر · ففى أمريكا حيث تعمل الدولة جاهدة على تحديد أوجه نشاطها الاقتصادى الى أبعد حد ممكن ، نجد أن سيطرة الحكومة تزداد يوما بعد يوم · ومن الناحية النفسية فان الفرق بين المشروعات التى تتبناها الدولة وتلك التى تتبناها التنظيمات الكبيرة الخاصة لايعدو أن يكون فرقا ضئيلا · ففى كلتا الحالتين تختفى المبادأة الفردية وتصبح وقفا على قلة من موظفى الدولة فى حالة مشروعات الدولة، وقلة من رجالات الصناعة فى حالة التنظيمات الخاصة · كما ان هناك فى كلتا الحالتين ميلا من جانب الادارة نحو اعتبار العاملين بالصناعة مجرد وسائل للانتاج لا أكثر ·

ويعرض رسل للتغيرات التى طرأت على التماسك الاجتماعى فى الازمنة التاريخية فيقول ان التاريخ يتحرك حركتين : التطور الذى يعقبه الاضمحلال · ولكنه يتحفظ فى قوله ان هذا التشخيص التاريخى لاحداث الماضى لا يعنى بالضرورة انه لامناص من انطباقه على المستقبل وتتلخص الحركة التطورية للتاريخ فى الانتقال الدورى من التنظيم المفكك البدائى الى تنظيم حكومى يزداد فى دقة نظامه بالتدريج ، ويشمل مساحة أوسع من التنظيم السابق له ، كما انه ينظم حياة عدد متزايد من الافراد ، وفى هذه المرحلة التطورية تصل المبادأة الفردية الى قمتها ، وقد تستمر فى ابداعها وخلقها لجليل الاعمال الفردية حتى بعد أن تصيب الحكومة النامية زيادة عظيمة فى الثروة والاستقرار · الامر الذى يدفع عجلة التقدم الحضارى الى الامام · ولكن هذه الحركة التطورية تنتهى فى آخر الامر بالاسن والاضمحلال وتحجر عنصر المبادأة وقد عرفت الحضارات الغابرة هذا الانتقال من التطور الى التحجر كما حدث فى الصين والهند ، وحضارة ما بين النهرين (العراق) ومصر القديمة والعالم الاغريقى ــ الرومانى · وفى العادة تتهافت الحضارة القائمة بفعل الغزو الخارجى · وقد يحدث أن يكون الغزاة أقل تحضرا من الشعوب المندحرة · ويساعد هذا على خلق جو يسوده الفوضى والاضطراب وهذه الفوضى مفيدة وصحية لأنها تجرى عملية نقل دم فتى شاب الى الحضارات المضمحلة المتآكلة · بهذا

تتجدد الحياة ، وتبدأ دورة تطورية جديدة تنتهى بالاضمحلال · وهكذا دواليك ·

ويلفت رسل نظرنا الى حركة مصاحبة للتطور الذى يعقبه الاضمحلال ففى كل مرة تبلغ فيها الدورة التطورية ذروتها نجد أن مساحة الرقعة الخاضعة للامبراطورية النامية المتطورة أكبر من سابقتها ، كما ان سيطرة الحكومة المركزية على الافراد تصبح أكثر حدة من أى وقت مضى · فمساحة الامبراطورية الرومانية تفوق امبراطورية بابل ومصر، كما ان الامبراطوريات الحديثة فى الوقت الحاضر تفوق الامبراطوريات الرومانية فى اتساعها ، ومن ناحية زيادة سلطان الدولة على الافراد فان التاريخ الانسانى كله لم يشهد حكومة تسيطر على مصائر أفرادها كما تفعل روسيا السوفيتية ·

هناك خطر أكيد بالغ الخطورة يتهدد حياة الافراد وحرياتهم ·· فالتكنيك العملى الحديث قد جعل فى الامكان تركيز السلطة تركيزا تاما فى يد الدولة · ومن الجائز أن تختفى الحرية الفردية من بعض البلاد التى تتمتع بقسط منها فى الوقت الحاضر بتأثير الحرب أو الخوف من الحرب أو كنتيجة لانتصارات تحققها البلاد الشمولية (التوتاليرية) · فاذا حدث هذا ستعود كافة الشرور القديمة لتسمم ينابيع الحياة ، ستعود العبودية ، وسيعود التعصب وعدم التسامح وسيكتب الشقاء على الغالبية العظمى من الجنس البشرى · هذا الخطر الدانى يجعل من الواجب علينا أن نتنبه الى أهمية الحرية الفردية القصوى فى وقتنا الراهن أكثر من اهتمامنا بها فى أى وقت مضى ·

ويحذرنا رسل من زيف قد يغرينا بالسقوط فى وهدته · هذا الزيف يتعلق بالجانب الوراثى من الطبيعة الانسانية · صحيح انه من المحتمل ان الطبيعة الانسانية لم تتغير من الناحية الوراثية الا قليلا خلال مئات الآلاف من الاعوام · ولكن هذا الثبات الوراثى لا يعنى أن يظل الحاضر والمستقبل حبيس الماضى · فالجانب الوراثى من الطبيعة البشرية انما يلعب دورا ضئيلا فى الكيان العقلى للانسان العصرى ·

٣ ـ دورة الفرد فى المجتمع

يتميز بعض الافراد عن بقية المجتمع الذى ينتمون اليه · فمنهم من ينفرد ببواعث اجرامية هدامة ومنهم من ينفرد ببواعث خلاقة بناءة · هذه البواعث الفردية لاتجد لها سبيلا للتعبير عن نفسها فى المجتمع البدائى · ففى مجتمع بدائى يعيش على الحرب والصيد لا يسمح بازدهار البذور

التلقائية الفردية الا اذا كان السلوك التلقائى للفرد يتمشى مع الاطار العام الذى تحركه البواعث القلبية المشتركة وتزداد الفروق بين الافراد وضوحا كلما انخرط المجتمع فى سلم التحضر ٠

ويرى رسل أن المجتمع فى تقدمه بحاجة الى بعض الافراد الذين يخرجون عن الانماط السلوكية العامة ٠ ويعتمد كل تقدم تقريبا سواء كان فنيا أو اخلاقيا او فكريا على مثل هؤلاء الافراد الذين يصبحون عاملا حاسما فى التقدم من البربرية الى الحضارة ٠ ولكن هناك فى المجتمعات الحديثة الشديدة التنظيم اتجاها دائما لتعطيل نمو النشاط الفردى ٠ ويشكل هذا الوضع اشكالا عسيرا ٠ فالمبادأة الفردية المثمرة اجتماعيا قد تتحول الى قوة اجرامية هدامة اذا لم تخضع لنوع من السلطة واذا ترك لها الحبل على الغارب ٠ والمشكلة التى تجابه المجتمع هى مشكلة التوصل الى توازن يحميه ، فالتفريط فى الحرية يؤدى الى الاسن والافراط فيها يؤدى الى الفوضى ٠

والافراد يعبرون عن تميزهم بطرق كثيرة مختلفة ويبدو ان الانسانية قد عرفت هذا التمييز بين الطاقات الفردية منذ مرحلة مبكرة للغاية ٠ فالصور الموجودة فى كهوف جبال البرينيز التى قام انسان العصر الحجرى القديم برسمها تنم بجلاء على درجة عالية من الكفاءة الفنية ٠ ويرجح رسل ان هذا المجتمع البدائى قد قسم العمل فيما بينه بحيث أعفى الفنان الموهوب فى الرسم بعض الوقت من مهمة الاشتراك مع سائر القبيلة فى عملية الصيد والقنص ، وسمح له بالبقاء فى الكهف حتى يتفرغ لرسم الصور فى حين ينشغل الاخرون باقتناص الحيوان ٠

ويبحث رسل علاقة الفرد المبدع بمجتمعه فى مجالات الفن والدين والاخلاق ، ثم فى العلم ويعقد مقارنة بين دور الفنان فى الاوقات الحديثة ودوره فيما مضى فيقول ان الفنان لم تعد له الاهمية الاجتماعية التى كانت له فى الازمنة الماضية ٠ ففى حين كان دور الفنان فى الماضى حيويا ، نرى ان هناك ميلا فى وقتنا هذا لاحتقار « شاعر البلاط » لاننا نتوقع من الشاعر ان يحيا وحيدا وحشيا يبشر باشياء يكره سماعها التجار ورجال الصناعة الذين يقصرون اهتمامهم على الحياة الدنيا ٠ ويقول رسل ان الامر على كل خلاف هذا اذا استقصيناه من الناحية التاريخية ٠ فهو مر وفرجيل وشكسبير كانوا شعراء بلاط قبل كل شىء يتغنون بامجاد شعوبهم ويمتدحون نبل تقاليدها وينطبق هذا على شكسبير نفسه انطباقا جزئيا فيما انتجه من مسرحيات تاريخية على أقل تقدير ٠ ولكن الفنان فى العصر

الحديث قد فقد ارتباطاته الاجتماعية « فنحن لا نزال نكرم الفنان ولكننا نقوم بعزله · ونحن نعتبر الفن شيئا منفصلا ، وليس كجزء لايتجزأ من حياة المجتمع والمعمارى وحده هو الذى يحتفظ بشىء من مركز الفنان فى الماضى نظرا لان فنه يخدم اغراضا نفعية » ·

واضمحلال الفنون فى وقتنا الراهن لا يرجع لان وظيفة الفنان الاجتماعية لم تعد على درجة من الاهمية التى كان عليها فى الماضى فحسب، ولكنها ترجع أيضا الى ان الاستمتاع بالبهجة التلقائية لم يعد شيئا ذا أهمية » ·

ويعزو رسل جفاف ينابيع البهجة التلقائية فى الانسان الى ان فكره مشغول دائما بالمستقبل بشكل لا يسمح له بالاسغراق التام فى اللحظة الحاضرة والاستمتاع بها ·

ثم يتناول رسل بالحديث المجددين فى مجالات الدين والاخلاق فيقول : « ان التقدم الاخلاقى يتكون اساسا من الوقوف فى وجه العادات التى تتسم بالقسوة والغلظة » ، ومن المحاولات المبذولة لتوسيع رقعة الشفقة والعطف الانسانى · فقد اندثرت عادة تقديم الضحايا البشرية للألهة عند الاغريق عندما بدأت اليونان تدخل مرحلة التاريخ دخولا كاملا · وبشر الرواقيون بالا يقتصر العطف على الاغريق الاحرار فحسب بل يتعداهم الى البرابرة والعبيد ، بل الى الانسانية باسرها فى واقع الامر · ونشرت البوذية والمسيحية مذهبا مماثلا لهذا فى جميع ارجاء العالم · واكتسب الدين صفة أكثر شمولا وعالمية كما حاول ان يتجاوز الحدود الضيقة التى ارست الاخلاق البدائية أسسها بعد أن كان فى الاصل جزءا من جهاز التماسك الاجتماعى فى القبيلة يدفع الى الصراع خارجها تماما كما يدفع الى التعاون داخلها · وليس هناك مايدعو للعجب اذا راينا اللعنة تصب على المجددين فى الدين وهم احياء لانهم كانوا يسعون الى سلب الانسان الفرحة بالقتال ومباهج الانتقام الوحشية · ومن ثم بدأت الوحشية البدائية التى اتشحت بثياب الفضيلة تعتبر خطيئة ، ودخلت الازدواجية العميقة بين الاخلاق ، وحياة البواعث الغريزية او بتعبير ادق بين الاخلاق التى بشر بها اناس تزخر نفوسهم بالبواعث الانسانية ، وبين الاخلاق التقليدية التى راقت لمن لا تتجاوز شفقتهم حدود قبيلتهم » ·

وينبهنا رسل الى خطورة سيطرة الدولة على مصائر افرادها فى العالم الحديث وعلى الاخص الدولة التوتاليرية (الشمولية) · ففى الماضى

كان المصلح الدينى أو الاخلاقى يستطيع ان يصبر على كثير من العنف والاضطهاد بل الاستشهاد نفسه فى سبيل وصول صوته الى مسامع الناس قبل أن يلقى حتفه . هذا ما فعلاه سقراط والمسيح . ولكن الدولة الشمولية الحديثة تخمد انفاس اية محاولة للاصلاح الخلقي وهى فى المهد . ولن تجدى معها أية تضحية بالنفس أو أية شجاعة ادبية . ويعطينا هذا فكرة عن مقدار الخطر الجسيم الذى يبدد الامل فى أى نوع من التقدم الاخلاقى فى ظل الدولة التوتاليرية . ولهذا كله يكاد يتعذر على فرد مهما بلغت قدراته غير العادية ان يصل فى اثره فى مجال الفن او الاصلاح الدينى أو الاخلاقى ما وصل اليه المصلحون السابقون فى العصور الماضية.

والطرق المفتوحة أمام الفرد صاحب المقدرات الخارقة قاصرة فى وقتنا هذا على مجالات السياسة والصناعة والعلم . فيمكن للانسان الطامح ان يصبح زعيما سياسيا كلينين « أو رجل صناعة كبير كروكفلر أو عالما من علماء الذرة الذين يغيرون وجه العلم . أما الذين لا يتمتعون بأية من هذه القدرات الخارقة فليس أمامهم سبيل غير الاجرام » .

والاعتراف بأهمية العلماء فى المجتمع وبكمانتهم المرموقة فيه ظاهرة حديثه . فقد تعرض العلماء فى الماضى لضروب الاضطهاد . فنفى منهم من نفى ، واحرق منهم من أحرق ، وأودع جانب منهم غياهب السجون . أما الجانب الاوفر حظا فقد اكتفت السلطات باحراق كتبه .

ولكن الدولة تبينت بالتدريج سخف مناصبة العلماء العداء . فقد اكتشفت أن بايديهم مفاتيح مستودعات هائلة من القوة يمكنها أن تفيد منها . فالثوار الفرنسيون الذين اعدموا لافوزييه على المقصلة خطأ ، علقوا الأهمية على زملائه العلماء الذين نجوا من الموت ، لاحبا فى سواد عيونهم بل لقدرتهم على انتاج المتفجرات .

ولا يرى رسل اية غرابة فى معارضة السلطات للعلماء فيما مضى . فقد نادى هؤلاء العلماء بآراء تغاير ما استقر فى أعماق أذهان الناس نادى انكساجوراس بأن الشمس حجر فى احمرار الجمر ، وان القمر يتكون من التراب . وبسبب بعده عن الورع والتقوى كان مصيره النفى من أثينا . أو لم يكن معروفا لدى كل انسان ان الشمس اله ، وانالقمر الهه ؟ .

ورغم ما للعلماء من سلطان على قوى الطبيعة ، فانهم يأتمرون باوامر الساسة . ووضع العلماء بالنسبة للساسة هو نفس وضع « الجان »

بالنسبة للساحر فى قصص الف ليلة وليلة « فالجان » يأتى بخوارق الأعمال لا لأن هناك حافزا يدفعه الى هذا ، ولكن لأنه ينفذ أوامر سيده الساحر .

ويرى رسل أن العلماء فى التاريخ نوعان . نوع كان للانسانية خير وبركة ، ونوع آخر ألحق بها الضرر . فالمصلحون الدينيون والاخلاقيون بذلوا قصارى جهدهم لتوسيع رقعة التعاطف الانسانى والحد من قسوة البشر . ويواصل العلماء جهدهم للسيطرة على قوى الطبيعة والاستفادة منها ان للخير أو للشر . وقد أضفى البعض على العالم ، مثل الشعراء والموسيقيين والرسامين العظام ، ألوانا من الجمال والسناء من شأنها أن تفعل الكثير فى لحظات اليأس من أجل أن يصبح المصير البشرى شيئا يمكن احتماله » .

ولكن هناك فى الجانب الآخر من التاريخ من ألحقوا الضرر بالحياة وبالانسان ، ومن أمثال جنكيزخان ، وروبسبير بل لينين نفسه ويرى رسل فى جميع هذه الشخصيات الضارة والنافعة على حد سواء خصائص لا يريد لها الاختفاء من العالم ، وان كان يريد لها أن تتجه شطر الخير وخدمة الانسان . يرى فيهم صفات النشاط والمبادأة الشخصية والقدرة على الرؤيا وعلى الخيال . ويرى رسل أن المزاج النفسى لأعظم سياسى لايختلف فى جوهره عن المزاج النفسى لأعظم مجرم ، فلو ان ساحرا قد استبدل كابتن كيد بالاسكندر الاكبر عند الولادة لاستطاع أيهما أن يحقق ماصنعه الآخر .

ويعبر رسل عن أسفه الشديد لاختفاء الحرية الفردية من العالم الحديث الذى لا يستطيع فيه عظيم أن يصل الى ما وصل اليه أقرانه فى الماضى بدون عون خارجى . ان ما حققه سبينوزا فى عزلته الفلسفية لايمكن أن يتكرر فى العصر الحديث ، وهذا لا ينطبق على الدين والفن وحدهما بل على العلم ذاته . فالعلم الحاضر لا يستطيع أن يباشر أبحاثه العلمية من غير مساندة الدولة أو تنظيم كبير أو رجل طائل الثراء كما هو الحال فى أمريكا . فهو بحاجة الى معدات علمية ومعامل باهظة التكاليف لا طاقة لباحث بها . ويرى رسل أن فقدان العلماء لاستقلالهم القديم أمر يدعو للأسف ، لأن العلماء قد تحولوا بسبب هذه التبعية الى مجرد خدم يضعون جهودهم تحت تصرف الهيئات والمنظمات التى تنفق عليهم . وهذا التغيير مؤسف للغاية ، لأن الأشياء التى يستطيع رجل عظيم أن يقوم بها فى

عزلته وانفراده تميل الى أن تكون أكثر فائدة من الأشياء التى لا يستطيع أن يقوم بها الا بمساعدة القوى الحاكمة » ٠

ولا يقتصر ضياع هذا الاستقلال على العظماء وحدهم ، بل يمتد الى من هم دونهم عظمة وامتيازا ٠ ففى الماضى كان هناك شعراء كبار يصاحبهم عدد كبير من الشعراء الصغار ٠ والذى ينطبق على الشعر ينطبق على الرسم والموسيقى أيضا ٠ وفى الماضى كانت الفرص تتاح لكل أصحاب المواهب ، تتاح للذين يبلغون القمة الفنية والذين لا يبلغونها على حد سواء ولا يخفى على أحد أثر هذا فى تشجيع عنصر المبادأة الشخصية لدى عدد كبير من أصحاب المواهب والاستعدادات الفنية ٠ ولا غرو فى هذا فقد كانت هذه الفنون جميعا (الشعر ، والرسم ، الموسيقى) تلعب دورا حيويا فى حياة الانسان المعاصر ٠

والنقص الذى يعانى منه عصرنا فى مثل هذه المجالات نتيجة حتمية للنظام المركزى الذى يقسم به المجتمع ، ونتيجة التنظيم الشديد الى درجة تتضاءل معها المبادأة الفردية حتى تصل الى الحد الأدنى ٠ وحيثما ازدهر الفن فى الماضى كان ازدهاره بوجه عام بين المجتمعات الصغيرة التى كان لها منافسون يجاورونهم مثل دول ـ المدينة الاغريقية ، والمقاطعات الصغيرة فى عهد النهضة الايطالية ، والبلاطات الصغيرة للأمراء الألمان فى القرن الثامن عشر ٠ فقد كان يتعين على كل من هؤلاء الحكام أن يحتفظ بموسيقى فى بلاطه وشاءت الصدفة فى وقت من الأوقات أن يكون جوهان سبستيان باخ هو هذا الموسيقار ، وبفرض أنه لم يكن سبستيان ، فقد كان حرا فى انتاج أحسن ما تصل اليه قدراته ٠ وهناك شىء من التنافس المحلى له أهميته وضرورته فى مثل هذه المسائل ٠ وقد لعب هذا الشىء دوره حتى فى تشييد الكاتيدرائيات لأن كل أسقف أراد أن يكون له كاتدرائية أكثر روعة وابداعا من كاتدرائية الأسقف المجاور ٠ انه لشىء طيب أن تتمكن المدن من أن يكون لها فخر فنى يقودها الى التنافس فيما بينها ، وأن يكون لكل منها مدرستها الخاصة بها فى الموسيقى والرسم تؤازرها فى احتقار قوى للمدرسة الفنية السائدة فى المدينة المجاورة ٠ ولكن مثل هذه الوطنيات المحلية لا تزدهر فى يسر فى عالم الامبراطوريات والانتقال السهل المنطلق ٠ والرجل الذى ينتمى الى مدينة مانشستر لا يميل الى الشعور نحو رجل آخر من مدينة شفيلد مثلما كان الاثينى يشعر نحو الكورنثى ، أو مثلما يشعر رجل من فلورنسا نحو رجل من البندقية ٠ ولكننى أرى على الرغم من الصعوبات ضرورة معالجة مشكلة

اعطاء المناطق المحلية ما تستحقه من أهمية اذا أردنا ألا تصير الحياة الانسانية مملة وسقيمة بصورة متزايدة » ٠

ان بواعث الرجل البدائى التلقائية كانت لا تتعارض مع مجتمعه بعكس بواعث الانسان الحديث التى يضطره المجتمع الى كبتها ٠ ان كل شيء الآن يسوده التنظيم ، ولا شيء تحركه التلقائية ٠ حتى البهجة أصبحت مجالا لتدخل الدولة وتنظيمها ٠ فقد نظم النازيون الفرح مثلا فى شعارهم « القوة عن طريق الفرح » ، ويعلق رسل ساخرا على تدخل الدولة من أجل تنظيم فرح الأفراد بقوله « ولكن من المحتمل ألا يكون الفرح الذى تقرره الحكومة شيئا مفرحا للغاية » ، ورسل لا يريد القضاء على التنظيمات الراهنة التى تكون العمود الفقرى للحضارة الحديثة ولكن يريد منها ألا تتحجر وأن تمنح الأفراد أكبر قسط من المبادأة الفردية والاستقلال المحلى حتى تعود اللذة التلقائية فى الحياة الى كوكبنا الحزين الشقى ٠

٤ ـ الصراع بين التكتيك العلمى والطبيعة البشرية

يقول رسل ان الانسان يختلف عن بقية الحيوانات فى أمور كثيرة ، منها أن الانسان يمارس أنواعا من النشاط غير السائد فى حد ذاته كوسيلة لتحقيق رغبات يتشوق اليها ٠ وتقوم الحيوانات بممارسة أوجه نشاط مماثلة فالطيور تبنى عشها ٠ ولكن هناك فارقا بين بواعث الانسان والحيوان ٠ ففى حين أن الحيوان مدفوع الى هذا بحكم الغريزة المحضة نجد أن الانسان يستخدم ارادته وحصافته ، وبعد نظره فى ضبط نوازعه وتقييدها ولكن هناك حدا لضبط النوازع الغريزية وتقييدها لا يستطيع الانسان أن يتجاوزه ٠ فان تجاوزه كان هذا على حساب صحته النفسية ٠ والانخراط فى الحياة المتمدنة يتطلب قدرا لا محيص عنه من هذه القيود والضوابط ولكن معظم القيود التى يخضع الانسان المتمدن بواعثه الغريزية لها ليست ضرورية أو حتمية اذ يمكنه التخلص منها عن طريق اقامة نوع مختلف من التنظيم الاجتماعى ٠

والانسان البدائى لم يكن نهبا مقسما لهذا الصراع بين الوسائل والبواعث الغريزية ٠ فقد كان الصيد والقنص والقتال والتناسل أشياء ضرورية لبقائه البيولوجى وللتقدم المتطور ٠ ولكن هذا لم يكن السبب الذى حدا به الى ممارسة أنواع النشاط هذه ، فقد مارسها لأنها تدخل السرور واللذة على نفسه ٠

وليس معنى هذا أن الانســـان البدائى لم يكن يمارس أى قدر من النشاط المفيد وان كان غير بهيج فى حد ذاته • ولكن الرحلة التى كان عليه أن يقطعها لبلوغ مأربه لم تكن بطبيعة الحال أطول مما ينبغى • « وعندما لا تكون الرحلة من الوسائل الى الغاية أطول مما ينبغى نجد أن الوسيلة نفسها تكون مصدرا للمتعة اذا كان الانســـان يتشوق لتحقيق غايته فى شغف » • ويستشهد رســـل على ذلك بالطفل الـــذى يبذل جهدا مضنيا حتى يصل لاهثا مقطوع الانفاس الى أعلى التل ، حاملا معه لعبته للانزلاق (الزحليقة) حتى يستطيع أن ينعم بلحظات من السعادة الغامرة وهو ينحدر منزلقا الى أســـفل التل • والطفل يجـابه النصب والتعب لأن عمله الذى ينشده يعطيه لذة مباشرة ، فلو أننا حاولنا اغراءه ليلعب لعبته بمعاش يحصل عليه عندما يبلغ سن السبعين لذوت حماسته على الفور » •

ويمكن للبواعث الخلاقة فى الانسان أن تستمر لفترة أطول اذا كان الهدف الذى يرنو اليه حبيبـا الى نفسه • فالانســـان على استعداد لأن يتعرض للفقر والاخطار من أجل الوصـــول الى قمة ايفرست أو القطب الجنوبى أو اكتشـــاف علمى • وكان ادخال نظام العبـودية فى التاريخ الانسانى سببا فى الفصل بين الغرض الذى يسعى اليه العمل ، والأغراض التى يبتغيها العمال • فبناء الاهرام يهدف الى مجـــد الفراعنة دون أن يشترك العمال الذين يقومون ببنائه فى هذا المجد • فحافزهم الى العمل هو الخوف من أن تلهب ظهورهم سياط رئيس العمال •

وقد زاد الانكماش فى نظام رقيق الارض ونمو الصناعات اليدوية فى الأزمنة الحديثة قبل الثـورة الصناعية ، من عدد الصناع المستقلين ، والذين أمكنهم نتيجة لاستقلالهم أن يستمتعوا بشىء من الفخر فيما يقومون بصنعه • وأدت هذه الحال الى نشـــأة ذلك النوع من الديمقراطية التى يدافع عنها جفرسون والثورة الفرنسية ، وهى ديمقراطية تفترض وجود عدد هائل من المنتجين الذين يتمتعون بقدر متفاوت من الاستقلال ، بعكس التنظيمات الاقتصادية الهائلة التى خلقها التكنيك العلمى الحديث •

ويضرب رسل بالصـــناعة الحديثة مثلا واضحا على البون الشاسع الذى يفصـــل بين غرض العمل واغراض العمال • فالعامل لا يعنيه من الصناعة غير زيادة الاجور وتخفيض ساعات العمل ، فى حين يعنى اصحاب المصنع وادارته بالانتاج فقط • وهو شىء لا يثير اهتمام العامل فى قليل او

كثير • ويرى رسل ان التباين بين غرض العمل واغراض العمال لا يمكن فصله الى حد كبير من طبيعة الانتــاج الصناعى الآلى المقترن بضــخامة المؤسسات الصناعية •

ويرجع افتقار العامل لعنصر الفخار فيما يقوم بانتاجه الى أسباب اولها من الناحية الزمنيــة هو اختراع العملة • فقد كانت نتيجة اختراع العملة ان فقدت السلع المنتجة قيمتها الذاتية واصــبحت تقدر بسعرها • فى حين أن الاشياء التى يصنعها الانسان بغض النظر عن قيمتها السعرية هى التى تدخل البهجة الى فؤاده فى واقع الامر • وهناك امثلة عديدة على هذا • فحدائق الاكواخ فى الريف الانجليزى التى تتطلب الكثير من الجهد لتنظيمها ورعايتها ليست لها قيمة عدا قيمتها الجمـــالية • وهذا نفسه ينطبق على معابد الاكروبول وكاتدرائيات القرون الوسطى •

والسبب الثانى (وهو اللاحق زمنيا) الذى يفسر فتور زهو الصانع بما يصنع هو الانتاج الآلى الضخم • ففى ظل الانتاج الآلى الهائل تذوى نظرة المنتج لانتاجه من ناحية جودة الصــناعة والفن وتحل محلها الرغبة الصريحة العارمة فى الحصول على أكبر قدر من الارباح •

ويولد التصنيع العلمى الحديث عاملين آخرين يساعدان على فقدان اهتمام العامل بما ينتــج : اولهما بعد الربح عن العمــل ، وثانيهما عزلة الادارة عن العمــال • فاذا نظرنا الى الاعتبــار الاول وهو بعد الربــج عن العمل ، وجدنا على سبيل المثال ان الحكومة تحث العمال على مضاعفة الجهد لزيادة انتاج سـلع التصـــدير ، حتى يتسنى شراء مايلزم ولكن العامل لا يستجيب فى العادة لمثل هذه الدعوة التى توجهها الحكومة اليه ، لانه لا يشــعر بفائدة جهده وثمرته شـــــعورا مباشرا • فالزيادة فى ارباح الصادرات لا تعود عليه بفائدة مباشرة واضحة ولكنها تعود على امته بفائدة اجمالية موزعة وغير واضحة •

أما اذا نظرنا الى الاعتبار الثانى وهو عزلة الادارة عن المصنع فهناك صراع لا شك فيه فى اى مجتمع مهما بلغ من التنظيم بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة • ومن الدلائل على هذا الصراع المحتدم بين العمال ورأس المال • ويمتد هذا الصراع الى العلاقة بين اى قطاع فى الصناعة وبين بقية المجتمع • وبل ان الصراع بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة ينطبق على علاقة موظفى الدولة بالجمهــور ، من أكبر وزير لأصغر موظف فى أحد

المكاتب المغمورة . فالوزير والموظف المغمور يشتركان فى الرغبة فى الحصول على اكبر قدر من السلطة ، وفى كراهية العمل .

ويرى رسل فى نظام المنافسة حافزا قويا على التقدم الاجتماعى من ناحية ، وعلى ان يكون للحياة طعم من ناحية اخرى . ولكنه ينبذ المنافسة الاقتصادية القائمة فى ظل الرأسمالية . ورغم انه لا يمانع فى ابقاء الحافز الاقتصادى بصوره الملطفة للغاية فى النظام الاشتراكى الذى يحبذه فانه يريد من المنافسة ان تكون فى خدمة المجتمع بقدر الامكان ، وبعدها عن التناحر المالى حتى لا يفقد الغرض الاساسى من الابقاء عليها . وهناك اشكال مختلفة من التنافس غير الاقتصادى تستأثر بحبه . كالتنافس فى الخلق الفنى والاكتشاف العلمى . لقد هاجم الاشتراكيون فى مجموعهم — كما يقول رسل — مبدأ التنافس باعتباره أحد الشرور المصاحبة للنظام الرأسمالى . ولكن الحكومة السوفيتية بعد نبذه عادت الى العمل به، وعلقت عليه كبير الاهمية فى التنظيمات الصناعية . وبمقتضى مبدأ التنافس يكافأ المجد ويعاقب المقصر . وفى هذا احياء لنظام العمل بالقطعة الذى سعت نقابات العمال جاهدة وفى عزم على الوقوف فى وجهه حتى قيض لها ان تتخلص منه . ويدرك رسل الاخطار الجسيمة التى يتضمنها العمل بمبدأ التنافس . ولكنه يرى ضرورة الاحتفاظ به كحافز جوهرى له قوته وسلطانه ، بحيث لا ينطوى على الاضرار والقسوة المميزة للنظام الرأسمالى .

يجب على الحكومات أن تشجع المنافسة البناءة ، بدلا من مخاطبة احساس الناس بواجبهم .فالتنافس البناء يحل مشكلة الرغبة فى الحروب . فالناس يدفعهم الامل او يحركهم الخوف . ولكن اذا اردنا من هذا الامل او ذاك الخوف ان يصبحا ذوى تأثير وفاعلية ، دون ان يفضيا الى التهالك والاعياء ، فيجب أن يكونا ماثلين أمامهم يشعرون بهما شعورا مباشرا » .

ان الدول تمر بمحن ، كالمحنة الاقتصادية التى تجتازها انجلترا ، مما يجعل من الضرورى الاعتماد على احساس الناس بواجبهم ، ولكن يجب على الحكومات ألا تفرط فى مثل هذا الاعتماد . لأن مخاطبة احساس الانسان بواجبه — رغم ضرورتها — قد تجدى لاجل قصير تصير بعده مجرد الفاظ رنانة جوفاء خالية من كل معنى يستقبلها الناس بعدم اكتراث وبتشكك ، الامر الذى قد يدفع بعضهم الى تبنى نظريات خاطئة تكون أشد خطرا من مصدر الداء نفسه ، ظنا منهم أنها تشير الى أقرب طريق لاصلاح مواطن الضعف أو الفساد فى النظام الاجتماعى القائم .

وقد تعتمد الحكومات على وسائل الدعاية والاعلام التى تسخرها الى تحويل أنظار الرأى العام عن محنته بأن تبلور سخطه على عدو وهمى ، تنسجه من خيالها • فيسرع النـاس الى تصديقها ، لأن الانسان الممتحن المنكوب الساخط يحلو له أن يجد متنفسا لعواطله المحبطة المكظومة ، كما يحلو له فى أزمتــه أن يصب جام غضبه على انســان آخر أو أى شىء يتوهم أنه السبب فى تعاسته • ويرى رسل ان هذا الحل للمشاكل مريض وهدام لانه يفضى فى نهاية الامر الى الحرب والتطاحن وبث روح الكراهية والحقد فى النفوس •

ويريد رسل للأفراد أن يتحـلوا بفضيلة احترام الذات ، لا بمعنى الزهو بل بالمعنى الطيب لهذه الـكلمة ، هذه الفضيلة التى لا تزال حتى الآن وقفا على حفنة قليـلة من الناس فاحترام الفرد لذاته يسـاعده على الصمود فى وجه المـكاره والمحن ، كان يتألب الرأى العام كله عليه بغية أن يسحقه ويمحقه عندما يحاول أن يناقشه فى بعض أفكاره أو تحيزاته الراسخة • والانسان الذى يحترم ذاته لا يتهـالك أو يخور فى مثل هذه الاحوال•• والذين يعتقدون أن صوت الشعب هوصوت الله قد يخلصون من هذا الى اعتبار أى رأى غير شائع أو أى ذوق غير عادى فى مرتبة الكفر تقريبا ، ناظرين اليه كتمرد اثيم ضد سلطة القطيع الانسانى الشرعية • وليس هناك سبيل الى تجنب هذا غير تقدير الحرية بدرجة تقديرنا الكبير للديمقراطية الى جانب « الادراك بأن المجتمع الذى يكون فيه كل فرد عبدا للمجموع لا يفضـل بكثير المجتمـع الـذى يكون فيـه كل فـرد عبـدا لطاغية » •

٥ ـ مجالات سلطة الدولة والمبادأة الفردية

يرى رسل ان المجتمع العلمى والتقدمى يتطلب كلتا المـركزية ، والمبادأة فردية كانت أم جماعية • فبانتفاء الســـلطة تضرب الفوضى اطنابها ، ومن غير مبادأة يسود الأسن • وفى نظره ان بعض الخصائص التى يجب أن تتوافر فى المجتمع ، ستاتيكى بطبعه ، كما أن بعضها الآخر ديناميكى بطبعه • « واذا تحدثنا بوجه التقريب فاننا نجد أن الصفات الاستاتيكية تتفق مع طريق المبادأة الفردية والجماعية • وفى عالمنا المعقد لايمكن للمبادأة المثمرة من أن تقوم لها قائمة بدون حكومة ، ولا يمكن لسوء الحظ ان تكون هناك حكومة من غير مبادأة •

والحكومة تسعى الى تحقيق اهداف ثلاثة ، الأمن والعدل والمحافظة على المواد الطبيعية « وجميعها أهداف هامة للغاية لتوفير الجو المناسب للسعادة الانسانية • ويعنى الأمن بالحفاظ على الحياة والممتلكات ولا يمكننا أن نغفل أهمية هذا فى اية حياة متمدنة مستقرة • ولكن يجب علينا أن نتنبه الى أن كثيرا من الدول تقوم بحماية المواطنين من الخارجين على القانون دون أن تأبه بحمايتهم من الدولة ذاتها • وقد استطاع الغرب فى ظل الليبرالية أن يحقق قدرا كبيرا من الأمن • ولكنه الآن بحاجة الى أمن من نوع جديد يتلخص فى تثبيت طمأنينته ضد أى اعتداء خارجى عليه • ولا يرى رسل حلا لهذه المشكلة غير اقامة حكومة عالمية تحتكر الاسلحة النووية •

وبالاضافة الى هذا فقد امكن للغرب عن طريق السيطرة الحكومية ان يحقق مايبتغيه من أمن اقتصادى وصحى • وبالرغم من أهمية الأمن فى اقامة حياة طيبة فهو وحده لا يكفى • « فالحياة الأمنة ليست بالضرورة حياة سعيدة فهى تصبح كاسفة حزينة بسبب ما يعتريها من ملل وضجر ولهذا يسعى الكثير من الناس وخاصة فى شبابهم الى المخاطرة والمغامرة • والامن فى حد ـ ذاته هدف سلبى يوحى به الخوف ، فى حين ينبغى أن يكون للحياة المرضية هدف ايجابى هو الأمل » • صحيح ان المغامرة تنطوى على الاخطار التى تبعث على الخوف ، ولكن هناك فرقا بين الخوف الذى تفرضه الظروف الخارجية على الانسان ، والخوف الذى يفرضه الانسان على نفسه • فالنوع الاول من الخوف كريه على النفس بينما النوع الثانى حبيب اليها • ولهذا يخطىء من يظن أن الأمن وحده كفيل بتحقيق الفردوس على الأرض •

والعدل هدف آخر من اهداف الدولة • والعدل صنفان : فهناك العدل السياسى والعدل الاقتصادى • وقد سعت الثورتان الامريكية والفرنسية الى تحقيق العدل السياسى اى الديمقراطية أما العدل الاقتصادى فهو هدف جديد على الانسانية ، يتطلب تحقيقه قدرا من سيطرة الدولة أكبر بكثير مما يتطلبه العدل السياسى • فلا سبيل لاقامة عدالة اقتصادية بدون الملكية العامة للصناعات الاساسية ، وبدون تنظيم من جانت الدولة لتجارتها الخارجية • ولكن ارساء قواعد العدل الاقتصادى فى قطر من الاقطار لايكفى • فلابد من تقديم يد العون الى اجزاء العالم الفقيرة حتى تنتعش اقتصادياتها بالتدريج وتصبح على قدم المساواة مع الدول المتقدمة• وهذه ضرورة لاتدفع اليها اعتبارات الانسانية بل تمليها ظروف الامان والاستقرار فى العالم • فلا أمن ولا استقرار حيث المتناقضات الاقتصادية

بين الدول • لقد كان الظلم الاقتصادى ضرورة لتقدم الحضارة فيما مضى ولو لم يكن هناك ظلم اقتصادى فى مصر وبابل لماتم اختراع فن الكتابة على الاطلاق » ولكن هذه الضرورة قد اختفت فى العصر الحديث • والفضل فى هذا يرجع الى التكنيك العلمى الذى يمكنه كفالة الرخاء العام بدون الاضرار بالحضارة القائمة •

وهنا مشكلة الحفاظ على موارد العالم الطبيعية • وهى مشـــكلة جد خطيرة ، وان كانت الحكومات لاتلتفت اليها • لقد اسرف الانسان فى طوره الصناعى خلال المائة وخمسين عاما الماضية فى استنزاف موارد الارض الطبيعية ، وسيكون لهذا الاسراف اوخم العواقب عندما تنفد هذه الموارد او تشرف على النضوب • ولعل مشكلة البترول واضحة للجميع فرغبة الدول الصناعية فى الحصول على البترول قد تسبب نشوب حرب عالمية لابد للحكومات ان تتنبه ان لكمية البترول فى العـــالم ، مهما كثرت ، حدودها ، وبفرض أنه أمكن استعمال الذرة عوضا عن البترول . فان المشكلة لن تختفى ، لان استخدام الذرة ســـيهدد موارد اليـــورانيوم والثوريوم بالنفاد ، وهذا نفسه ينطبق على الزراعة فى كثير من انحـــاء العالم ، حيث خصوبة الارض تقل نتيجة الاعياء الذى يصيبها بســـبب الاسراف وسوء الاستهلاك •

ولا يعنى هذا ان تقتصر الدولة على تحقيق هـــذه الاهداف الثلاثة (الامن ــ العدل ــ المحافظة على المواد الطبيعية) ، فواجبها فيما عـدا هذا تشجيع المبادأة الفردية كلما كان الى هذا سبيل • هناك أنواع مختلفة من المبـــادأة الشخصـــية • هناك النوع الاجرامى الذى لايمـــكن للدولة ان تسمح بمزاولته • وهناك القدرة على الاختراع التى تتضـــح فائدتها لكل انسان • ولكن هناك ايضا منطقة واسعة المدى تحتل مركزا وسيطا بين الاجرام غير المرغوب فيه ، والاختراع الواضح الفائدة والمرغوب فيه • منطقة من العسير الحكم عليها سلفا • وترجع صعوبة معالجة المنطقة الوسيطة الى صعوبة تقييم اوجه النشاط المختلفة التى يقوم بها المجددون فى هذه المنطقة • وينبغى على الدولة ان تسمح لطبقة المجددين فى هذه المنطقة بحق التجربة وبحرية اجرائها • لان هذه الطبقة تشمل احســـن واجمل ما فى تاريخ الانتصارات الانسانية •

لقد كانت الارستقراطية فى تنافسها فى الماضى تحتضن الفنون وتشجع على تنوعها • ولكن الدولة الآن قد حلت محل الارستقراطية المندثرة وكثيرا ما تتدخل فى الخلق الفنى ، وفى الكتابة بوجه عام بصورة تشكل

خطرا داهما على الفنون والآداب • ورغم هذا كله ، يكاد الفنانون والكتاب في وقتنا الراهن ان يكونوا الوحيدين ، اذا حالفهم الحظ ، الذين يمارسون المبادأة القوية الهامة بصفتهم افرادا ، وليس عن طريق الاعتماد على مجموعة من البشر • وهم يحتفظون حتى الآن بالاستقلال الذى كان يتمتح به العلماء في الماضى ، وبالقدرة على الخلق فى عزلة وانفراد • ان العلماء فيما مضى من أمثال كافندش وفارادای منديل حققوا انتصاراتهم العلمية فى عزلة واستقلال عن المؤسسات يكاد يكون تاما حتى داروين نفسه لم يزد اعتماده على الحكومة عن تمكينه من السفر على ظهر الباخرة « ذى بيجل » فى رحلتها البحرية •

والمبادأة الفردية فى السياسة ، كما هو واضح ، لايمكنها الاستغناء عن الارتباط بالتنظيمات وبمجموعات الناس • والمبادأة السياسية حكر على فئة ضئيلة العدد للغاية حتى فى الديمقراطيات فالفرد العادى فى ظل الديمقراطية مشلول الارادة ، وعاجز تماما عن التأثير فى الاحداث كما لو كان يعيش فى ظل الديكتاتورية • وهو يدرك فى عجزه التام انه لايستطيع ان يتصرف حتى فى مقدرات حياته نفسها • ولنفرض ان القطاع الذى يحق له الانتخاب فى دولة ديمقراطية هو عشرون مليونا فى هـذه الحالة لن يتعدى الاثر الذى يستطيع الفرد العادى ممارسته على الحيـاة العامة واحدا الى عشرين مليونا ، وهو اثر يكاد ينعدم لفرط ضـعفه ضآلته • بل ان قدرته على التحكم فى مصيره الخاص لا تعدو ان تكون نفس النسبة اى بواقع ١ الى عشرين مليونا • ولا يتعب رسل من ترديد فكرته التى تتلخص فى ان المخرج من هذا العجز السيكولوجى الخانق لامكانيات الافراد هو توفير الاستقلال المحلى كلما كان الى هذا سبيل • فكلما قل العدد كلما ازدادت فرص الفرد فى التأثير على مجريات الأحداث ولزاد احساسه بقيمته • « لعل الهجوم الذى يشنه الاشتراكيون على الرأسمالية يبالغ أشد المبالغة فى اهتمامه بالمسائل المتعلقة بالدخل أكثر من اهتمامه بمشكلة السلطان • فقد يحدث عندما تنتقل صناعة الى ايدى الدولة عن طريق التأميم ان تستمر نفس اللامساواة القديمة فى توزيع السلطان ، كما كان الحال فى ايام الرأسمالية الفردية ، بحيث يصبح التغير الوحيد ان اصحاب السلطان الجدد هم الموظفون لا أصحاب المصانع » •

ويرى رسل ضرورة ايجاد الصناعة الديموقراطية حتى تجد المبادأة الفردية مجالا لها عند كل انسان • « ان حرية الصناعة بمعناها الليبرالى القديم « دعه يعمل » لم تعد تصلح ولكن الامر البالغ الاهمية ان تسـتمر

حرية المبادأة وان يجدالقادرون مجالا لتحقيق قدراتهـــم • كما أنه يرى ضرورة الحد من سلطان الرئاسات عن طريق التنبه واليقظة الديمقراطية • لقد ناضل المصلحون خلال القرون المتعاقبة ضد سلطان الملوك • ثم بدأوا يكافحون سلطان الرأسماليين ولكن انتصارهم فى هذا النضال الثانى لن يؤتى ثماره اذا افضى الى وضع سلطان الرأسمـــاليين فى يد موظفى الدولة • »

ويهاجم رسل التطابق الذى يشل امكانيات الانسان الخالقة سواء فى مجال الصناعة او الثقافة « ان التطابق فى الشخصية والثقافة امر يدعو للاسف • فالتطور البيولوجى قد اعتمد على الفروق الموروثة بين الافراد او القبائل ، والتطور الثقافى يعتمد على الفروق المكتســبة • ومن جهة اخرى لدينا بواعث خلاقة ، بواعث تدفعنا الى اضافة شىء فى العالم لم نقم بانتزاعه من احد • وقد تتخذ هذه البواعث اشكالا متواضعة مثل العناية بحدائق الاكواخ كما انها قد تمثل سمت الانتصارات الانسانية كما هو الحال عند شكسبير ونيوتن • وبوجه عام يمكن القول بان تنظيم بواعث الاستحواذ والسيطرة عليها عن طريق القانون من اختصاص وظائف الحكومة الجوهرية ، فى حين ينبغى ان تستمد البواعث الخلاقة قوتها من الفرد ، او الاستقلال يتمتع به مجموعة من الناس حتى لو قامت الحكومات بتشجيعها » •

وفى نظر رسل ان الاشياء المادية تتصل بالبواعث الاستحواذية فى الانسان • فالذى يلتهم جانبا من الطعام يمنع غيره من الحصـــول عليه • فى حين ان المتع الذهنية لاتتضمن استئثار اى انســـان بها • فالانسان الذى يستمتع بقصيدة أو يكتب كتابا لا يمنع انسانا آخر من متعة تماثلها • ولهذا فان العدالة هامة فيما يتعلق بتوزيع الاطاييب المادية ولكن الشىء المطلوب فيما يتعلق بالاطاييب الذهنية ، هو الفرصة والجـو الذى يوفر للانسان الامل فى تحقيق ما يرنو اليه » •

٦ ـ التعاون بين الاخلاقيات الفردية والاخلاقيات الاجتماعية

يرى رسل ان هناك تعارضا بين بعض جوانب اخلاقيات الفـــرد وبين اخلاقيات المجتمع • ويقول فى هذا الصدد « لا يوجد انسان حر حرية كاملة ، كما انه لا يوجد انسان مستعبد عبودية كاملة وفى الحدود التى يكون فيها الانسان حرا ، نجده فى حاجة الى اخلاقيات شخصية توجـه

سلوكه وهناك بعض الناس ممن يقولون ان الانسان لايحتاج الى اكثر من اتباع القانون الاخلاقى السائد فى مجتمعه • ولكننى لا اظن ان اى دارس للانثروبولوجيا يمكنه ان يقنع بهذه الاجابة • فقد اندثرت عادات مثـل اكل لحوم البشر ، وتقديم الضحايا البشرية للالهة ، وصيد رؤس البشر وقطعها كنتيجة للاجماع الاخلاقى ضد الآراء الاخلاقية التقليدية • واذا اعتملت فى الانسان رغبة جادة صادقة فى ان يعيش افضل حياة مهيـأة له فعليه ان ينقد العادات والمعتقدات القبلية السائدة عموما بين جيرانه » •

ويتناول رسل مشكلة المعترضين الذين يرفضون الايمان بعمل يتنافى مع ضمائرهم (كالاشتراك فى الحرب مثلا) فيقول انه لا يحق للدولة ان ترغم انسانا ــ حتى اذا كان مخطئا ــ على الاتيان بعمل يجافى احكام ضميره • والى جانب هذا يرى رسل أن الثورات مشروعة فى بعض الحالات، حتى اذا كانت تجر الفوضى فى اذيالها • فعند ما تكون الحكومة الشرعية القائمة فاسدة بصورة مروعة ، يجدر التخلص منها عن طريق الثورة • والثورات الناجحة فى التاريخ ــ ثورة انجلترا عام ١٦٨٨ ، وامريكا عام ١٧٧٦ قامت على اكتاف رجال تشربت روحهم احترام القانون • وهذا هو السر فى نجاحها • اما اذا كان القائمون بالثورة لايقيمون للقانون وزنا او اعتبارا تفضى الثورة الى الفوضى او الديكاتورية •

وقد افضت هذه المشاكل الى خلق ازدواجية عميقة فى الاخـلاق • ويشرح رسل جذور هذه الازدواجية فيقول : « ترجع المعتقدات الاخلاقية خلال التاريخ المدون الى مصدرين مختلفين للغاية : احدهما اجتمـاعى ، والآخر يعنى بالاقتناعات الدينية والاخلاقية على المستوى الشخصى • وفى العهد القديم يظهر المصدران منفصلين انفصالا تاما • فيتمثل احـــدهما فى القانون الالهى كما يتمثل الآخر فى الانبياء • وقد كان هناك فى العصور الوسطى نفس التمييز بين الاخلاق الرسمية التى يغرسها النظام الهرمى الكنسى ، وبين القداسة الخاصة التى يبشر بها المتصوفون العظماء ويمارسونها • ويجب على أية نظرية اخلاقية سليمة ان تاخذ فى الاعتبار هذه الازدواجية بين اخلاق المجتمع والاخلاق الشخصية • فالمجتمعـــات تهلك بدون اخلاقيات اجتماعية كما ان البقاء نفسه عديم الجدوى بدون اخلاق شخصية • ولهذا فان للاخلاق الاجتماعية والشخصية نفس الضرورة لخلق عالم طيب » •

والاخلاق فى نظر رسل لاتقتصر على مجرد اداء الانسان لواجباته الاجتماعية فهناك السعى وراء الامتياز الشخصى • صحيح ان جانبا من

هذا الامتياز الشخصى ينحصر فى قيام الانسان بواجبه نحو الآخرين على اكمل وجه • ولكن « من الخطر ان نسمح للسياسة والواجب الاجتماعى ان يسودا تماما مفهومنا لمقومات الامتياز الفردى • والذى احاول ان انقله الآن ، وان كان لايعتمد على أى ايمان لاهوتى ، ينسجم انسجاما شديدا مع الاخلاقيات المسيحية • لقد ارسى سقراط والرسل قواعد المبدأ المنادى بانه ينبغى علينا ان نطيع الله اكثر من طاعتنا لانسان • وتأمرنا الاناجيل بحب الله بنفس التأكيد الذى تأمر به حبنا لجيراننا • لقد اظهر سائر الزعماء الدينيين العظام ، وكذلك سائر الفنانين ومكتشفى الفكر العظام احساسا بالارغام الاخلاقى يلح عليهم حتى يحققوا نوازعهم الخلاقة ، كما اظهروا احساسا بالسمو الاخلاقى وهم يفعلون هذا • هذه العاطفة هى اساس ما يسميه الانجيل الواجب نحو الله ، الذى يمكن فصله — كما اكرر — عن الايمان اللاهوتى » •

لقد ذكرنا فى معرض حديثنا عن موقف رسل من الماركسية ان جذور المسيحية راسخة فى اعماقه مهما حاول التمرد عليها • وأوردنا الشواهد على صدق ما نصل اليه • ونحن هنا نضيف الى ما سبق لنا ان اوردناه ما يؤكد صحة دعوانا •

ويؤكد رسل اهمية الدور الذى يلعبه الفرد فى المجتمع قائلا انه لاينبغى علينا ان ننظر الى العمل الفردى باعتباره شيئا أدنى من الواجب الاجتماعى • فاعظم مافى الانسانية قد جاء نتيجة العمل الفردى من ناحية ، ومن ناحية اخرى لان الاصلاح الذى اجرى تعديلا فى احساسنا بالواجب الاجتماعى نفسه قد جاء اساسا نتيجة مشاعر وافكار اناس رفضوا الخضوع لمشاعر وافكار القطيع الانسانى •

ثم يعرض رسل لمشكلة الوسائل والغايات الشائكة • ويردد اهمية الغايات فى الحياة الانسانية وهو يدرك صعوبة الوصول الى توازن سليم بين الوسائل والغايات ، فيعترف للذين يعنون بالوسائل اكثر من عنايتهم بالغايات بانهم على نصف حق فى دعوتهم الى ضرورة توافر « البصيرة وبعد النظر » فى الانسان باعتباره علامة جوهرية يتميز بها الانسان ، وتدل على نضوجه العقلى فالانسان المتمدن يؤمن حياته ضد أخطار المستقبل فى حين ان الهمجى لايكترث بهذا • وينطوى بعد النظر على التضحية بلذات راهنة من اجل فوائد يجنيها فى المستقبل • ولكن اعتراف رسل بأهمية الوسائل لايعصب عينيه عن اهمية تفوقها هى اهمية الغايات فى الحياة فهو يقول فى هذا الشأن : « واذا اردنا من الحياة الانسانية الا تصبح

غبراء قاحلة سقيمة فمن المهم أن ندرك ان لبعض الاشياء قيمة مستقلة تماما عن نفعها . » « وبدون قدر من ادراك الغايات تصبح الحياة كاسفة مقبضة لا لون لها » .

ويعيب رسل على الذين يزهون بكونهم عمليين انهم فى اغلب الامر ينصرفون بكليتهم الى الوسائل متجاهلين الغايات. ولكنهم فى هذا لايدركون من الحكمة الا نصفها . ونحن لا نتنبه فى العادة الى ان السياسة والاقتصاد والتنظيم الاجتماعى مجرد وسائل لغايات اشرف وانبل .

والناس لايذكرون دائما انتماء السياسة والاقتصاد ، والتنظيم الاجتماعى بوجه عام الى منطقة الوسائل لا الغايات . ويتعرض تفكيرنا السياسى والاجتماعى للوقوع فى اكذوبة يمكن تسميتها بالزيف الادارى تتداخل اجزاؤه وتتشابك . ولكن المجتمع لايوجد ، او على اقل تقدير لا ينبغى ان يوجد من اجل ارضاء الذين يقومون بمسحه من الخارج ، بل هو موجود لتحقيق الحياة الطيبة للافراد الذين يكونونه . وقيمة المجتمع النهائية تتحقق فى الافراد ، ولا تتحقق فى الكل ، والمجتمع الطيب وسيلة لبلوغ حياة طيبة لكل انسان فيه ، وليس شيئا يتحلى بامتيازه المستقل عن أفراده » .

ويوضح رسل لنا الخطر الذى ينطوى عليه النظر الى الامة باعتبارها كائنا عضويا اذا لم تتنبه الى حدود هذا التشبيه ووجوه النقص فيه . ويعترف رسل ان الانسان كائن عضوى فما يصيب الجزء من اذى يصيب الكل كذلك . ولكن عند ما يقع فلاح من هيرفورشير تحت رحمة عاصفة ثلجية فليست الحكومة فى لندن هى التى تشعر بزمهرير البرد . ولهذا فان الانسان الفرد هو حامل خيره وشره ، دون أن يحمله عنه اى جزء منفصل عنه او أية مجموعة من الناس . ومن خطأ الرأى الاعتقاد بان من الممكن ان يكون للخير أو الشر وجود فى مجموعة من الناس منفصل عن الافراد المختلفين . واكثر من هذا انه خطأ يفضى الى الديكتاتورية (الثورتاليرية) مباشرة . ومن ثم خطره .

هناك بعض الفلاسفة والساسة الذين يظنون ان للدولة امتيازا خاصا بها ، وليست مجرد وسيلة الى سعادة المواطنين . « وانا لا أستطيع ان اجد سببا يدعونى للاتفاق مع هذا الرأى . « الدولة » فكرة مجردة . فهى لاتشعر بالسرور او الالم ، ولا يداعبها الرجاء او تساورها المخاوف ، والذى تظن انه غرض الدولة لايخرج عن كونه فى حقيقة الحال غرض الافراد الذين يوجهونها . وعند ما نفكر بطريقة محسوسة ، وليس عن

طريق التجريد ، نجد فى مكان الدولة ، بعض الناس الذين يتمتعون بقدر من السلطان يفوق نصيب معظم الناس فيه • ولهذا فان تمجيد الدولة لايخرج عن كونه فى الحقيقة تمجيدا للاقلية الحاكمة • ولا يستطيع ديمقراطى ان يسمح بمثل هذه النظرية غير العادلة فى جوهرها » •

ويهاجم رسل نظرية اخلاقية يستند المحبذون لهـــا الى التطـور البيولوجى وتقتضى هذه النظرية بان البقاء او بقاء النوع الانسانى بتعبير ادق هو الغاية العليا للحياة • ويقول رسل لو كانت هذه النظرية سليمة لكان معنى هذا ان ما يكثر من سكان العالم خير وان مايسبب نقصان عدده شر • وهو لا يرضى بهذه النظرية الحسابية المحضة ، والالية البحتة الى الانسان « أى انسان شفوق هذا الذى يفضل عددا كبيرا من السكان يعيش فى فقر وفاقة على عدد اقل منه يعيش فى سعادة ويتمتع بكفاية من وسائل الراحة » •

(٧)

دعوة برتراند رسل
إلى التشكك السياسي

دعوة برتراند رسل الى التشكك السياسى

تنهض فلسفة برتراند رسل على تمجيد التشكك فى شتى مجالات الفكر وفى المقدمة التى كتبها فى صدر كتابه « مقالات متشككة » نجده يدافع عن مذاهب الشك العقلى ، ويتحدث عن الفوائد الناجمة عن اعتناق هذا المذهب • ويبدأ رسل مقدمته بالدفاع عن مبدأ قد يبدو بريئا وطبيعيا للغاية ، ولكنه يرتب عليه أخطر النتائج • ويتلخص هذا المبدأ فى انه « من غير المرغوب فيه أن نؤمن بقضية عندما لا ينهض الدليل على افتراض صحتها » •

ويتحفظ رسل فى موقفه قائلا انه لا يحب أن يظهر بمظهر المتطرف أو المغالى فيما يذهب اليه من آراء • « فأنا أدين بمبادىء حزب الوجز (الاحرار) البريطانى ، وأشارك الانجليز حبهم للحلول الوسطى والاعتدال » •

ويروى لنا رسل قصة بيرو الاغريقى مؤسس الشك فى العالم القديم الذى يرى ان الانسان لا يملك من أسباب المعرفة ما يمكنه من الحكم على شىء بأنه أحكم أو أفضل من شىء آخر • خرج بيرو الشكاك كعادته للتريض فى عصر أحد الايام فوجد ان المدرس الذى يعلمه الفلسفة قد سقط فى حفرة وانحشر فيها بحيث تعذر عليه الخروج منها • ومر عليه تلميذه بيرو فتأمله بعض الوقت وفكر فى أن يمد اليه يد المساعدة ، ولكنه غير فكره بعد أن رأى انه ليس هناك سبب كاف يدعوه لانتشال الرجل العجوز من ورطته • وعلى هذا انصرف بيرو ومضى لحال سبيله • وجاء آخرون يقلون عنه شكا فبادروا بانتشال الرجل العجوز وبطبيعة الحال انحوا باللائمة على التلميذ الذى تحجر قلبه • ولكن مدرسه الذى لقنه مبادىء الفلسفة المتشككة لم يغضب منه بل اثنى عليه لوفائه لمبادئه التى يدين بها ، ولانسجام فكره مع سلوكه • هذه هى الروح الشكاكة التى يدافع برتراند رسل عنها ، ولكنه يختلف مع سلفه بيرو فى « ان شكه أكثر ايجابية من شك الفيلسوف الاغريقى فلو أن العلم تنبأ بخسوف

القمر فى تاريخ معين مثلا لما رأى بيرو الشكاك السلبى ما يدعوه للنظر الى السماء حتى يتأكد من وقوعه ، فى حين ان رسل الشكاك الايجـابى يؤمن أن هناك ما يدعو النظر الى السماء فى مثل هذه الحالة للتأكد من صحة تنبئه ٠

ويشرح رسل مبادىء مذهب الشك العقلى الذى يدعو اليه فيقول ان اجماع الخبراء لا يعنى بالضرورة صحة هذا الرأى ٠ فقد رأى اينشتين عظم انحراف الضوء بسبب الجاذبية وهو رأى كان سائر الخبراء يرفضونه من قبل ٠ ويمكن تلخيص مبادىء رسل فى الشك فيما يلى(١) عندما يتفق الخبراء على رأى فانه لا يمكن الاعتقـــاد بيقينية الرأى المضاد(٢) وعندما لا يتفقون على رأى فانه لا يمكن لغير الخبراء اعتبار أى رأى أمرا أكيدا(٣) وعندما يرى جميع الخبراء انه ليست هناك أسس كافية للاعتقاد بصحة رأى اعتقادا ايجابيا فيجدر بالرجل العادى أن يحجم عن اصدار احكامه ٠ ويقول رسل ان هذه القضايا قد تبدو مخففة وملطفة ٠ ومع هـــذا فانه يعتقد ان قبولها من شأنه أن يغير الحياة الانسانية من جذورها تماما ٠

وفى نظره ان تحمس الانسان لرأى ينم عن عدم استناد هذا الرأى الى أية أسس عقلية تبرر الاقتناع به ٠ ولهـــذا تروق له الصـــين لان حضارتها العريقة لاتسمح بالافراط فى التحمس الذى ينتهى الى التعصب الذميم ٠ ويبدى رسل اعجابه بنظرة الدكتور ريفز التجريبية كما تضمنها كتابه «علم النفس والسياسة» الذى يعتبره رسل بحثا رائدا فى العلوم الاجتماعية ينهض على الاسلوب العلمى ٠ ان أعداء الاشـتراكية يزعمون انها تجافى الطبيعة البشرية ٠ ولكن كتاب ريفز يقدم حقائق انثرويولوجية تبين ان الاشتراكية لا تتعارض مع الطبيعة البشرية فى جزر مالينيزيا فى المحيط الهادى ٠ ويضيف ريفرز انه ليس هنـــاك دليل على ان الطبيعة البشرية فى مالينيزيا تشبه الطبيعة البشرية فى أوربا ٠ ويخلص من هذا الى أن التأكد من صلاحية النظام الاشتراكى فى المجتمع الاوربى يقتضى قبل كل شىء وضعه موضع التجربة حتى يتسنى الحكم على جدواه ٠

والشك العقلى الذى يدافع عنه رســل سيبدد الكثير من الأســاطير الرائجة حول مسائل وقضايا يكتنفها الشك٠ مثل القومية وتقاليد الزواج التى تختلف من مكان لآخر ٠ والعواطف الجامحة كما يدل على ذلك علم النفس تبنى صرحا من الاساطير المصاحبة لها ٠ فالانسان الذى يعانى من الاحساس بالمهـــانة والاذلال يخترع نظرية فحواها انه ملك انجلترا ٠ ويستحدث شتى أنواع التفسيرات البارعة ليدلل بهـــا على انه لا يعامل

بالاحترام اللائق بمركزه الرفيع • وليس وهمه فى هذه الحالة من النوع الذى يعطف عليه جيرانه • ولهذا فهم يقومون بحبسه • ولـكن لو انه استبدل تأكيد عظمته الخاصة بتأكيد عظمة أمته أو طبقته أو مذهبه ، فانه سيكسب الى صفه حشودا من الموالين له ، ويصبح زعيما سياسيا أو دينيا حتى لو بدت آراؤه ، للغريب المحايد مضحكة كتلك الافكار السائدة فى مستشفيات الامراض العقلية • وبهذه الطريقة تتفـاقم اللوثة الجماعية التى تتبع قوانين تشبه تماما قوانين جنون الافراد • ان كل انسان يدرك خطورة النقاش مع مجنون يعتقد انه ملك انجلترا • ولكن يمكننا التغلب عليه لأنه بمفرده وعندما تشترك أمة بأسرها فى وهم فسيكون غضبها من نفس نوع غضب المجنون الفرد اذا عن لانسان أن يناقشها مزاعمها . وليس هناك سبيل غير الحرب لاضطرارها للخضوع لاحكام العقل » •

١ ـ الحاجة الى الشك السياسى

فى محاضرة ألقاها رسل فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ على اتحـاد طلبة مدرسة لندن فى الاقتصـاد والعلوم السياسبة ، نراه يقسم النشـاط السياسى الى نوعين : النشـاط الذى يمارسه رجال السياسة والنشاط الذى يمارسه الخبراءو يستهوى النشاط الاول بطبيعة الحال عامة الناس، ويعتمد فى أثره على تفجير ينابيع الحقد فى نفوسهم ، ونجاح كل حركة سياسية ينهض على المخاطبة الغريزية للحسد والشحناء أو الحقد ، ولا يعتمد مطلقا على الحاجة الى التعاون » •

« ونحن لانحب أن يسلبنا أحد عدوا لنا • ونريد فى شقائنا وتعاستنا انسانا نصب عليه كراهيتنا • انه لأمر تنقبض له نفوسنا للغاية أن نعتقد اننا نقاسى ونشقى لكوننا مغفلين ، رغم ان هذه هى الحقيقة اذا نظرنا الى الانسانية ككل • ولهذا السبب لا يستطيع حزب سياسى أن يكتسب أية قوة دافعة الا عن طريق الكراهية وعليه أن يصب سخطه على انسان) » •

ونشاط الخبراء بالغ الاهمية ، ولـكنه لا يؤثر فى مجرى الاحداث كما يؤثر فيها نشاط الساسة لان الخبراء يعنون باستجلاء الحقائق دون اعتبار للشعور العام • أما الساسة فيأخذون فى اعتبارهم تملق الشعور العام • وكثيرا ما يعرض رجال السياسة عن الحلول السليمة العلمية التى يقترحها الخبراء لانها تروق فى أعين عامة الناس • ولا يعقد رسل الكثير من الخير والرجاء على تخـويل هؤلاء الخبراء السلطة التنفيذية لان هذه

السلطة ستظهر النوازع الاستبدادية الكامنة فيهم والتى يمنعهم عجزهم السياسى عن اظهارها • أضف الى هذا ان هناك عيوبا أخرى تشوبهم مثل مبالغة الخبير فى تقييم أهمية تخصصه • وعدم الاحتفال برضاء عامة الناس عند اتخاذه التدابير التى يرى انها تخدم المصلحة العامة •

ويعتقد رسل مقارنة توضح الفرق بين دور السياسى ودور الخبير فيقول : « سأبين هذه النقطة بتوضيح الخلاف بين كتابين يدافعان عن الاشتراكية الدولية هما « رأس المال لماركس ، وكتاب (سولتر) « سيطرة الحلفاء على الشحن بالسفن » • لا شك ان السير آرثر سولتر لا يسمى نفسه اشتراكيا دوليا ، ولكنه يدين بالاشتراكية الدولية رغم هذا • ويمكننا أن نأخذ هذين الكتابين باعتبار انهما يمثلان بالتناوب الوسائل التى ينتهجها السياسى وموظف الدولة فى الدفاع عن التغيير الاقتصادى• فهدف ماركس هو خلق حزب سياسى من شأنه أن يدحر سائر الاحزاب الاخرى فى نهاية الامر فى حين ان هدف (سولتر) هو التأثير فى رجال الادارة داخل النظام القائم ، وتغيير الرأى العام عن طريق المناقشات المبنية على الفائدة العامة • ويثبت ماركس بشكل قاطع ان الكادحين فى سبيل الرزق فى ظل الرأسمالى يقاسون من الحرمان البشع • وهو لا يثبت ولا يحاول أن يثبت أن شقاءهم سيقل فى ظل النظام الشيوعى فهذا افتراض يفهم ضمنا من أسلوبه ومن ترتيب فصوله • وسيجد أى قارىء يبدأ فى مطالعة الكتاب بتحيز لطبقة البروليتاريا نفسه تقبل هذا الافتراض فى أثناء قراءته دون أن يلاحظ ان هذا الافتراض لاينهض عليه دليل • وبالاضافة الى ذلك فماركس ينبذ بشدة الاعتقاد بأن للاعتبارات الأخلاقية أية علاقة بالتطور الاجتماعى الذى يفترض انه يسير فى مجراه بمقتضى قوانين اقتصادية لامحيص عنها كما هو الحال تماما عند ريكاردو ومالثوس • ولكن ريكاردو ومالثوس كانا يعتقدان ان القوانين التى لا محيص عنها تجلب السعادة الحتمية لطبقتهما مصحوبة بشقاء الطبقة العاملة فى حين ان ماركس شأنه فى ذلك شأن ترتيليان يكابد رؤيا مزعجة تتنبأ بمستقبل تتلذذ فيه طبقته بالفرجة على مباهج السيرك بينما البورجوازية ذليلة تعوى • ورغم زعم ماركس بانه لا ينظر الى الناس باعتبارهم أخيارا أو أشرارا بل كمجرد تجسيد لقوى اقتصادية ، غير أنه فى حقيقة الأمر أظهر البورجوازى بمظهر الشرير ، ثم بدأ يعمل على اثارة كراهية العامل المشبوبة له «ورأس المال» لماركس فى جوهره ، مثله فى ذلك مثل تقرير بريس ان هو الا مجموعة من قصص البشاعات والفظائع تستهدف اثارة حماس القتال ضد العدو ولكنها تثير بطبيعة الحال

حماسة العدو للقتال • وهى بهذا تولد حرب الطبقات التى تتنبأ بها • والسبب فى أن ماركس قد أصبح يملك القوة السياسية الهائلة راجع الى اثارة الكراهية والى تصويره الناجح للرأسماليين على انهم أشـــياء تثير المقت الاخلاقى » •

ثم يعرض رسل لكتاب سولتر • وفحـوى هذا الكتاب ان الحرب الاولى قد أثبتت بما لا يدع مجـالا للشك ان التنظيم الذى يمهد لاقامة الاشتراكية الدولية ممكن بل ان الدول الحليفة قد قامت بتطبيقه فعلا عن طريق احتكارها للمواد الغذائية وغيرها من المواد الاساسية وتوزيعها بين هذه الدول مع مراعاة احتياجات كل دولة • فقد دعت دواعى الحرب الى سحب مالا يقل عن نصف عدد العاملين فى حقل الانتاج حتى يشتركوا فى القتال ضد الالمان • ومع هذا فقد ظل الجهاز الاقتصادى فى البلاد المتحالفة سليما دون أن يتأثر انتاجها أو ينخفض • واستمر مستوى المعيشة خلال فترة الحرب على ما كان عليه قبل الحرب •

وقد تمت هذه الاشتراكية الدولية دون اغضاب الرأسماليين أو اثارة الضغينة والحقد بين الطبقات • كان خبراء الدول المتحـــالفة فى شتى الاختصاصات يجتمعون للوصول الى أحسن حل يكفل التعاون فيما بينهم لمجابهة محنة الحربو العجيب فى الامر كما يقول السير آرثر ســـولتر ان التنظيم الاقتصادى فى فترة الحرب كان يحمل فى طيـــــاته كل المعـــالم الجوهرية فى الاشتراكية الدولية • وبمجرد أن وضعت الحرب أوزارها عادت الى العالم فوضاه الاقتصادية القديمة مما يدلنـــا على ان الاشتراكية الدولية ممكنة من النـــاحية الفنية وان كانت غير ممكنة من الناحية النفسية •

ويرى رسل ان التصنيع يتطلب التعـــاون الدولى • ولكن كيــف الســبيل الى تحقيق هذا التعـــاون فى وقت السلم فى حين ان الساسة يبذرون بذور الحقد والكراهية للاجانب فى نفوس أبنـــاء جلدتهم • ان التعليم يمكنه أن يجىء بالنتيجة المنشودة ، زلكن ليس هنـاك سبيل الى تغيير التعليم الا بتغيير النظام السياسى • وهو أمر سيظل بعيد الاحتمال لوقت طويل وهذا ما يدفعه الى الدعوة الى التشكك السياسى فى البرامج التى تتقدم بها الاحزاب للعمـل السياسى وهذا التشكك السياسى يجعله يرفض الاضطهاد الحاضر والخسف الراهن فى سبيل مكاسب غير مضمونة فى المستقبل لان احتمالات الخطأ والزيف تشوب التقديرات والحسابات السياسية •

الفكر الحر والدعاية الرسمية

فى محاضرة ألقاها برتراند رسل احتفالا بذكرى مونكيور كونواى عام ١٩٢٢ ، تحدث فيها الفيلسوف عن الاخطار التى تهدد الحرية فى العالم الحديث ونشرت هذه المحاضرة بعنوان « الفكر الحر والدعاية الرسمية » وفيها يقول رسل ان كونواى وقف حياته على هدفين عظيمين هما حرية الفكر وحرية الفرد كما لفت الانظار الى الاخطار الجديدة التى تتخذ أشكالا لم تكن مألوفة من قبل ، والتى باتت تحدق بكلا هذين الهدفين الكبيرين ٠

يبدأ رسل حديثه بتحديد معنى الفكر الحر فيقول ان له معنيين أحدهما ضيق ، والآخر واسع ٠ والفكر الحر بمعناه الضيق « هو الفكر الذى لا يقبل مسلمات الدين التقليدى » ويدافع رسل عن هذا المفهوم الضيق لمعنى الفكر الحر ، ولا يحاول أن يقلل من شأنه ، فيقول معبرا عن آرائه الملحدة :

« اننى لا أرغب فى التقليل من شأن الفكر الحر بهذا المعنى ، فاننى شخصيا أعترض على سائر الديانات المعروفة ، وأملى أن تندثر سائر أنواع الايمان الدينى ٠ وانى لا أعتقد اذا وزنا الامور ، ان العقيدة الدينية قوة تعمل من أجل الخير ٠ وبالرغم من انى على استعداد للاعتراف بان للدين بعض الآثار الحسنة فى أزمنة وأماكن معينة ، فانى أعتبره شيئا ينتمى الى طفولة العقل البشرى كما ينتمى الى مرحلة متخلفة من التطور يجب أن نتجاوزها الآن » ٠

ولكن رسل الذى يؤيد هذا المعنى الضيق للفكر الحر ويؤازره ، لا يحتفل به قدر احتفاله بالمعنى الواسع له ٠ وفى رأيه ان أسوأ اثر تركته الاديان التقليدية ينحصر فى انها عملت على منع حرية الفكر بهذا المعنى الواسع ، والسعى حثيثا لاجتثاثها ٠ ويعترف رسل بصعوبة تعريف ماهية الفكر الحر بمعناه الواسع ٠ ولكن هذه الصعوبة لا تثنيه عن الخوض فى الشروط التى يجب توافرها اذا أردنا أن تقوم للفكر الحر قائمة ٠ وفى نظره ان الفكر لا يكون حرا اذا كان خاضعا لضغط خارجى ٠

وألوان الضغوط متعددة فمنها الواضح الجلى ، ومنها الخبيىء الخفى٠

وأكثر القيود الخارجية التى يرزح الفكر الحر تحت نيرها وضوحا حين يتعرض المرء لعقاب القانون لانه يدين بآراء معينة ، أو لانه لا يدين

بها ، ولانه يعبر عن ايمان بعقيدة معينة أو عدم الايمان بهـا · ويضرب رسل أمثلة على الضغوط الخارجية التى تثقل كاهل الفـكر الحر فيذكر قانون التجديف فى انجلترا الذى يعاقب على انكار الدين المسيحى ، كما يعاقب على التبشير بتعاليم المسيح نفسه فيما يتعلق بالسلام وعدم المقاومة، والقانون الامريكى يطالب أى انسان بالتصريح بعدم ايمانه بالفوضوية ، وتعدد الزوجات ، والشيوعية قبل أن تطأ قدمه أرض الولايات المتحدة ·

وفى اليابان يعاقب القانون كل من تسول له نفسه انكار قدسية الميكادو (١) · ويضيف رسل ان هذه القوانين لا تطبق على الموسرين بشرط أن يعتنقوا ما يعن لهم من آراء دون اثارة خواطر عامة الناس ·

ولكن هذه العقوبات تهون فى نظره ، اذا قورنت بخطرين داهمين يتهددان الفكر الحر وهما انزال العقاب الاقتصادى بانسان لاعتناقه أو عدم اعتناقه رأيا معينا ، وتشويه الحقائق عن طريق عرض وجهة نظر فى مسألة مختلف عليها فى صورة جذابة الشكل وبشكل مغر للغاية ، فى حين لا يستطيع الانسان المحايد التواق الى المعرفة أن يصل الى وجهة النظر المعارضة سوى عن طريق الكد والتعب ، والبحث المضنى الشاق · وفى رأيه أن هذين الخطرين قائمان فى كل دولة من الدول التى يعرفها ماعدا الصين التى كانت آخر ملاذ للحرية » ·

ثم يسترسل رسل موضحا ملامح الفـكر الحر الاسـاسية فيقول « يجوز لنا أن نقول ان الفكر يكون حرا عندما يتعرض للتنافس الحر مع غيره من المعتقدات ، أى عندما تستطيع سـائر المعتقدات أن تشرح وجهة نظرها بحيث لا يصاحب الايمان بها فوائد أو أضرار من الناحية القانونية أو المالية » ·

ويروى برتراند رسل ثلاثة حوادث وقعت له فى حياته تلقى ضوءا على الشروط التى يرى ضرورة توافرها اذا شاءت حرية الفكر أن تكتمل ·

وتبين الحادثة الاولى تحيز الدولة الانجليزية للدين المسيحى · كان والد رسل متحررا فى الفكر ، ينكر المسيحية ويعتبرها خرافة · ولذلك أراد أن يشب ابنه برتراند ويترعرع دون أن تكون للتعاليم الدينية اثر فى حياته · وقبل أن يقضى ، عين لابنه الذى لم يكن يتجاوز الثـالثة ، اثنين من المعروفين بالالحاد حتى يتوليا أمر الوصاية عليه · ولكن المحاكم

(١) لاحظ أن رسل كتب هذا قبل الحرب العالمية الثانية بزمن غير قصير ·

الانجليزية ابت الاعتراف بوصية الاب وبوصاية الملحدين على الطفل ٠ وأمرت بتربية فيلسوف المستقبل فى أحضان العقيدة المسيحية ويقول رسل ان المحاكم ما كانت لتعترض لو ان أباه أوصى بتربيته وفق أية ملة من ملل الدين المسيحى مها بلغ سخفها ٠ « ومعنى هذا انه يحق للوالد أن يوصى بغرس أية خرافية يمكن أن تخطر على بال انسان فى أبنائه بعد وفاته ٠ ولكن لايحق له أن يوصى بتحريرهم من الخزعبلات اذا أمكن هذا » ويعلق رسل ساخرا على نتيجة قرارات القضاء الانجليزى ، وفشـــله فى بث الايمان بالدين المسيحى فيه بقوله . « ولكنى أخشى ان النتيجة تنطوى على خيبة الامل ، ولكن هذا لم يكن ذنب القانون » ٠

وقد وقعت له الحادثة الثانية فى عام ١٩١٠ ، عندما كان يطمع فى أن ينتخب عضوا فى البرلمان ممثلا لحزب الاحرار ٠ ورشـح رسل نفسه للانتخابات فى دائرة موالية لحزب الاحرار أوصى بها الحزب لان الفوز فيها كان مضمونا ، وزكاه الحزب وأيده ٠ وبات انتخابه لعضوية البرلمان أمرا شبه أكيد ولكن قلة من المسئولين فى دائرة الحزب الداخلية اتصلت به للاستفسار عن موقفه من الدين ٠ فاعترف لهم رسـل دون مواربة بانه متشكك ، ولما سألته اذا كان من المحتمل أن يصرح علنا برأيه المتشكك فى الدين أجاب بأن هذا جائز ٠ وأخيرا سئل اذا كان يوافق على التردد على الكنيسة من وقت لآخر ، فرفض ٠ وكانت نتيجة ذلك ان خذله الحزب وانتخب ممثلا آخر ظل يتمتع دون انقطاع بعضويته فى البرلمان حتى اختير للاشتراك فى الوزارة فى عام ١٩٢٢ ٠

أما الحادثة الثالثة فوقعت له عندما دعته جامعة كامبريدج ليعمل فيها كمحاضر وليس كزميل ٠ وليس هنـــاك فرق بين المحاضر والزميل من الناحية المالية ٠ ولكن الزميل يتمتع بكلمة فى توجيه سياسة الجامعة ، ولا يجوز طرده من وظيفته الا لانحراف خلقى مشين ٠ ولم تشأ السلطات الدينية المحافظة فى الجامعة أن تزيد من عدد أصوات المعارضين للدين من هيئة التدريس فآثرت أن تعينه محاضرا لا زميلا ٠ وقد كان لهذا التصرف فيما بعد أثره فى مقدرات حياته اذ سهل للسلطات الجامعية أمر طرده من الجامعة عندما اتخذ موقفه الداعى الى السلام فى الحرب العالمية الاولى ٠ ويقـــول رسل فى الصـــدد : « لو كنت أعتمد فى معيشتى على وظيفتى كمحاضر لتضورت جوعا» ٠ هذا نموذج للضغط الاقتصادى التى تمارسه السلطات حتى ترغم الافراد على الخضوع لها ، والنتيجة التى يخلص اليها رسل ان «غير الاثرياء لا يجسرون أن يكونوا صرحاء فيما يتعلق بعقائدهم الدينية » ٠

وليس اضطهاد الفكر الحر قاصرا على اعتناق الالحاد أو التشكك فالايمان بالشيوعية أو الحب الطليق يعرضان صاحبه لاخطار أكبر • هذا هو الحال فى الغرب • أما فى روسيا فنجد ان القوة والسلطان والرغد فى جانب الالحاد والشيوعية والحب الطليق (والنتيجة ان هناك فى روسيا مجموعة من المتعصبين تشعر باليقين المطلق فيما يتعلق بطائفة من القضايا التى تحتمل الشك فى حين ان هناك فى بقية العالم مجموعة أخرى من المتعصبين لا تقل فى يقينها فيما يتعلق بطائفة متناقضة تماما من القضايا التى تحتمل نفس القدر من الشك » وهكذا يبذر هذا الوضع بذور الشقاق والشحناء والاضطهاد بين الدول •

ويتلخص المخرج فى نظره فى أن يعتاد الناس نبذ الافكار اليقينية ، وأن يهتدوا بنور الشك الذى يطهرهم من التعصب الأعمى ، ويخلصهم من ضيق الافق الاخرق • ويدافع رسل عن تشككه لا فى الدين فحسب بل فى المسائل السياسية بقوله : « كان من عادة وليم جيمس أن يبشر بارادة الايمان « أما أنا فأرغب فى التبشير بارادة الشك » ويقول رسل ان الاسلوب العلمى يقوم على الشك ولا ينهض على اليقين بمعنى انه يدخل فى اعتباره دوما احتمالات الخطأ والصواب ولابد لنا من معالجة مشاكل الدين والسياسة والأخلاق بمنهج الشك الذى هو سمة التفكير العلمى الأصيل، واذا أمكن لنا أن نحمل الناس على اكتساب اطار فكرى متشكك لا يقطع بيقين فيما يتعلق بهذه الامور ، فلسوف تختفى تسعة أعشار الشرور من العالم الحديث • ستصبح الحرب مستحيلة لان كلا من الجانبين سيتحقق من أن الجانبين لابد وأن يكونا على خطأ • سيبطل الاضطهاد وسيهدف التعليم الى اتساع العقول لا تضييقها • وسيقع الاختيار على الناس لشغل الوظائف حسب كفاءتهم فى القيام بالعمل وليس لانهم يتبعون المسلمات اللاعقلية التى يدين بها من هم فى السلطان • وهكذا نجد ان الشك العقلى وحده ــ اذا امكن توليده ــ سيكفى لتحقيق الفردوس » •

ويضرب رسل مثلا يعتبره رائعا على صلاحية التشكك العقلى فى العالم الحديث • فعندما استحدث اينشتين النظرية النسبية التى قلبت علم الطبيعة التقليدى رأسا على عقب تقبلها العلماء عن طيب خاطر عندما توفر لديهم الدليل على صحتها • ولا يستطيع أحد أن يزعم حتى اينشتين نفسه ، ان نظريته تمثل الكلمة الأخيرة فى العلم أو الحقيقة المطلقة • فالعلم لا ينهض على المطلقات بل تتمثل روحه الحقة فى مبدأ التشكك العقلى الذى يدخل فى اعتباره دوما احتمالات الخطأ والصواب •

والآن دعنا نفترض ان اينشتين نفسه قد استحدث شيئا جديدا فى السياسة أو الدين بدلا من العلوم • فماذا يحدث ؟ ستقوم القيامة ضده وسيوصم بأبشع الاتهـــامات واذا نجح فى أن يكسب له اتباعا وانصارا يدينون بآرائه عن تعصب أعمى ، لا عن فهم حقيقى ، أو اذا نجح فى الاستيلاء على مقـاليد الحكم فى بلد متأخر ، فستندلع ألســـنة الحرب الضروس بينه وبين المناهضين له • وبدلا من أن يكون البحث عن الحقيقة رائد الجميع ، وبدلا من أن يكون استقصاء وجه الحق والبرهان هدفهم يقوم ميدان القتال بتقرير صحة المذهب الجديد أو كذبه • ويقول رسل ان هذه هى النتيجة المنطقية لدعوة وليم جيمس التى تنادى بمبدأ ارادة الايمان ويضيف الفيلسوف « ليس ما نريده هو ارادة الايمان بل الرغبة فى البحث والاكتشاف • وهذا نقيض ما يدعو اليه وليم جيمس تماما » •

ويتساءل رسل عن السر الذى يجعل الانسان يستمسك بمعتقدات لا عقلية لا ينهض الدليل على صحتها ويرده الى أسباب ثلاثة :

١ ـ التعليم

٢ ـ الدعاية

٣ ـ الضغط الاقتصادى •

ويتناول رسل الزيف فى التعليم فيقول : «خذ تدريس التاريخ على سبيل المثال ان كل أمة تهدف الى تمجيد ذاتها فحسب فى كتب التاريخ المدرسية المقررة ، وفى حداثتى كانت الكتب المدرسية تعلم ان الفرنسيين أشرار وان الالمان اخيار ـ أما الآن فهى تعلم العكس وليس هناك فى كلتا الحالتين اعتبار للحقيقة والكتب المدرسية الالمانية التى تعرض لموقعة واترلوء تصور ولنجتون على أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة لولا أن أنقذ بلوشير الموقف • أما الكتب الانجليزية فتصور ان معونته لم يكن لهـا سوى أضأل الاثر » •

ويسترسل رسل شارحا الاثر السىء الذى تتركه النظم التعليمية فى الناس وفى نفس الوقت نجد ان جهـــاز الدولة بأكمله فى سائر الدول المختلفة ، موجه الى جعل الاطفال الذين لا حول لهم ولا قوة يؤمنون بقضايا سخيفة مضحكة من شأنها أن تجعل الناس على استعداد للموت ذودا عن مصالح خسيسة شريرة ، وهم واهمون انهم يحـــاربون من أجل الحق والرشد ، ولا يعدو هذا أن يكون ســبيلا واحدا من الســبل التى يهدف

التعليم من ورائها الى توفير المعرفة الحقة بل الى جعل الناس أدوات طيعة لارادة سادتهم ·

ويبدى رسل تخوفه من خضوع كل أجهزة التعليم ، وخاصة التعليم الالزامى لسيطرة الدولة كما يبدى جزعا مماثلا من أن ينفرد بشئون التعليم أى تنظيم آخر · وهو يقول فى هذا الصدد :

« وفيما يتعلق بأمور الفكر كالتعليم مثلا ، فان هذا الوضع ينطوى على الهلاك · وهو يضع حدا لكل امكانية للتقدم ، أو الحرية ، أو المبادأة الفكرية » ·

وتنطبق هذه الادانة على الشرق والغرب على حد سواء · ويذكر رسل مثلا على سيطرة أجهزة الدولة الضارة على التعليم فى الشرق قائلا :-

« قابلت فى بتروجراد شاعرا روسيا بارزا اسمه الكساندر بلوك مات بعد مقابلتى له نتيجة الاملاق · وقد سمح له البلاشفة بتدريس علم الجمال · ولكنه كان يشكو من اصرارهم على تدريس الموضوع « من وجهة النظر الماركسية » وأصبح فى حيرة من أمره لا يعرف كيف يهتدى الى السبيل لاكتشاف الصلة التى تربط نظرية الاوزان الشعرية بالماركسية، على الرغم من انه بذل كل ما فى وسعه لاكتشافها حتى يتفادى التضور جوعا » ·

ويدفع رسل التعليم فى الدولة الحديثة لانه لايفى بالغرض المطلوب منه · فللتعليم فى نظره هدفان (أولهما) تلقين النشىء · (وثانيهما) تمرينهم على الذكاء وتدريبهم عقليا على الحكم على الاشياء حكما سليما مستقلا · والتعليم بوضعه الراهن يسعى الى تحقيق الهدف الاول، ولكنه يتعمد أن يتجاهل الهدف الثانى · والسبب فى ذلك أن مصلحة القائمين بالحكم لا تتفق مع تدريب الرجل العادى على الاستقلال فى الفكر والحكم على الاشياء ·

ثم يعرض برتراند رسل للدعاية فيقول ان الدعاية تستطيع أن تجعل الانسان يقتنع بأمور لاحد لسخافتها ·

وفن الدعاية كما يمارسه الساسة المعاصرون والحكومات الحديثة مستمد من فن الاعلان ·

وعلم النفس مدين بالفضل الكبير الى مجهودات خبراء الاعلام ويضرب رسل مثلا على مقدار اثر الدعاية السىء فى نفوس الناس فيقول

أنه اذا قدم النصح لصاحب حانوت صغير أن يقف فى وسط الشارع ويطلق النار على منافسه صاحب الحانوت الصغير المقابل لرماه الرجل بالجبل · « ولكن عندما تقول الحكومة نفس هذا الشيء بتأكيد وبمصاحبة فرقة نحاسية ، سيغمر الحماس أصحاب الحوانيت الصغيرة وستصيبهم الدهشة عندما يجدون فيما بعد أن الاضرار ستلحق بأعمالهم » ·

ويعترض رسل على الدعاية لسببين : أولهما أن الدعاية تخاطب الجانب اللاعقلى فى الانسان وثانيهما أن الدعاية تقوض مبدأ تكافؤ الفرص· ففرص الاقوياء والاثرياء تفوق فرص من هم أقل منهم قوة أو ثراء· ويرى رسل أن تكافؤ الفرص أمام الآراء ضرورى اذا كنا نريد حرية فكرية حقه ·

ثم ينتقل رسل الى الحديث عن الضغط الاقتصادى وخطره على الحريات فيقول أن التقدم الصناعى فى أمريكا ينتهى بخضوع الاوضاع الاقتصادية لسيطرة الاحتكاريات التى تستبد بحريات الأفراد بنفس الطريقة التى تستبد بها اشتراكية الدولة السوفيتية بحرياتهم ·

« يولد نمو الاحتكارات فى أمريكا كثيرا من الشرور المقترنة باشتراكية الدولة ، كما هى مطبقة فى روسيا · ومن وجهة نظر الحرية ، ليس هناك فرق بالنسبة للمرء اذا كان صاحب العمل الوحيد هو الدولة أو الاحتكارية » ·

يقول رسل أن الاخطار التى تهدد الحرية فى الوقت الحاضر أكبر منها فى أوائل القرن التاسع عشر ، مما يجعل مهمة الحفاظ على الحرية الفردية شاقة وعسيرة · وسبب هذا هو التقدم الهائل الذى اصابته البشرية فى مضمار الصناعة فى السنوات الماضية الاخيرة · ويرى رسل أن تطبيق مبدأين بسيطين سيساعد على التخلص من معظم الشرور التى نعانى منها فى الوقت الحاضر ويتلخص المبدأ الاول فى أن يتكفل التعليم بتدريب الناس على الشك الذى يمنع الانسان من الايمان بقضية لاتنهض على صحتها الدليل · ويتمثل المبدأ الثانى فى توفير فرص العمل بين الناس حسب كفاءتهم ، لا حسب معتقداتهم وآرائهم · ويعلق رسل على هذا الوضع الضار بقوله :

« ان عادة النظر الى آراء الانسان الدينية والاخلاقية والسياسية قبل تعيينه فى وظيفة أو الحاقه بعمل هى الصورة العصرية للاضطهاد ومن المحتمل أن يصبح هذا الاضطهاد على درجة من الكفاءة مثل التى كانت عليها محاكم التفتيش عليها » ·

وفى رأى برتراند رسل أن التشكك الفكرى فى السياسة الذى يجب على النظام التعليمى أن يغرسه فى عقول النشىء سيساعدهم على التخلص من التعصب وضيق الافق وذلك بتفهم وجهتى النظر فى أية مسألة تعرض لهم كما سيساعدهم على استجلاء الحقيقة بأنفسهم، ويمنحهم القدرة على الحكم المتزن والاستقلال الفكرى » وسيوفر لدى النشىء حصانة فى حياتهم المستقبلة تعطيهم مناعة ضد الانخداع بالمناشدات المثالية البراقة التى يستغلها الاوغاد والسفلة من الناس للتأثير على الطيبين والاخيار منهم ، واغرائهم على الاتيان بافعال من شأنها أن تمكن الاوغاد والسفلة من قضاء مآربهم وتحقيق أطماعهم .

والسبيل الى صيانة مبدأى التشكك الفكرى والسياسى وتعيين الناس فى الوظائف بحسب كفاءتهم هو خلق رأى عام واع مستنير ولا يتفق رسل مع الاشتراكيين الذين يعتقدون بأن اجراء التغييرات الاقتصادية اللازمة كفيل وحده بأن يصلح من شأن هذه المفاسد الاجتماعية فطبيعة التطور الصناعى تعقد مشكلة الحفاظ على الحريات « فأنا اعتقد أنه مهما حدث فى السياسة من تغيير فان اتجاه التطور الاقتصادى سيجعل الاحتفاظ بالحرية الفكرية أمرا يتزايد فى عسره وصعوبته » .

وباختصار يعتقد رسل أن الحرية لن تتوفر فى المجتمعات الحديثة الا بتحديد وظيفة الدولة وقصر مهمتها على الاشراف والتوجيه والتفتيش فى شئون التنظيمات المختلفة حتى تتأكد انها تؤدى خدماتها فى غير اهمال وبشكل لا يضر بالمصلحة العامة وينبغى القضاء على الدعاية الرسمية لانها تنفث السموم والمغالطات باسم الترياق والحق ، ولانها تدمر مبدأ تكافؤ الفرص بين الافكار المختلفة ، كما ينبغى تأمين الناس اقتصاديا فالضغط الاقتصادى يشكل خطرا داهما يتهدد كيان الفكر الحر .

(٢) الحرية فى المجتمع

يبدأ رسل مقاله هذا بالتساؤل : « الى أى حد يمكن للحرية أن تتوفر ؟ والى أى مدى تكون الحرية أمرا مرغوبا فيه بين البشر الذين يعيشون فى مجتمعات ؟

يرى رسل أن كلمة (الحرية) غير محددة المعالم وغير واضحة المفهوم ، وانها أشد غموضا من كلمة (المجتمع) . ويدعوه هذا الى محاولة

تعريف كلمة الحرية والوصول الى تحديد لمفهومها يمكن الاتفاق عليه ، قبل أن يبدأ بالاجابة على هذين السؤالين السابقين ٠

يبدأ رسل محاولة التعريف برفضه مفهوم هيجل الهيجليين للحرية باعتبار أنه تعريف مبهم غامض لا يلقى ضوءا على حقيقة ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان ٠ فهيجل واتباعه يعتقدون أن الحرية الحقة (تتلخص فى الحق فى اطاعة البوليس الذى يسمى فى العادة « بالقانون الاخلاقى » ويستتبع هذا التعريف أن الذين يدينون بهذا الرأى يعتقدون أن الدولة بالضرورة منزهة طهور لا ترتكب خطأ أو اثما ٠ ويعترض رسل على هذا المفهوم المثالى للحرية بقوله أن الدول الديمقراطية التى تتصارع فيها الاحزاب تكذب صحة هذا المفهوم الهيجلى للحرية والدولة ٠ فحزب المعارضة فى الدولة الديموقراطية الذى يكاد يبلغ نصف عدد الامة فى بعض الاحيان ينظر الى الحكومة القائمة على أنها شريرة وفاسدة الى أقصى الحدود ٠

يقول رسل أن (الحرية) فى معناها النظرى المجرد تعنى اختفاء العوائق الخارجية التى تعترض تحقيق الرغبات واذا فهمنا الحرية بهذا المعنى نجد أنها قد تتوافر اما عن طريق زيادة سلطان الافراد وقوتهم الى أقصى حد ، واما تقليل رغباتهم الى أدنى حد ٠ ويوضح رسل فكرته هذه بقوله أن روسيا ارستقراطيا انضم الى الثورة الشيوعية وأصبح كوميسارا فى الجيش الاحمر شرح له كيف يختلف الشعب الانجليزى عن الشعب الروسى ٠ فالانجليز لايحتاجون الى قيود مادية يخضعون لها ، لانهم يخضعون بطبيعتهم لقيود فكرية فأرواحهم ترسف أبدا فى هذه القيود التى تفرضها طبيعة عقلياتهم عليهم ٠ ويذكر رسل أنه من الجائز أن يكون هناك شىء من الصدق فى هذا الرأى فشخصيات دستيوفسكى مثلا لاتشبه الروس الحقيقين فى واقع الامر ولكن لم يكن فى مقدور أى انسان غير روسى أن يرسمها ٠ وتنتاب هذه الشخصيات عواطف متأجحة هوجاء ٠ وتستبد بهم مشاعر عنيفة مضطربة يخلو منها الرجل الانجليزى العادى فى حياته على أقل تقدير ٠ ومن الواضح أن مجتمعا تحكمه العواطف الهوجاء المشبوبة ويتربص فيه كل فرد للاجهاز على كل فرد ، لا يتمتع بقسط من الحرية كالذى يتمتع به مجتمع تسوده الامان والمسالمة ٠ ومن ثم يتضح لنا أن اجراء التغيير فى الرغبات الانسانية والتقليل من بعضها يتضمن كسبا من أجل الحرية يوازى فى أهميته الكسب الذى تنطوى عليه الزيادة فى قوة الافراد وحدة رغباتهم ٠

ويقول رسل أننـا لا نستطيع أن نعرض للحرية دون أن ندخل فى اعتبارنا امكانية الرغبات القابلة للتغيير حسب البيئة المتغيرة • فالطبيعة البشرية تؤثر فى الطبيعـة الخارجية وتتأثر بها ، كمـا أنهـا تتأقلم معها أحيانا وفى بعض الحالات ، يجعل هذا الحصول على الحرية أمرا أكثر عسرا على الانسان لان البيئـة الجديدة التى تقتصر على ارضاء الرغبات القديمة قد تولد رغبـات جديدة لا تسـتطيع أن تقوم بارضائهـا • وتتمثل هذه الامكانيات فى الآثار النفسـية الجديدة الناجمة عن التصـنيع الذى يولد حشدا من الحاجات الجديدة » • فالانسان العصرى على سبيل المثال قد يستبد به السخط لانه لا يملك ثمن شراء سيارة أو غيرها من الاشياء •

ومهمـا اختلفت الرغبـات والنوازع بين البشر فهنـاك قائمـة بالاحتياجات الاساسية التى تكون حدا أدنى يكاد لا يستطيع كل البشر الاستغناء عنه • وتشمل أهم قائمة الاحتياجات الاساسية العامة : المأكل، والشراب ، والصحة والملبس ، والسكن ، والجنس ، والامومة والابوة • ولا يمكن فى واقع الامر اعتبـار المرء حرا اذا كان يفتقر الى أى من هـذه الاشياء التى تشكل كما ذكرنا الحد الادنى للمطالب والحاجات الانسانية •

وينقلنا الكلام من مطالب الحياة الاساسية الى الحديث عن المجتمع • ويمكن تعريف المجتمع بأنه جمـاعة من الناس تتفق فيمـا بينها من أجل أغراض مشتركة معينة • ومن الواضح أن الحد الادنى من الحرية السابق ذكره يمكن تحقيقـه عن طريق المجتمع بصورة أفضل ممـا لو تحقق عن طريق العمل الفردى ، لأن المجتمع يوفر لدى الافراد فرصا أكبر لا رضاء احتياجاتهم الأساسية • وبهذا المعنى يمكن اعتباره عاملا يزيد من قسـط الحرية التى يتمتع بها الافراد •

ومن الواضح بطبيعة الحـال أن العوائق التى تعترض طريق حرية الانسان نوعان :

« نوع يتصل ببيئته الطبيعية ، ونوع آخر اجتماعى • واذا أخذنا أكثر الامثـلة سذاجة وبدائية نقول ان الارض قد لا تخـرج طعاما يكفى لاقامة أود الانسان أو أن بعض النـاس الآخرين قد يمنعونه من الحصول على الطعام • والمجتمـع يقلل من العوائق الطبيعيـة التى تعترض الحرية ولكنه يخلق عقبات اجتماعية » •

وهناك فرق فى هذا الصدد بين الانسان من ناحية، والنمل والنحل من ناحية أخرى ، فالنمل والنحل يتماز بتنظيماته الاجتماعية الرائعة •

ولكن التنظيم الاجتماعى الصادر عن احساس النمل والنحل الغريزى العميق بواجباته الاجتماعية ، يتم تلقائيا • وهذه التلقائية فى القيام بالواجبات الاجتماعية موجودة عند بعض المجتمعات البدائية » ويستطيع الناس المكونون على هذا الغرار أن يتعاونوا فيما بينهم دون فقدان حريتهم، وهم لا يشعرون الا بحاجة ضئيلة الى القانون ومن الغرابة بمكان أن الانسان المتمدن رغم مالديه من تنظيم اجتماعى يفوق فى تعقيده أى تنظيم عند الانسان المتوحش ، يبدو أقل منه اجتماعية فى غرائزه » •

ولكن رسل يضيف قائلا : انه لا يريد بطبيعة الحال أن ينكر أن للتعاون الاجتماعى أساسا غريزيا حتى فى أكثر المجتمعات تمدنا ويبدو له أن عوامل التعاون الاجتماعى تقل فى قوتها كلما درج الناس فى سلم المدنية • ويقول رسل : ان بواعث التعاون الاجتماعى بدأت تغاير ما كانت عليه فى الماضى فقد شرع التعاون الاجتماعى فى الاعتماد على الادراك العقلى للفوائد التى تجنى منه أكثر من اعتماده على الفطرة وغريزة القطيع • ومشكلة الحرية كما يبين رسل لا تنشأ بين المتوحشين اذ أنهم لا يشعرون بالحاجة الى الخوض فى نقاش هذا الموضوع ولكنها تنشأ فى المجتمعات الانسانية كلما ارتفعت درجة تمدنها وفى نفس الوقت نلاحظ أن الدور الذى تلعبه الحكومة فى تنظيم حياة الناس تزداد أهميته بمضى الزمن « لأنه يتضح بصورة أكبر أن الحكومة تستطيع أن تساعدنا على التحرر من العقبات الطبيعية التى تعترض طريق الحرية » •

« ومن الواضح بطبيعة الحال أنه لا يمكن زيادة الحرية بمجرد الاقلال من الحكم • فرغبات الانسان فى الغالب لا تتمشى مع رغبات الناس الآخرين ، حتى ان الفوضى تعنى الحرية للأقوياء ، والعبودية للضعفاء • بدون حكومة ، فان الجنس البشرى على سطح الكرة الارضية سيصل بالكاد الى عشر ما هو عليه الآن ، وسينخفض عدده بسبب التضور جوعا وارتفاع نسبة الوفيات للاطفال • وسيعنى هذا استبدال عبودية طبيعية أشد قسوة من أسوأ عبودية اجتماعية عرفتها المجتمعات المتقدمة فى الاوقات العادية • والمشكلة التى تعرض لنا كى نفكر فيها الآن ليست فى كيفية الاستغناء عن الحكومة ، ولكن فى كيفية الحصول على فوائدها مقابل أدنى حد ينبغى علينا أن نكون على استعداد لأن نتحمل ضغطا حكوميا أكبر حتى ننعم بقدر أوفر من الطعام والصحة » •

وينتهى هذا السؤال برسل الى الموازنة بين الذين ينبغى أن يتوافر لديهم الطعام والصحة ، وبمعنى آخر الى الموازنة بين النظامين الرأسمالى

والاشتراكى . لقد كان المدافعون عن النظام الرأسمالى الليبرالىيتشدقون بتمجيد الحرية وتقديسها ، ولكن الحرية فى مفهوم الرأسمالية كانت تعنى على حد قول رسل الا تفرض القيود على المحظوظين عند ممارستهم الجور والاستبداد ضد ضحاياهم من غير المحظوظين . ويدين رسل الفكر الرأسمالى الليبرالى ويدفعه بقوله : كانت الليبرالية تعتبر أنه يليق بصاحب العمل أن يقول للعامل ستموت جوعا ، ولكن من غير اللائق أن يرد عليه العامل بقوله : ستموت قبلى برصاصة » .

ومعنى هذا أن الليبرالية التى كانت تتشدق بالحرية كانت تسخر القانون لاخضاع العمال والمحكومين لسطوتها ، وللقضاء على الاتجاهات النقابية كلما وجدت الى ذلك سبيلا . ولم يكن الظلم الليبرالى قاصرا على المجال الاقتصادى بل تعداه الى حرية الأزواج فى الاستبداد بزوجاتهم ، وحرية الآباء فى البطش بأبنائهم .

هذه نقطة هامة يجدر بنا أن نلتفت اليها . لقد كان رسل يعطف على اليبرالية على المستوى الفكرى الذى يقترن بحرية الفكر وانطلاقه أما الليبرالية الرأسمالية بمدلولها الاقتصادى والسياسى والاجتماعى فلا تحظى منه بغير البغضاء والكراهية .ولا غرو فى ذلك فقد كانت اليبرالية فى القرن التاسع عشر تبشر بمبدأ « دعه يعمل » ، « دعه يمر » ولكنها كانت تستخدم هذين المبدأين لتوكيد حريتها فى تجويع الطبقة العاملة واستغلالها. واذا كان رسل ليبراليا علىالمستوى الفكرى من حيث ايمانه الراسخ بحرية الفكر والرأى وحرية الفرد . فهو قبل كل شيء وفوق كل شيء اشتراكى على المستوى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى .

ورسل الاشتراكى يرى أن توفير الطعام والشراب والصحة والسكن والملبس والامومة والابوة شروط أساسية لقيام الحرية . فهذه الاشياء تمثل الحد الادنى الذى لا يمكن لاركان الحرية أن تتوافر بدونه ، وهى ضرورية بيولوجية يحتمها استمرار الحياة . ورسل يعتبر أن حرمان انسان من الكماليات حتىتتوافر هذه الضروريات لانسان آخر منالمسلمات التى لها ما يبررها . وهو لا يوافق على اعتبار هذا الحرمان عاملا ينتقص من حرية الافراد : « لأن حرمان انسان من الضروريات يمثل تدخلا أعظم فى الحريات من منعه من تكديس أسباب الترف والكماليات » .

ويوضح رسل رأيه فى العلاقة بين الفرد والمجتمع حين يقول :

« وفى حين أعترف بحق المجتمع المجزد فى التدخل فى شئون أعضائة

من أجل ضمان الضرورات البيولوجية للجميع ،الا أننى أستطيع الاقرار بحقه في التدخل فى الأمور التى لا يكون فيها امتلاك انسان لشيء على حساب انسان آخر • وتحضرني وأنا اقول هذا اشياء مثل الرأى والمعرفة والفن • وليس معنى أن أغلبية المجتمع تكره رأيا أنه يحق لها التدخل فى حريات الذين يعتنقونه وليس معنى أن أغلبية المجتمع لا ترغب فى معرفة حقائق معينة ، أنه يحق لها أن تزج فى السجن بمن يرغبون فى معرفتها » •

ويعرض رسل لعلل المجتمع الذى يناصب العداء من يحاول ابراءه منها ، فيقول ان كل انسان له خبرة بالتحليل النفسى يعلم أنه فى كثير من الحالات يمكن شفاء المرضى عن طريق توعيتهم ببواعثهم ورغباتهم المكبوتة ، واخراجها من أعماقهم الى السطح بحيث يلتفت المرضى النفسانيون اليها ، والمجتمع يشبه هؤلاء المرضى فى بعض النواحى • ولكن بدلا من أن يسمح لنفسه بالشفاء ، يقوم بحبس الاطباء الذين يلفتون نظره الى حقائق كريهة على نفسه » •

ثم ينتقل رسل الى الاعتبارات السيكلوجية التى تكمن وراء مشكلة الحريات فيقول ــ كما ذكرنا من قبل ــ ان هناك عائقين يعترضان سبيل الحرية أحدهما يتعلق ببيئة الانسان الطبيعية والآخر عائق اجتماعى ، ويرى رسل أن العائق الاجتماعى أشد ضررا على الانسان من العائق الطبيعى ، لأن العائق الاجتماعى أمام الحرية يخلف فى النفس شعورا بالسخط • ويضرب مثلا ليوضح به ما يرمى اليه • اذا أراد الطفل أن يتسلق شجرة ونهرناه ، سبب له التدخل فى حريته شعورا بالسخط أما اذا اتضح أنه لا يمكنه أن يتسلق الشجرة لظروف طبيعية ، كان أسهل عليه أن يخضع لهذه الظروف دون أن يداخله الاحساس بالسخط الذى يكابده فى الحالة الاولى • وهناك شعور متزايد فى العالم جاء فى أعقاب الثورة الصناعية بقدرة الانسان على كل شيء• والاشتراكية صورة من هذا الايمان ، فنحن لا نعتبر الفقر مرسلا من لدن الله ولكننا نعتبره نتيجة حماقة الانسان وقسوته • ويقول رسل : ان المرء يبالغ فى بعض الاحيان فى الايمان بقدرة الانسان على كل شيء ،ولكن هذا الاحساس العام من جانب الناس بأن الشرور التى تحدث ترجع الى أسباب انسانية ، وليس لأسباب طبيعية أو الهية ، يزيد من سخطهم كلما رأوا أن أحوالهم تسوء ويجعل هذا من الصعب حكم المجتمعات الحديثة عن ذى قبل • كما أنه يفسر الظاهرة التى تتمثل فى جنوح الطبقات الحاكمة الى التدين بشكل

غير عادى لانهم يرغبون في رد المصائب التى تلحق بضحاياهم الى ارادة الله ويجعل هذا التدخل فى الحد الادنى للحرية أصعب فى تبريره من الازمنة السالفه لأنه لايمكن تسويته بين التدخل بدون ترمى » ســبيل الى تغييره » ٠

ومما يساعد على تفاقم سخط الناس على التدخل الاجتماعى أن الناس ليسوا على درجة من الغيرية والايثار بحيث يرغبون فى تحقيق السعادة والرفاهية للآخرين ٠ أضف الى ذلك أنهم لا يعنون بالوقوف على احتياجات الآخرين أو العناصر المكونة لسعادتهم ورفاهيتهم وسواء كان الحد الأدنى الذى يلحقه النــاس بالنــاس ناجما عن الجهل أو عن شر متأصــل فيهم فالنتيجة واحدة٠ ولذلك يجوز لنا أن نأخذ الإعتبارين مجتمعين٠ ويترتب على هذا أنه يكاد يكون من المتعذر أن نثق بانســان معين أو طبقة لرعاية مصالح انسان آخر او طبقة أخرى والديمقراطيــــة تبين وجهة نظرها فى هذه النقطة ٠ ولكن عيب الديموقراطية فى الدول الحديثة أن الحكومة تصبح أشد ما تكون بعدا عن المحكومين٠ فهى تصل اليهم عن طريق طبقة الموظفين والبيروقراطية التى تبتعــد عن الواقع ولا تحس به من ناحية ، والتى لا يهمهــا غير العمل على تركيز السلطة فى يدها من ناحية أخرى ٠ والسلطان فى النظام الديمقراطى من نصيب رجالات المال أبدا وليس من نصيب الخبراء الذين يفهمون حقيقــة المشاكل وابعاد الواقع ٠ وعليه فان أصحاب الســلطان بوجه عام جهــلة أو أشرار ، وكلما قلت السلطة التى يمارسونها كلما كان ذلك أفضل » ٠

ومن الخطأ أن تعتقد أن رسل يهــاجم النظام ويدافع عن اللانظام ٠ ولكنه يريد أن يخضع الحياة الانسانية لاقل قدر ممكن من الضغط الخارجى الذى تحتمه طبيعة الاشياء فالنظام ضرورة : «يجب على الاطفال أن يخضعوا للسلطة وهم أنفســهم يدركون ضرورة هــذا الخضوع رغم أنهــم يحبون التظاهر بالتمرد فى بعض الاحيان » وعندما يحس الطفل أن الســـلطة فى يد انسان يحبه ويعطف عليه ، نجده يتقبلها عن طيب خاطر ٠ ولكن السلطات التعليمية التى تشرف على تدريس الاطفال وتوجههم لا تبدى أية دلائل عطف وحب نحو الاطفال ٠ فهى فى واقع الامر تضحى بالاطفال فى سبيل ما تعتبره مصلحة الدولة وذلك بتلقينهم « الوطنية » أى الاستعداد لأن يقتلوا لاسباب تافهة » ويخلص رســل الى القول أن السلطة لا تكون كبيرة الضرر اذا كانت تشــمل من تحــكم بالحب والعطف ، وتعمــل على مصلحته ٠والارغام الخارجى فى أفضل صوره يتخلى حين يوافق الشخص

المرغم من الناحية الادبيـة على الارغام الذى يخضـع له . أما الارغام فى أبشع صوره فيكون عندما يعتقد الضحية اعتقادا راسخا بأنه ينطـوى على شر واضرار بمصلحته .

وفى نظر رسل أن أهم خلاف فى مسـألة الحرية هذه ، هو الخلاف بين الاطاييب التى يتمتع بهـا انسان على حساب انسان آخر ، وبين تلك الاطاييب التى نرى فيهـا أن كسب انسان لا ينطوى على خسارة يتكبدها انسان آخر . « فاذا التهمت أكثر من نصيبى العادل من العام فمعنى هذا أن يكابد الجوع انســان آخـر . ولـكننى اذا استوعبت قـدرا كبيرا من الرياضيات أكثر من المعتـاد فانى لا ألحق الضرر بأحـد مادمت لا احتكر سأثر الفرص التعليمة » فالانتهـــال من مصـــادر الفكر والعلم والفن والثقافة لا يلحق الاذى بمصلحة أحد . وكما يقول رسل : « فيما ينعلق بالرأى والفكر والفن الخ .. فان ما يصيبه انسان من أى من هذه الاشياء لا يكون على حساب أحد » . والتناقض الحر فيما يختص بشئون الفكر هو السبيل الاوحد للوصول الى الحقيقة . فالشعارات اللبرالية القديمة كانت تطبق فى المجال الخاطىء الا وهو مجال الاقتصاد ، والفكر هو مجال تطبيقه الحق . « ونحن نبغى تنافسا حرا فى الافكار لا فى الاعمال التجارية» « وهناك اكبر الخطر فى ان يصبح كل تقـــدم فكرى واخلاقى مستحيلا بسبب الاضهاد الاقتصادى سواء كان هذا تحت نظام فى قبضة الاثرياء أو فى ظل نظام اشتراكى ويجب احترام حرية الفرد بحيث لا تلحق افعاله الاذى بالآخرين بشكل واضح أكيد » .

وأخيرا يختتم رسل مقاله باســتنكار الاستعمار بوصفه عائقا فى طريق الحرية ، فيقول والمجتمع الذى يحتـوى على بشر ونمرة لا يمكن أن يتمتع بقدر كبير من الحرية اذ ان الامر سينتهى حتما اما بسعادة النمرة أو البشر ، ولذلك لا يمكن ان تقوم أية حرية فى اجزاء العالم التى يسيطر فيها الرجل الأبيض على السكان الملونين » .

٣ ـ الحرية مقابل السلطة فى التعليم

يخطىء من يظن ان برتراند رسل من انصـــار الحرية المطلقة التى لا تخضع لأية قيود سواء فى مجال التعليم او اية مجالات اخرى . ففى نظره انه لا يمكن السماح لممارسة بعض الحريات بأى حال من الأحوال . ويروى رسل انه قابل سيدة تؤيد الحرية المطلقة بين الاطفال وترى انه

لا يجب منع الاطفال من القيـــام بعمل اى شيء يحلو لهم لانه ينبغى على الطفل ان ينمى ويطور طبيعته من الداخل . وسألها رسل : ما عسى ان يكون الحال لو ان طبيعته قادته الى ابتلاع الدبابيس ؟ فلم يظفـر باجابة مقنعة : ويضيف رسل قوله ان الطفل اذا ترك وشأنه فانه سينتهى حتما بالحاق الضرر بنفسه .

« ولذلك فان الشخص الذى يدافع عن الحرية فى التعليم لا يمكنه ان يعنى ان يفعل الاطفال ما يحلو لهم تماما طيلة اليوم . اذا يجب ان يتوافر عنصر النظام والسلطة والمشكلة هى مدى هذا النظام وحدود هذه السلطة والطريقة التى يجب ان يمارسا بها » .

ويقول رسل انه يمكن النظر الى التعليم من زوايا متعددة فيمكن النظر الى التعليم من زاوية الدولة او الكنيسة او العلم او الاباء او من زاوية الطفل نفسه التى غالبا ما تغفل .

يبدأ رسل بالتعليم من وجهة نظر الدولة مستعرضا اهتمام الدولة بشئون التعليم . لم تكن الدولة تحفل بأمور التعليم فى الازمنة القديمة او فى العصور الوسطى . وحتى عصر النهضة كانت الكنيسة تولى التعليم رعايتها . وبقدوم عصر النهضة ، بدأ اهتمام الدولة به . وكان الدافع الى ذلك رغبة البروستانتية فى اضعاف أثر الكاثوليكية ونفوذها . فقـــد اقترنت حركة الاصـــلاح فى انجلترا والمانيا ، بالرغبة فى السـيطرة على الجامعات والمدارس حتى يمنعها من ان تكون معاقل للبابوية . ولكن ظاهرة الاهتمام الحق من جانب الدولة بشئون التعليم لم تبدأ الا فى الازمنـــة الحديثة جدا ، عندما خرجت الى الوجود حركة حديثة للغاية تنادى بضرورة تعميم التعليم الالزامى .

وتدخلت عوامل كثيرة لتشجيع التعليم الالزامى عن طريق الدولة. ومنها ان المعارضين للنفوذ الكنسى كانوا يجدون فى تولى الدولة شـــئون التعليم الفرصة المواتية لمحاربة الكنيسة واثرها . كما كان دعاة القوميـــة بعد الحرب الفرنسية ــ البروسية يعتقدون ان التعليم العام للدولة سيزيد من الشعور القومى حدة وقوة وتأججا . ولكن الدافع الاساسى فى تشجيع التعليم العام للدولة كان على كل حال الاحساس بان الامية شيء مشـــين لا يتفق مع طبيعة الدولة المتمدنة .

وعندما رسخت جذور التنظيم التعليمى فى تربة الدولة بات من الواضح لها انه سلاح رهيب يمكنها الافادة منه لقضاء مآربها . والساسة

فى البلاد الديموقراطية يستغلون الديموقراطية كوسيلة للحكم من أجل خدمة اغراضهم وبها يمكن للحاكمين ان يحملوا الناس على فعل ما يريدونه منهم ، وهم ابدا مخدوعون يصور لهم الوهم أنهم يفعلون ما يحلو لهم ٠

« وعلى هذا الاساس ، نجد ان تعليم الدولة قد اكتسب تحيزا معينا فهو يعلم الصغار (كلما استطاع الى هذا سبيلا) تبجيل الانظمة القائمة وتجنب توجيه كل نقد جوهرى الى السلطات القائمة التى بيدها مقاليد الامور ، كما يعلمهم النظر الى الامم الاجنبية بعين الريبة والاحتقار ٠ وهو يزيد من التناحر القومى على حساب المبدأ الدولى ومذهب العالمية وعلى حساب التطور الفردى ٠ والاذى الذى يلحق بالتطور الفردى ينجم عن الافراط فى تأكيد السلطة وتشجيع الدولة للمشاعر الجماعية اكثر من تشجيعها للمشاعر الفردية ، كما انهـــا تضطهد الخروج على المعتقدات السائدة فى قسوة وهى ترغب فى التشابه فى الفكر والتطابق فى السلوك لان هذا وضع مريح بالنسبة لرجال الادارة والحـــكم حتى اذا كان هذا التشابه فى الفكر والســـلوك لا يتحقق الا عن طريق الميراث الفكرى ٠ والشرور الناجمة عن تعليم الدولة كثيرة لدرجة انه يحق للمرء ان يتساءل فى جدية اذا كان التعليم العام حتى يومنا الراهن اذ وضع فى الميزان ــ قد طرح ثمار طيبة أم الحق الاضرار » ٠

وليس هناك خلاف كبير بين نظرة الدولة والكنيسة الى التعليم ٠ وبرغم هذا فهنـــاك فرق هام يجب ان نتنبــه اليه صـــحيح ان الدولة والكنيسة يرغبان فى غرس معتقدات من المحتمل ان تتبدد امام البحث الحر ٠ ولكنه يسهل غرس عقيدة الدولة فى قطاع من النـــاس يستطيع قراءة الصحف فى حين يسهل على الكنيسة غرس عقيدتها بين اناس أميين تماما » ٠

ويتهم رسل الكنيسة بتشجيع الناس على الكسل الفكرى ٠ فحين تضطر الكنيسة الى امداد النشء بالمعلومات ، فانها تعمد الى اغفال تنشيط اذهانهم ٠

ويتعرض رسل لدور المعلم فى التنظيم التعليمى فيؤكد أهميته قائلا انه يكاد يكون اهم عامل على الاطلاق ولكن الكثير من الشوائب تشوب وظيفته فى الدولة الحديثة ، وتمنعه من اداء وظيفته على الوجه الاكمل ٠ وبعض هذه الشوائب خارج عن ارادته ولكنه مسئول عن بعضها الآخر ٠ فالدولة أو الهيئة التعليمية التى تلحقه بوظيفة فيهـا ، تتوقع منه تلقين

النشء نوعا معينا من التعليم والمعرفة • ويضطر المعلم أمام الضغط الاقتصادى ان يستجيب لرغبات الدولة أو غيرها من الهيئات وان ينفذ التعليمات الموجهة اليه والا عرض نفسه للطرد والتشريد • وبهذا يفقد المعلم عنصرا أساسيا فى العملية التربوية هو الاحتفاظ باستقلاله الفكرى• وهناك اخطار مرجعها الى المعلم نفسه ، وان كان لا يشعر بها • منها ان وظيفته كمرب مقترنة بالنظام والسلطة ، والعملية التربوية لا يمكن ان تتم فى جو لا يستتب فيه نوع من النظام • وقد يغرى هذا الوضع المعلم بممارسة سلطته ، وفرض العقوبة والنظام على كل من تسول لهم أنفسهم من التلاميذ اظهار الضيق أو البرم بالدرس فهذا أسهل من أن يجعل درسه أكثر تشويقا • والخطر الآخر يرجع الى احساس المعلم بأهميته والمبالغة فى هذا الاحساس مما يصور له ان الهدف من التعليم ينحصر فى صياغة عقول النشء وتشكيلها فى الصورة التى يفضلها • وثمة خطر ثالث • فالمعلم يريد أن تظهر مدرسته بمظهر مشرف أمام العالم الخارجى • ويضطره هذا الى تركيز اهتمامه بفئة قليلة ممتازة • والتضحية بالغالبية العظمى من الأطفال المتوسطين • ولكن رسل يرى « أنه من الخير ان يؤدى طفل بنفسه لعبة رياضية بطريقة رديئة من أن يتفرج على آخرين يؤدونها فى براعة واتقان » ويتناول رسل التعليم من وجهه نظر الآباء فيقول ان وجهة نظرهم تختلف باختلاف وضعهم الاقتصادى • فالأب الانجليزى العامل الذى يكدح فى سبيل الرزق يرغب فى التخلص من مضايقات أولاده فى البيت بأسرع ما يمكن بارسالهم الى المدرسة فى مرحلة مبكرة كما يرغب فى اخراجهم من المدرسة فى مرحلة مبكرة أيضا حتى يمكنه الاستفادة منهم اقتصاديا • أما طبقة أصحاب المهن فترغب فى أن يستمر أبناؤها بالتمتع بالمزايا الاقتصادية والاجتماعية النسبية التى تتمتع بها نظرا للتفوق التعليمى الذى أصابته • وهذه الطبقة لا تحب بحال من الاحوال افساح مجال العليم أمام الطبقة العاملة لأن فى هذا تهديدا مباشرا لمصالحها ، وهكذا نرى أن صاحب المهنة يريد أن يحرم السواد الأعظم من السكان من الاطاييب التى يرغب فيها من أجل ابنائه ، الا اذا كان مدفوعا بروح الخدمة العامة بشكل غير عادى •

ومما أسلفنا ذكره ، يخلص رسل الى ما يراه من ان الدولة أو الكنيسة أو المعلم أو الاب لا يمكن الاتكال عليهم فى تربية النشء تربية صحيحة •

« فالدولة تريد من الطفل ان يخدم اغراضها فى التوسع القومى ،

وان يؤازر نظام الحكم القائم والكنيسة تريد من الطفل ان يزيد من قوة الاكليروس وسلطانه • وغالبا ما ينظر المعلم فى عالم يحكمه التنافس الى مدرسته بنفس نظرة الدولة الى الأمة ، ويريد من الطفل ان يمجد مدرسته كما ان الاب يريد منه ان يمجد العائلة • اما الطفل نفسه ، كغاية فى حد ذاته وكانسان منفصل له كيانه القائم بذاته يحق له المطالبة بما يمكنه ان يجنيه من سعادة وخير فلا يدخل فى اعتبار هذه الاغراض الخارجية المختلفة الا بقدر ضئيل » •

ولكن هذا لا يعنى الا يخضع الصبية للسلطة والنظم التعليمية • ولكن « يجب ان نهدف الى الخضوع لاقل قدر ممكن من السلطة ، وان نحاول ايجاد وسائل يمكن عن طريقها استغلال الرغبات والنوازع الطبيعية عند الصغار فى مجال التعليم •

ومصداقا لوجهة نظره يروى رسل انه اضـــطر فى طفولته لتعلم اللاتينية والاغريقية ولكنه اظهر بغضه لهاتين اللغتين فقد كان فى رأيه حينذاك ان تعلم لغة ماتت واندثرت ضرب من السخف والحماقة •ويستطرد رسل قائلا انه كان فى امكانه تحصيل القدر الضـــئيل من الدراسات الكلاسيكية التى استنزفت من عمره السنوات الطوال الاولى فى مدى وجيز لا يتجاوز شهرا لو أنه توفر على دراساتها فى مرحلة متقدمة من عمره •

وللحرية فى التعليم فى نظر رسل عدة نواح • فهناك حرية الانسان فى ان يتعلم او يمتنع عن التعليم وحريته فى اختيار ما يتعلمه كما ان هناك فيما بعد حريته فى ان يعتنق ما شاء من آراء • ويحبذ رسل فرض بعض القيود على المراحل الاولى من عمر الانسان فيجب ان يضطر كل طفل لتعلم القراءة والكتابة مادام غير مصاب بعاهة • ويرى ان النظام التعليمى يجب تنظيمه بحيث يساعد على اكتشاف اتجاهاته وميوله فى الثانية عشرة من عمره ، وبحيث يبدأ فى التخصص العريض الواسع فى سن مبكرة تناهز الرابعة عشرة • ونقطة جدله المدافعة عن التخصص العريض المبكر ان تقدم المعرفة الهائل لا يسمح بدراسة كل شيء كما كان متبعا فى الماضى واذا كان رسل يرحب بفرض بعض القيود فى المرحلتين الاولى والثانية من حيـــاة الانسان • فهو لا يقبل بحال من الاحوال ان تفرض اية قيود على المرحلة الثالثة من حياته • وهى مرحلة النضج وممارسة حرية الرأى •

واهم سبب يستند اليه رسل فى الدفاع عن ضرورة حرية الرأى هو موقفه المتشكك من المعرفة الانسانية فكل الآراء والمعتقدات الانسانية تحتمل الخطأ والصواب • ولو كانت هذه المعتقدات تحمـــل فى طياتهـــا

الحقيقة التى لا يرقى اليها الشك لما كان هناك ما يدعو لاستخدام القانون على الاطلاق لحمل الناس على الاستمساك بهـا ، ولكانت معقوليتها وحدها كفيلة باقناع المرء بصحتهـا ، فليس من الضرورى استصدار قانون ينص على حرمان اى شخص يعتنق آراء مهرطقة بشأن جدول الضرب من مباشرة تدريس الحساب ، لان الحقيقة هنا جلية ، ولا تحتاج الى سند من العقوبات لوضعها موضع التنفيذ . « وعندما تتدخل الدولة للتأكد من تعليم مذهب فالذى يدفعها الى التدخل عدم توافر دليل اكيد ينهض على صحة هـذا المذهب »

ويعدد رسل الآثار السيئة الناجمة عن عدم توافر حرية الرأى فيقول انه يترتب على الايمان بعقيدة واحدة أصيلة لا تقبل النقاش ـ سواء كانت هذه العقيدة سياسية ام دينية أو اخلاقية ـ اضرار جسيمة . ويوضح لنا فكرته بثلاثة أمثلة (أولا) من الناحية السياسية نجد ان مدرس الاقتصاد فى امريكا لابد له ان يعلم مبادىء اقتصادية من شأنها ان تزيد من ثراء الاغنياء ، والا كان الاجدر به ان يبحث عن مكان آخر . ويضرب رسل مثلا على صحة ما يذهب اليه ما حدث لهارولد لاسكى (وهو من خيرة اسـاتذة الاقتصاد) الذى كان يباشر تدريس الاقتصاد فى جامعة هارفارد بأمريكا وبسبب مبادئه اضطر لاسكى الى هجران وظيفته فى هارفارد ليبـاشر التدريس فى مدرسة الاقتصاد فى لندن (ثانيا) من ناحيـة العقيدة الدينية نجد أن الغالبية العظمى من المفكرين البارزين يرفضون المسيحية ولكنهم يكتمون رأيهم خشية أن تنقطع عنهم مواردهم ودخولهم (ثالثا) من الناحية الأخلاقية نحن نعلم أن كل انسان على وجه التقريب يعيش فى مرحلة من حياته عيشة غير طاهرة . ومن الواضح أن الذين يخفون هذه الحقيقة عن أعين الناس يضيفون الى قائمة عدم طهارتهم خطيئة النفاق .

ويرى رسل أن تلقين مذهب واحد باعتباره يقينا لا يقبل النقاش مفسدة للنشء وأخلاقهم الفردية ، كما انه مفسدة للمجتمع على حد سواء . فالفرنسيون يعلمون فى كتبهم ومدارسهم أن الانجليز أشرار ، والانجليز يعلمون فى كتبهم ومدارسهم أن الفرنسـيين أشرار والبروستانت يعلمون أن الكاثوليك أشرار . وبالعكس . وهكذا دواليك سلسلة لا تنتهى من الأحقاد والافتراءات والأكاذيب تفعم القلوب بالعداوة وتشحنها بالبغضاء الذى يجعل الحروب أمرا ممكنا بل أكيدا . وانه لوضع أسـيف أن يمهد النظام التعليمى لكل هذا الحقد والبغض . وسر البلاء أن النظام التعليمى ينظر الى التلميذ بوصفه وسيلة أو مادة خام لقضاء المآرب وليس بوصفه

غاية فى حد ذاته • والسلطات التعليمية تنظر الى النشء على أنهم « عمال المستقبل فى المصانع ، وأسلحة فى الحروب الى غير ذلك من الأمور •
ولا يستحق انسان أن يمارس التعليم اذا لم يشعر ان كل تلميذ غاية فى حد ذاته ، له حقوقه الخاصة به ، وشخصيته الخاصة به لا مجرد قطعة شطرنج أو جندى فى كتيبة أو مواطن فى دولة »

« فتبجيل الشخصية الانسانية هو بداية الحكمة فى كل مسألة اجتماعية • وفى التعليم قبل كل شىء وفوق كل شىء » •

الفهرس

الموضوع	الصفحة